

ظلال شجرة الرمان

ترجمة : محمد عبد النبى
مراجعة : طلعت الشايب

رواية

طارق علي

ظلال شجرة الرمان

خماسية الإسلام (١)

ترجمة : محمد عبدالنبي
مراجعة : طلعت الشايب

روايـــة

*



ظلال شجرة الرمان

خماسية الإسلام (١)



ظلال شجرة الرمان

خماسية الإسلام

الطبعة الأولى : ٢٠١١

رقم الإيداع : ١٧٢٥٣ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى :٦-٩٧٨٩١١٦٣٠

تصميم الغلاف : ستوديو ٣٠٦

الكتب خان للنشر والتوزيع©

١/٣ شارع اللاسلكى - المعادى الجديدة - ١١٧٤٢ - القاهرة.

تليفون : ٢٥١٩٤٨٠٧ ٢٠٢ +

البريد الإلكترونى : info@kotobkhan.com

الموقع الإلكترونى : www.kotobkhan.com



طارق على

تجعلنا المسيرة الحياتية والإبداعية للكاتب البريطانى (الباكستانى) طارق على بأن نصفه بقدر كبير من الاطمئنان بأنه كاتب مقاتل. بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بمدة قصيرة تصادف أن كان مسافرًا عندما استوقفه رجال الأمن الألمان فى مطار ميونخ؛ لأنه كما قيل آنذاك: كان يحمل كتيبًا يحتوى على مقال لكارل ماركس بعنوان: «الانتحار».. بعد تفتيش دقيق لحقيبته طلبوا منه أن يترك الكتاب «بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر لا يمكن أن تسافر بكتب كهذه»، ولم يتركه رجل الأمن يسترجع كتابه إلا بعد أن هدد بالاتصال بعمدة ميونخ الذى كان قد حاوره قبل مدة قصيرة من الأحداث فى إحدى المناسبات العامة بالمدينة.

المؤكد أن مسافرًا زاده الثورة مثل طارق على لم يكن شخصًا مجهولا بالنسبة لأجهزة الأمن الألمانية؛ لأن سجلاته لديهم ولدى أجهزة الدول الأخرى مثقلة بالمعلومات التى تقول: إن ذلك المقاتل الثورى على أكثر من جبهة، والمولود فى لاهور (١٩٤٣)، صاحب تاريخ قلق مقلق، وفكر تصادمى منذ شبابه الأول. فهو رئيس اتحاد طلاب جامعة البنجاب، ومنظم وقائد المظاهرات الطلابية ضد الديكتاتورية فى باكستان الستينيات، وهو الشاب الطائش الذى أبعده أهله للدراسة فى بريطانيا عملًا بنصيحة عمه الذى كان رئيسًا للمخابرات الباكستانية آنذاك؛ حرصًا على سلامته ومستقبله، ثم هو رئيس اتحاد طلبة جامعة أكسفورد فى ١٩٦٥، حيث كان يدرس الفلسفة والسياسة والاقتصاد،

وهـو عضـو محكمة جرائـم الحـرب (التى شـكلها الفيلسـوف «براتراند رسـل»)، وقام بزيـارة كمبوديا وڤيتنام فى ١٩٦٧ فى إطار نشـاطها، وهو أحد رموز حركة الطلاب العالمية فى ١٩٦٨، ومحاضر ومناظر شخصيات مثل هنرى كيسنجر ومايكل ستيوارت، فى ذروة حرب ڤيتنام.

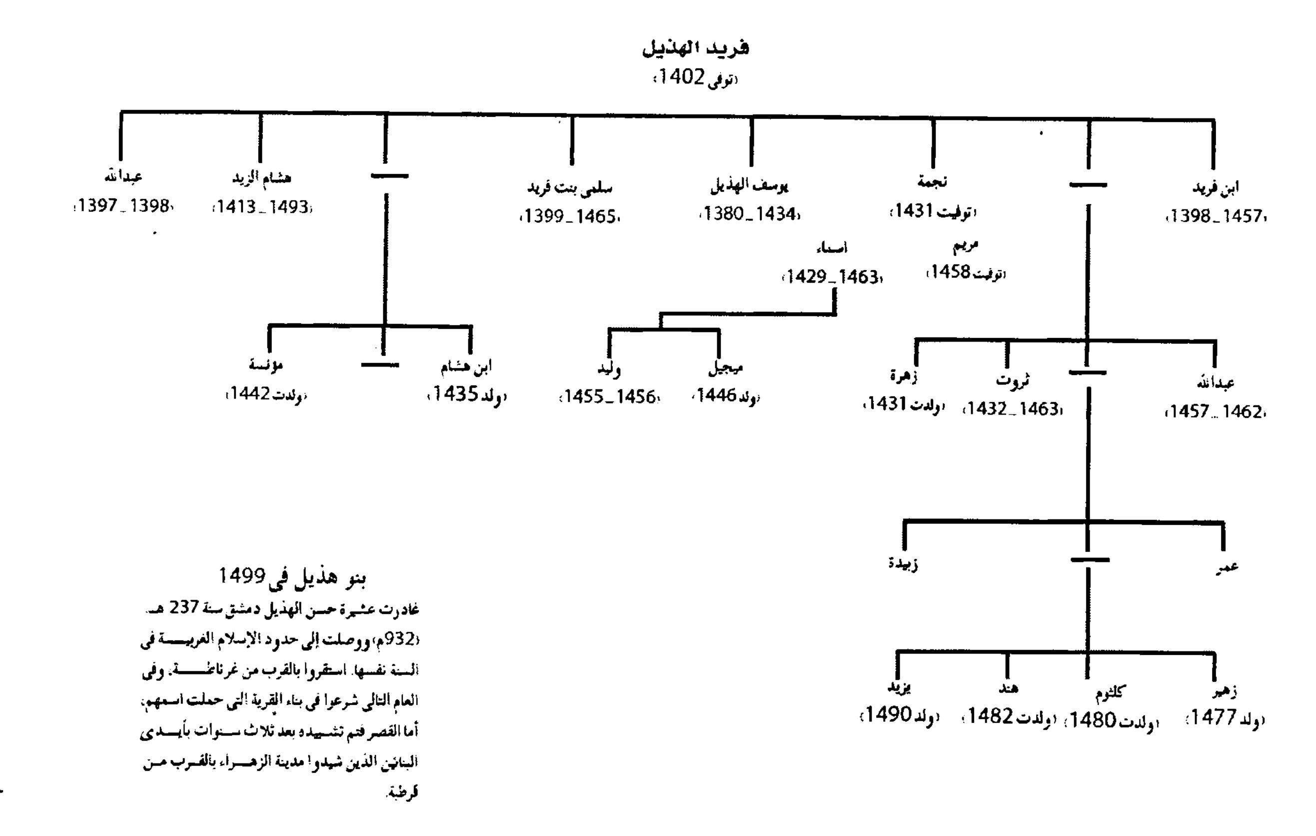
تـرك طـارق على حـزب العمال ليصبـح زعيمًا للجماعة الماركسـية الدولية (IMG)، والشـعبة البريطانية من الأممية الرابعة التى انشـق عليها، بعـد أن نجحت النزعة الاسـتهلاكية فى ابتلاع راديكالية السـتينيات. هل قلنا: إن طارق على مقاتل شرس على أكثر من جبهة؟ فى أواخر السـتينيات وأوائـل السـبعينيات كان رئيسـا لتحريـر صحيفتـى "القسـم الأسـود" و"الخلد الأحمر" فكتب حول تطورات السياسة العالمية مناهضا للحروب واسـتغلال الشـعوب، كـما كتـب لصحـف أخرى مثـل "نيو ستيتسـمان" و"الجارديـان"، ورأس تحرير مجلة "اليسـار الجديـد"، وقدم لطبعة جديدة فى ١٩٧٠ مـن كتـاب "شـاخت مـان": السـنوات العـشر الأولى للحركة التروتسـكية (١٩٢٣-١٩٣٣)، وأشرف عـلى تحريـر كتـاب «الإرث الستالينى وأثره على السياسة العالمية فى القرن العشرين (١٩٨٤)».

طـارق عـلى روائـى ومخرج سـينمائى ومُحـاضر يتصـدر المؤتمرات المناهضـة للحـروب والعولمـة عـلى النمـوذج الأمريكـى، والأصوليات الدينيـة والإمبراطوريـة (الإمبراطوريـة عنـده تعنـى أمريـكا وأمريـكا تعنـى الإمبراطورية كما يقول) وحروب الإبادة فى أفغانسـتان وفلسـطين والعـراق وغيرهـا. أصدر طـارق على أكثر مـن ثلاثين عمـلًا فى التاريخ والسياسـة والأدب الروائـى كلهـا مثـيرة للجـدل، من بينها «باكسـتان: حكـم عسـكرى أم سـلطة شـعبية؟» (١٩٧٠) و«نهرويـون وغانديون: سـلالة هندية حاكمة» (١٩٨٥) و«سـنوات حرب الشوارع: سيرة ذاتية للسـتينيات» (١٩٨٧) و«الثـورة مـن أعلى: الاتحاد السـوڤيتى إلى أين؟»

(١٩٨٨) و«صدام الأصوليات: الحملات الصليبية والجهاد والحداثة» (٢٠٠٢). وله فى الرواية التاريخية خماسية يحاول أن يصور فيها الحضارة الإسلامية على نحو يصفه بأنه سباحة ضد التيار «ظلال شجرة الرمان - كتاب صلاح الدين - امرأة الحجر - سلطان فى باليرمو - ليلة الفراشة الذهبية»، أما مشروعه لكتابة سقوط الحلم الاشتراكى فيتضمن ثلاثة أعمال صدر منها «الخوف من المرايا» (١٩٨٩) و«الخلاص» (١٩٩٠).

كيف يكتب إذن كاتب بهذه المسيرة النضالية الرواية؟ وأى رواية يكتب؟ وكيف يرى العلاقة بين التاريخ ورواية التاريخ؟ فى محاضرة له بالدوحة فى ٢٠٠٥ مشاركا فى ندوة عن الرواية والتاريخ يقول: "على امتداد أيام طفولتى فى لاهور كنت دائمًا أميل عاطفيًا إلى التاريخ...، وكنت أستمتع بالإصغاء إلى القصص المتعلقة ببلاطات المغول وشعرائهم ومهرجيهم، وفيما بعد حينما أصبح فى مقدورى أن أقرأ الإنجليزية قرأت مجموعة من الروايات التاريخية وأعدت قراءتها. كانت الروايات التى يقرأها تكشف له عن عالم آخر، وكلما كان التاريخ عجائبيًا وغرائبيًا كانت متعة القراءة أكثر، وبعد ذلك عندما أخذ يقرأ ويدرس التاريخ الحقيقى (كما حدث) كان يجده موازيًا للروايات فى الإثارة والغرائبية.





بنو هذيل في 1499

غادرت عشيرة حسن الهذيل دمشق سنة 237 هـ (932م) ووصلت إلى حدود الإسلام الغربية في السنة نفسها. استقروا بالقرب من غرناطة. وفي العام التالي شرعوا في بناء القرية التي حملت اسمهم. أما القصر فتم تشييده بعد ثلاث سنوات بأيدي البنائين الذين شيدوا مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة.

إهداء

إلى عائشة وچنكيز وناتاشا

(المؤلف)

✱

مفتتح

لم يرحب الفرسان المسيحيون الخمسة باستدعائهم فى منتصف الليل إلى حيث يقيم خيمينث دى سيسنيروس. ولم يكن رد فعلهم كذلك إلا لأن تلك الليلة كانت هى الأشد برودة على قدر ما يتذكرون خلال حياتهم، فهم أصحاب خبرة بحروب الفتح والغزو. قبل سبع سنوات كانت قواتهم قد دخلت غرناطة منتصرة، واحتُلَّت المدينة باسم فرديناند وإيزابيلا.

لم يكن أى من الخمسة ينتمى إلى المنطقة، وأكبرهم سنا كان ابنا شرعيا لراهب من طليطلة، أما الآخرون فكانوا من قشطالة ويتلهفون للعودة إلى قراهم. كانوا كلهم كاثوليك صالحين، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن يؤخذ ولاؤهم كأمر مُسلَّم به، ولا حتى من قبل كاهن الاعتراف الخاص بالملكة، فهم يعرفون كيف جعلهم ينقلونه من طليطلة، حيث كان رئيسا للأساقفة، إلى المدينة المفتوحة. لم يكن سرا خافيا أن سيسنيروس كان أداة فى يد الملكة إيزابيلا، وأن نَفوذه لا يقتصر على سلطته الروحية، وكان الفرسان يعلمون تمام العلم كيف سيتعامل البلاط مع أى تحد لسلطته.

تدثر الرجال الخمسة بعباءات واسعة، وعلى الرغم من ذلك كانوا يرتجفون من البرد، حين أدخلوهم إلى غرفة نوم سيسنيروس. أدهشهم تقشف ظروف معيشته. تبادلوا النظرات. لم يسبق أن أقام أميرٌ من أمراء الكنيسة فى مسكن يناسب راهبًا من المتشدِّدين فى الزهد. لم يعتادوا أن يروا أسقفا يتسق أسلوب معيشته مع أفكاره. تطلع خيمينث نحوهم

وابتسم. الصوت الذى كان يُملى عليهم تعليماته كان خِلْوًا من رنين السلطة والنفوذ، انتابت الفرسان الدهشة والارتباك. همس الرجل القادم من طليطلة بصوت مسموع لرفاقه: «لقد سلَّمَتْ إيزابيلا مفتاح بيت الحمام لقط». قرر سيسنيروس أن يتغاضى عن الوقاحة البادية، لكنه رفع صوته قليلًا:

«أود أن أوضح أننا غير مشغولين بالسعى وراء أى ثأر شخصى. إننى أتحدث إليكم بلسان سلطة الكنيسة والتاج معًا».

لم يكن ذلك صحيحا تماما، غير أنه ليس من شأن الجنود مساءلة من هم فى السلطة. قام رئيس الأساقفة بصرفهم بمجرد أن شعر بأنهم فهموا أوامره تماما، لقد أراد أن يوضح دون أى لبس أن قلنسوة الراهب هى صاحبة اليد العليا على السيف. بعد أسبوع واحد، فى الأول من ديسمبر ١٤٩٩، دخل الجنود المسيحيون تحت إمرة القادة الفرسان الخمسة، المائة وخمس وتسعين مكتبة عامة بالمدينة، ونحو اثنى عشر قصرا من القصور المعروفة باحتوائها على أشهر المقتنيات الخاصة من الكتب، وتمت مصادرة كل ما هو مكتوب باللغة العربية.

فى اليوم السابق على ذلك، كان الدارسون والطلاب مِن خَدَمة الكنيسة قد نجحوا فى إقناع سيسنيروس بأن يستثنى من قراره ثلاثمائة مخطوط، وقد وافق شريطة أن توضع تلك المخطوطات فى المكتبة العامة الجديدة التى كان يزمع تأسيسها فى القالة. كان معظمها كتابات عربية فى الطب والفلك، تمثل التقدم الهائل فى المجالين وفى العلوم الأخرى ذات الصلة منذ القدم، وكان بين هذه المادة الكثير مما انتقل من شبه جزيرة الأندلس وصقلية إلى بقية أنحاء أوروبا، ومهد السبيل أمام عصر النهضة.

آلاف النسخ من القرآن الكريم، جنبا إلى جنب تفاسير وتأملات فلسفية لاهوتية حول ما للكتاب وما عليه، كلها منسوخة بأروع وأجمل الخطوط، جمعها الرجال فى زيهم الموحد كلها، دون تمييز، وحملوها بعيدا

بالعربات. مخطوطات نادرة ما كان ليكتمل معمار الحياة الفكرية والثقافية بالأندلس بدونها، كانت مكومة كيفما اتفق فى صرر على ظهور الجنود.

على مدار النهار بنى الجنود متراسا من مئات الألوف من المخطوطات، وهكذا كانت الحكمة الجمعية لشبه الجزيرة كلها ملقاة هنا فى سوق الحرير القديمة تحت باب الرملة.

كانت تلك هى الساحة القديمة نفسها حيث اعتاد الفرسان الموريسكيون أن يتباروا فى امتطاء الخيل والمبارزة، لجذب أعين سَيِّداتهم؛ وحيث كان يتجمع العامة بأعداد هائلة، ويعتلى الأطفال أكتاف آبائهم أو أعمامهم أو أشقائهم الأكبر سنا، وهم يهللون للفرسان المفضلين لديهم؛ بينما كان صفير الاستهجان والنفور فى انتظار ظهور أولئك المتباهين بدروع الفرسان، لا لشىء سوى أنهم كانوا من موالى السلطان وصنائعه؛ وحين كان يتضح أن رجلا شجاعًا يسمح لواحد من الحاشية بهزيمته مراعاة لمكانة الملك، أو كما هو محتمل بالقدر نفسه، طمعًا فيما وعدوه به من صرة ممتلئة بدنانير ذهبية، عندئذ كان أهل غرناطة يصيحون بالسخط والسخرية بأعلى أصواتهم، فقد عرف هؤلاء المواطنون بحرية العقل والفكر، والسخرية اللاذعة، وصعوبة الاعتراف بوجود من يفوقهم فى أى شىء. كانت تلك هى المدينة وذلك هو الموضع الذى اختاره سيسنيروس لعرض الألعاب النارية تلك الليلة.

كانت المجلدات باذخة التغليف وبديعة الزخارف شاهدا وبرهانا على ما بلغته فنون أبناء شبه الجزيرة من العرب، وقد جاوزت كل معايير الأديرة فى العالم المسيحى، أما المؤلفات التى احتوتها هذه المجلدات فكانت مثار حسد وحقد جميع العلماء والدارسين فى أنحاء أوروبا. ما أروع وأبدع الكومة المطروحة تحت أنظار سكان المدينة.

الجنود الذين انخرطوا منذ الساعات الأولى للصباح فى بناء جدار الكتب، كانوا يتجنبون النظر فى أعين الغرناطيين. بعض المتفرجين كانوا

فى حالة من الأسف والحزن، وآخرون فى حالة هياج شديد، عيونهم متقدة، ووجوههم يكسوها الغضب والتحدى؛ وآخرون ساكنون، تتمايل أبدانهم بلطف من هذا الجانب إلى ذاك، تكسو وجوههم تعبيرات خاوية جامدة. ظل أحدهم، وهو رجل مسن، يردد العبارة الوحيدة التى كان يمكنه التفوه بها فى مواجهة الفاجعة: «لقد غرقنا فى بحر من العجز».

بعض الجنود، ربما لأنهم لم يتعلموا أبدا أن يقرأوا أو يكتبوا، كانوا يدركون فداحة الجرم الذى يساعدون فى اقترافه، كان يقلقهم الدور الذى يقومون به؛ ولأنهم أبناء فلاحين، كانوا يتذكرون الحكايات التى اعتادوا سماعها من أجدادهم الذين كانت حكاياتهم عن وحشية الموريسكيين، تتناقض مع روايات عن ثقافتهم ومعارفهم.

لم يكن بين الجنود كثير من هؤلاء، ولكن وجد منهم ما يكفى لأن يصنع اختلافا ما، فبينما كانوا يسيرون فى الشوارع الضيقة كانوا يتعمدون إلقاء بضعة مخطوطات على عتبات الأبواب المحكمة الإغلاق؛ وحيث لم يكن لديهم أية معايير أخرى للتقييم، كانوا يعتقدون أن المجلدات الأثقل وزنا لابد أن تكون الأنفس. لم يكن افتراضهم صحيحا، غير أن مقصدهم كان نبيلا وكانت اللمحة محل تقدير. وما كاد الجنود يختفون عن الأنظار حتى انفتح باب وتسلل خارجًا منه شخص ملفوف بردائه، يلتقط الكتب ويختفى من جديد وراء الأمان النسبى للأقفال والمزاليج. بهذه الطريقة، وبفضل اللياقة الفطرية لحفنة من الجنود، كتبت النجاة لبضع مئات من المخطوطات المهمة، وفيما بعد، نقلت عبر الماء إلى أمان مكتبات شخصية فى فاس، وهكذا أنقذت من الهلاك.

بدأ الظلام يحل على الميدان. إلى جوار الجند تجمع حشد كبير من المواطنين المناوئين، نبلاء من مسلمى الأندلس وشيوخ معممون اختلطوا بأصحاب الحوانيت والتجار والفلاحين والحرفيين وأصحاب الأكشاك الصغيرة، جنبا إلى جنب القوادين والعاهرات والمختلين عقليا. كل

النماذج الإنسانية كانت ممثلة هنا.

من وراء نافذة مسكنه كان الحارس الأمين والمفضل لدى الكنيسة فى روما يراقب -شاعرًا بالرضا- أعمدة الكتب وهى ترتفع وتعلو. لطالما آمن خيمينث دى سيسنيروس أنه ليس بالإمكان القضاء على قوة الوثنيين إلا بمحو ثقافتهم محوا تاما، وهو ما يعنى التدمير المنظم لكل كتبهم. سوف يواصل تراثهم الشفاهى حياته لفترة، إلى أن تتكفل محاكم التفتيش بقطع الألسنة الآثمة. إن لم يقم بذلك هو بنفسه، فلابد أن شخصًا آخر سواه كان سينظم هذا الإضرام الضرورى لمحرقة الكتب شخصًا آخر يفهم أن المستقبل لابد من أن يتم إنقاذه بالصرامة والانضباط، وليس بالحب والتثقيف، كما كان يدعى أولئك الدومينيكان الحمقى دائمًا. فأى شىء قد أنجزوا هم من قبل؟

كان خيمينث يشعر بالسرور، لقد اختاره الرب القدير ليكون أداته لإنجاز هذه المهمة. لعل آخرين كان بوسعهم إنجازها، غير أنه ما من أحد كان لينجزها بالقدر نفسه من النظام والمنهجية كما فعل. تغضنت شفته ببسمة سخرية. أى شىء يرجى من رجال دين كان آباء أديرتهم، قبل بضع مئات من السنين فقط، يُسمون بأسماء مثل محمد، وعمر، وعثمان، وما شابه؟ كان خيمينث فخورا بنقاء أصله، الأكاذيب التى تحملها فى طفولته كانت زائفة. فليس له أسلاف يهود، ولا لوثت عروقه دماء هجينة.

كان أحد الجنود متخذا موقعه قبالة نافذة الأسقف، حدجه خيمينث بنظرته ثم أومأ له، وانتقلت الإشارة إلى حملة المشاعل، وأضرمت النيران. ساد صمت مطبق لنصف دقيقة. ثم مزق صوت نواح مرتفع تلك الليلة من ديسمبر، تلتها صيحات: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

كانت جماعة من الناس تصيح بالتهليل على مبعدة من سيسنيروس،

غير أنه لم يستطع أن يسمع كلماتهم، وما كان ليفهمها على أية حال، بما أنها كانت باللغة العربية. كانت ألسنة النيران تتصاعد أعلى فأعلى. وبدت السماء نفسها مثل هاوية تتوهج بنار السعير، وسبحت فى الهواء أطياف من شرر مختلف ألوانه، بينما كانت المخطوطات تحترق، كأن النجوم كانت تمطر أحزانها وأسفها!

ببطء، شرع المتجمعون فى الابتعاد وهم فى حالة من الذهول، حتى تجرد متسول من ثيابه تمامًا وبدأ يصعد إلى النيران، وصاح من رئتين تحترقان: «ما معنى الحياة بدون كتب علومنا؟ لابد من أن يدفعوا الثمن، سيدفعون ثمن ما فعلوه بنا اليوم».

فقد وعيه، وطوقته ألسنة اللهب. ذُرفت الدموع فى صمت ومقت، غير أن الدموع لم تستطع أن تخمد النيران التى أُضرمت ذلك اليوم، وتفرَّق الناس.

الميدان أخرس. هنا أو هناك، كان الدخان يتصاعد من بعض النيران الخامدة. يسير خيمينث وسط الرماد، وعلى محياه ابتسامة ملتوية بينما يدبر للخطوات التالية. كان يفكر بصوت عال:

«أيا كان الانتقام الذى قد يخططون له فى أعماق بلواهم وحسرتهم فلن يكون ذا نفع. لقد انتصرنا، الليلة كان نصرنا الحقيقى».

خيمينث يدرك قوة الأفكار أكثر من أى شخص آخر فى شبه الجزيرة، أكثر حتى من إيزابيلا ذات الشخصية الرهيبة. ركل نحو الرماد حزمة من رقائق نفيسة محترقة. فوق جمرات مأساة، كان ظل مأساة أخرى يتوارى.



الفصل الأول

«إذا استمرت الأمور على هذا المنوال، فلن يتبقى لنا سوى الذكرى العطرة»، هكذا كانت تقول "آمه" بصوت يشوهه فمها الأدرد.

قطب يزيد جبينه وقد تشتت تركيزه، ورفع بصره عن رقعة الشطرنج، كان عند الطرف الآخر من فناء الدار، مستغرقا فى محاولة يائسة لإتقان حيل جديدة. كانت أختاه، هند وكلثوم، بارعتين فى رسم خطط الشطرنج. كانتا هناك فى غرناطة، مع بقية أفراد الأسرة، وكان هو يريد أن يفاجئهما بنقلة افتتاحية غير تقليدية عند عودتهما.

حاول أن يثير اهتمام "آمه" باللعبة، غير أن العجوز أضحكتها الفكرة وأعرضت. لم يستطع يزيد أن يفهم سبب إعراضها. أليس الشطرنج أهم بكثير من المسبحة التى لا تتوقف عن مسها وتحريك حباتها؟ فلماذا تغفل على الدوام هذه الحقيقة البديهية؟

أخذ يرفع قطع الشطرنج دون حماسة، وبينما كان يُبيت القطع بحرص فى مأواها الصغير، كان يفكر كم هى بديعة وفريدة. لقد تم صنعها خصيصا بطلب من أبيه. كان خوان النجار قد تلقى أمرا بأن ينحتها بحلول عيد ميلاد يزيد العاشر، فى الشهر الماضى، من العام ٩٠٥ من الهجرة، الذى كان يوافق ١٥٠٠، بحسب التقويم المسيحى.

كانت عائلة خوان فى خدمة بنى هذيل على مدى قرون. فى عام ٩٣٢هـ جاء شيخ عشيرة هذيل حمزة بن هذيل، فارا من دمشق جالبا معه أسرته وأتباعه إلى أقصى بقعة بلغها الإسلام فى الغرب، واستقر على منحدرات تلال على مبعدة نحو عشرين ميلًا من غرناطة، وهنا أسس

القرية التى عرفت باسم الهذيل، وقد ارتفعت على رابية كان من الممكن رؤيتها من مسافات بعيدة. كانت تحيط بها منابع جبلية تتحول فى فصول الربيع إلى سيول من الجليد المذاب، وفى الضواحى المحيطة بالقرية كان أبناء حمزة يزرعون الأراضى ويغرسون البساتين. بعد أن توفى حمزة بنحو خمسين عاما، بنى أحفاده لأنفسهم قصرا، تمتد من حوله الأراضى المزروعة، وكرمات الأعناب، وبساتين اللوز والبرتقال والرمان والتوت التى كانت تبدو كلها وكأنها أطفال يتحلقون حول أمهم.

فيما عدا الغنائم التى كانت من نصيب ابن فريد أثناء الحروب، فإن كل قطعة من الأثاث صنعها وحفرها، بعناية، أسلاف خوان وأجداده. كان النجار يدرك مثل كل من عداه فى القرية المنزلة الخاصة ليزيد فى الأسرة. كان هو الصبى المفضل لدى الجميع. وعلى هذا فقد استقر عزم النجار أن ينحت مجموعة من قطع الشطرنج تبقى لعمر أطول من أعمار البشر الفانين جميعا، وهنا تجاوز خوان أشد طموحاته شططا.

أعطى النجار الموريسكيين اللون الأبيض. ملكتهم ذات جمال نبيل ورأسها مغطى بوشاح أندلسى، وزوجها سلطان بلحية حمراء وعينين زرقاوين، جسده مشمول بعباءة عربية فضفاضة مرصعة بالأحجار الكريمة النادرة، وكانت الطابيتان نسخة طبق الأصل عن برج المنزل الذى يشرف على مدخل قصر بنى هذيل الشامخ، وكان الفرسان تجسيدات للجد الأكبر ليزيد، الفارس المحارب ابن فريد، الذى تهيمن مغامراته فى الغرام والحروب على ثقافة هذه الأسرة تحديدا، الأساقفة البيض كانوا على نموذج إمام مسجد القرية المعمر، أما البيادق فقد حملت شبها عجيبا من ملامح يزيد نفسه.

لم يكن المسيحيون سودا فقط، بل تم نحتهم على هيئة وحوش. عينا الملكة السوداء كانتا تبرقان بالشر، فى تناقض قاس مع منمنمة العذراء المعلقة حول رقبتها. شفتاها مصبوغتان بلون الدم، وفى أصبعها

خاتم على هيئة جمجمة مطلية، ونحت الملك وعلى رأسه تاج خفيف لا يصعب رفعه من مكان لآخر. وكما لو كانت تلك الرمزية لا تكفى، قام النجار المحطم للأيقونات والتقاليد بإضافة قرنين صغيرين للملك. ذلك التصوير الفريد لفرديناند وإيزابيلا كان يحيط به هيئات على القدر نفسه من البشاعة والعجائبية. كان الفرسان يرفعون أياد ملطخة بالدماء، الأسقفان فى هيئة الشيطان؛ كلاهما يقبض على خنجر بينما تبرز لهما من الخلف ذيول ملتوية مثل السياط. لم تقع عينا خوان بالمرة على خيمينث دى سيسنيروس وإلا لكان هناك قدر من الشك فى أن يكون قد بالغ مبالغة هزلية فى تصوير عينيه المشتعلتين وأنفه المعقوف. البيادق كلها على هيئة رهبان، بكل اللوازم من قلنسوة الراهب إلى النظرات الجائعة والكروش الكبيرة، مخلوقات محكمة التفتيش تنبش الأرض عن فريسة.

كل من أبصر المنجز النهائى للقطع أجمعوا على أن خوان أتم تحفة أصيلة. أما عُمَر والد يزيد، فقد كان قلقا، لمعرفته بأنه إذا وقعت عينا أحد من جواسيس محكمة التفتيش على مجموعة قطع الشطرنج، فسوف يتم تعذيب النجار حتى الموت. غير أن خوان كان عنيدا: «يستحق الصبى هذه الهدية». كانت محكمة التفتيش قد اتهمت والد النجار بالمروق والكفر قبل نحو ستة أعوام أثناء زيارته لأقاربه فى طليطلة، وقد لقى حتفه فيما بعد بالسجن متأثرا بجراح خطيرة، زادت وامتدت نتيجة لكبريائه خلال تعذيب الرهبان له، وجاءت خاتمة تعذيبه بخلع أصابعه من يديه، ثم فقد النجار المسن الرغبة فى الحياة. كان الشاب خوان مصرًا على الانتقام، ولم يكن تصميم مجموعة قطع الشطرنج إلا البداية.

حُفر اسم يزيد على قاعدة كل قطعة وشبَّ متعلقًا بشدة بقطع شطرنجه كما لو كانت مخلوقات حية، إلا أن القطعة المفضلة لديه كانت إيزابيلا الملكة السوداء. كان يخافها لكنه مفتون بها فى الوقت نفسه، وفى وقت ما أصبحت كاتمة أسراره، وشخصًا يفضى إليه بكل همومه، ولكن

بعد أن يتأكد أنها بمفردهما، وما أن أتم جَمع القطع وبيَّتَهَا حتى تَطلَّع مجددًا نحو العجوز وتنهد.

لماذا تكلم "آمه" نفسها كثيرا هذه الأيام؟ هل ذهب عقلها حقا؟ هند تقول: إنها جُنَّت، غير أنه ليس متأكدا، فأخت يزيد كثيرا ما تتفوه بأشياء فى نوبة غضب، ولكن لو أن "آمه" كانت قد جنت فعلا لكان أبوه وجد لها مكانا فى المارستان الكائن بغرناطة؛ لتكون إلى جوار عمته الكبيرة زهرة. كانت هند غاضبة فقط لأن "آمه" دائما ما تردد أن الوقت قد حان لأن يجد والداها زوجا لها.

عبر يزيد فناء الدار وجلس على حجر "آمه". تغضن وجه العجوز زيادة على شبكة التجاعيد المرسومة عليه إذ ابتسمت؛ للثقل الذى حط عليها. وضعت مسبحتها جانبا بلا كلفة وراحت تربت على وجه الفتى، وتقبل رأسه قبلات رقيقة:

«فليباركك المولى. هل أنت جائع؟».

«كلا يا "آمه"، مع من كنت تتحدثين قبل دقائق؟».

«ومن يستمع إلى عجوز هذه الأيام يا ابن عمر؟ لو أننى متُّ لكان أفضل».

لم تدع "آمه" يزيدًا باسمه الأول أبدا. ألم يكن يزيد هو اسم الخليفة الذى هزم وقتل أحفاد النبى بالقرب من كربلاء؟ لقد أمر يزيد ذلك جنوده بأن يربطوا خيولهم فى مسجد المدينة الذى صلى فيه النبى، وهو يزيد نفسه الذى ازدرى صحابة النبى وأهانهم، ومجرد النطق باسمه يلوث ذكرى آل البيت. لم يسعها أن تخبر الصبى بهذا كله، ولكن كان فيه سبب كاف لأن تشير إليه على الدوام بابن عمر نسبة إلى أبيه. سألها يزيد ذات مرة عن ذلك الأمر فى حضور الأسرة مجتمعة، ورمت "آمه" أمه زبيدة بنظرة غضب، كما لو كانت تقول: الذنب ذنبها، لم لا تسألها هى؟ غير أن الجميع أخذوا يضحكون بينما خرجت "آمه" من المكان غاضبة.

«كنت أستمع إليك، سمعتك تتكلمين، أستطيع أن أخبرك بما

كنت تقولين. هل أعيد عليك كلامك؟».

تنهدت "آمه" قائلة: «آه يا بنى، لقد كنت أتحدث إلى ظلال شجر الرمان. على الأقل ستبقى هذه الظلال فى موضعها بعد أن نكون قد رحلنا جميعا».

«رحلنا جميعا إلى أين يا "آمه"؟».

«إلى الجنة يا صغيرى».

«هل سندخل كلنا الجنة؟».

«أنعم الله عليك بها. ستدخل الجنة، وسوف ترتقى إلى السماء السابعة، يا هلالى الطاهر الصغير. أما الآخرون فلست أدرى، وبالنسبة لأختك، هند بنت عمر، فإن لم يزوجوها على جناح السرعة فلن تبلغ حتى باب السماء الأولى. كلا، لن تبلغها. أخشى أن يصيب تلك الصبية مكروه. أخشى أن تتعرض لمصارع الهوى المشبوب، وينزل العار على رأس أبيك أعزه الله».

شرع يزيد يضحك لفكرة أن هندًا لن تدخل حتى من باب السماء الأولى، وكان ضحكه معديا فما لبثت "آمه" أن قوقأت بالضحك مثل دجاجة هى الأخرى، كاشفة عن المجموعة الكاملة للأسنان الثمانية المتبقية لديها.

كانت هند هى أكثر من يحبها يزيد من بين إخوانه وأخواته، كان الآخرون الذين ما زالوا يتعاملون معه وكأنه طفل رضيع، يبدون مذهولين دائما؛ لأنه يستطيع أن يفكر ويتحدث معبرا عن نفسه ويرفعونه ويقبلونه مثل حيوان أليف يعرف أنه المحبب لديهم، لكنه كان يكره عدم إجابتهم عن أسئلته، وكان ذلك سبب ازدرائه لهم جميعا.

كلهم عدا هند، التى كانت تكبره بستة أعوام، ولكنها كانت تعامله معاملة الأنداد. كثيرا ما تجادلا وتشاجرا، ولكن كليهما كان مغرما بالآخر، وغرامه بأخته كان متجذرا فى نفسه بحيث لم تكن النبوءات المشئومة

والغامضة ل"آمه" تضايقه أهون الضيق أو تؤثر فى شعوره نحو هند.

كانت هند هى التى أخبرته بالسبب الحقيقى لزيارة العم الكبير ميجيل، تلك الزيارة التى أزعجت والديه بشدة الأسبوع الماضى، كما انزعج هو أيضا عندما علم أن ميجيل كان يريدهم أن يذهبوا كلهم إلى قرطبة، حيث اعتلى منصب الأسقف، وحيث كان يمكنه أن يقوم شخصيا بتحويلهم إلى الكاثوليكية. كان ميجيل أيضا هو من جرهم كلهم جرا، بمن فيهم هند، إلى غرناطة قبل ثلاثة أيام. التفت يزيد إلى العجوز من جديد:

لماذا لا يتحدث العم الكبير ميجيل إلينا بالعربية؟».

جفلت "آمه" للسؤال الذى فاجأها، ووفقا لعادة عتيقة لم تتبدل، بصقت بتلقائية عند ذكر اسم ميجيل، راحت تتحسس مسبحتها شبه يائسة، وهى تُتَمْتِمُ: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله...».

«أجيبى يا "آمه"، أجيبى عن سؤالى».

نظرت "آمه" نحو وجه الصبى المشرق. كانت عيناه اللتان لهما لون اللوز تبرقان بالغضب. ذَكَّرَهَا بجده الأكبر، وكانت هذه الذكرى هى التى هدَّأت خاطرها وهى تجيب عن سؤاله.

«عمك الكبير ميجيل، يتحدث ويقرأ ويكتب العربية، ولكن... ولكن...». واختنق صوت "آمه" بالغضب إذ واصلت: «لقد أدار ظهره لنا. خالفنا فى كل شىء. هل لاحظت هذه المرة أن رائحته كانت كريهة، مثلهم تماما؟».

عاد يزيد للضحك من جديد. كان يعرف أن عمه الكبير ميجيل ليس بعضو العائلة الذى يحظى بالمودة، غير أنه لم يسبق لأى شخص أن تحدث عنه بكل هذا الازدراء. كانت "آمه" محقة تماما. حتى والده شاركهم الضحك عندما وصفت أمه زبيدة الرائحة المنفرة الصادرة عن الأسقف، بأنها تذكر برائحة ناقة أسرفت فى تناول التمر.

«أكانت رائحته كريهة هكذا دائما؟».

«كلا بالتأكيد!». أزعج "آمه" سؤاله: «فى الأيام الخالية، قبل أن يبيع روحه ويشرع فى التعبد لصور رجال ينزفون مثبتين على صلبان خشبية، كان أنظف أهل الأرض. خمس حمامات يوميا فى الصيف، وخمس مرات يبدل ثيابه. أتذكر تلك الأوقات جيدا، والآن رائحته كرائحة حظيرة الخيول. أتعرف لماذا؟».

أقر يزيد بعدم معرفته.

«لكى لا يتهمه أحد بأنه مسلم تحت ثوب الكاهن. الكاثوليك المتنون! كان المسيحيون فى الأراضى المقدسة قوم نظافة، ولكن هؤلاء القساوسة الكاثوليك يفرون فزعا من المياه، ويعتبرون الاستحمام خيانة للقديس الذى يزعمون أنه ابن الله.

«والآن انهض وتعال معى، حان وقت الطعام، غابت الشمس ولن ننتظر عودتهم من غرناطة أكثر من هذا. لقد تذكرت شيئا للتو، هل تناولت حصتك من العسل اليوم؟».

أَوْمَأَ يَزيد فى نَفَادِ صَبْرٍ أَنْ لا. منذ أن ولد كانت "آمه" ترغمه على تناول ملء ملعقة من العسل البرى المصفَّى على الريق كل صباح، كما فعلت مع أمه وأخواته من قبل.

«كيف نأكل قبل أن تصلين المغرب؟».

قطبت فى وجهه معربة عن استنكارها لفكرة أنها قد تسهو عن صلواتها. العياذ بالله! اتسعت ابتسامة يزيد ولم تستطع هى أيضا أن تمتنع عن الابتسام وهى تنهض ببطء وتشرع فى السير نحو الحمام لكى تتوضأ.

لبث يزيد جالسا تحت شجرة الرمان. كان يحب هذا الوقت من اليوم، حين تتأهب الطيور بضجيج لأن تخلد لأعشاشها حيث تبيت الليل. طيور الوقواق كانت منشغلة فى إعلان آخر ما تبقى لديها من رسائل، والحمامات تسجع وتهدل فى الفجوات الظليلة أمام برج المنزل

المشرف على الفناء الخارجى وعلى العالم الواسع من وراءه.

تبدل الضوء فجأة وحل سكون تام. تحول لون السماء الأزرق الداكن إلى برتقالى مائل للأرجوانى، ناشرًا تعويذة سحرية على قمم الجبال التى كان الجليد ما زال يغطيها. فى الفناء الداخلى للمنزل الكبير أجهد يزيد عينيه وضيقهما محاولا رؤية أول النجوم، غير أنه لم يظهر أى نجم بعد. هل عليه أن يركض إلى البرج وينظر من خلال العدسة المكبرة؟ ماذا لو لاح أول نجم وهو ما زال يصعد الدرج؟ أغمض يزيد عينيه بدلا من ذلك. بدا كما لو أن عبير الياسمين الطاغى قد خدر حواسه وكأنه الحشيشة ليشعر بالنعاس، ولكن الحق أنه كان يعد من واحد إلى خمسمائة. كانت تلك هى طريقته لتمضية الوقت حتى يلوح له النجم القطبى.

قطع صوت المؤذن حبل أفكاره. أتت "آمه" تجر نفسها ومعها سجادة الصلاة الخاصة بها وفرشتها باتجاه القبلة وشرعت فى الصلاة، وما أن سجدت باتجاه الكعبة فى مكة حتى رأى يزيد طباخهم الحطيئة، رآه يشير له باتجاه المطبخ إشارات هيستيرية وهو يقف على الممر المعبد عند حافة الباحة. ركض الصبى إليه.

«ما الخطب يا قزم؟».

رفع الطاهى أصبعه نحو شفتيه مطالبا إياه بالسكوت فأذعن الولد. للحظات لبث كل منهما جامدًا. ثم تحدث الطاهى: «أنصت! فقط أنصت. هناك. هل تسمع؟».

برقت عينا يزيد. على مبعدة كان الصوت المعروف لحوافر خيل، يتبعها صرير العربة. ركض الصبى خارج المنزل بينما كانت الضجة تعلو وتقترب. كانت السماء قد أصبحت مرصعة بالنجوم ورأى يزيد الخدم والحشم يضيئون المشاعل لاستقبال الأسرة. تردد صوت من بعيد.

«لقد عاد عمر بن عبد الله. عاد عمر بن عبد الله....».

أضيئ المزيد من المشاعل وزادت حماسة يزيد وتلهفه، ثم رأى

الرجال الثلاثة على صهوات خيولهم فشرع يصيح.
«أبى! أبى! زهير! هند! أسرعوا فأنا جائع».
ها هم جميعًا، ولكنَّ يزيدًا أدرك أن هناك شيئا ما غير صحيح، فأحد الفرسان الراكبين لم يكن إلا شقيقته هند، أما زهير فكان بالعربة مع أمه وكلثوم، ملفوفا بحرام.
رفع عمر بن عبد الله الصبى عن الأرض واحتضنه.
«هل كان أميرى عاقلا؟».
أومأ يزيد بأن نعم، بينما أمطرت أمه وجهه بالقبلات. وقبل أن ينضم إليها الآخرون فى هذه اللعبة، أمسكت هند به من ذراعه وأخذته وركض الاثنان إلى داخل المنزل.
«لماذا كنت تركبين حصان زهير؟».
توتر وجه هند وتوقفت لبرهة يسيرة مترددة ما إذا كان لها أن تخبره أم لا. قررت ألا تفعل، خشية أن تروع يزيد. كانت تعرف أكثر من أى فرد آخر فى الأسرة ذلك العالم الخيالى الذى يحيط بأخيها الصغير مثل شرنقة.
«هند! ما خطب زهير؟».
«انتابته حمى».
«أتمنى ألا يكون الطاعون».
انطلقت ضحكة هند عالية.
«لقد استمعتَ من جديد إلى حكايات "آمه" الكثيرة، ألم تفعل؟ أيها الأحمق! عندما تذكر الطاعون فإنها تقصد المسيحية. وهذا ليس سبب حمى زهير، ليست خطرة. أمنا تقول إنه سيشفى تماما خلال أيام معدودة. تصيبه حساسية عند تغير الفصول، إنها حمى الخريف. تعال لتستحم معنا. اليوم دورنا لنستحم أولا».
بدت على وجه يزيد علامات السخط.

«سبق أن أخذت حماما. على كل حال فإن "آمه" تقول إننى قد كبرت على الاستحمام مع النساء. تقول...».

«أظن أن "آمه" تقدم بها العمر وصارت تهذى».

«ولكنها تقول كلاما معقولا أيضا، وهى تعرف أكثر مما تعرفين يا هند». توقف يزيد ليرى إن كان هذا التوبيخ قد أثر فى أخته، ولكنها بدت غير مكترثة؛ ثم رأى فى عينيها ابتسامة وهى تمد إليه يدها اليسرى وتسير فى همة إلى المنزل. تجاهل يزيد يدها الممدودة له، ولكنه سار إلى جانبها وهى تعبر الفناء. دخل إلى غرف الحمام معها.

«لن آخذ حماما ولكننى سآتى وأتحدث إليكم».

كانت الغرفة ممتلئة بالخادمات اللاتى يخلعن الثياب عن أم يزيد، وأخته كلثوم. تساءل يزيد لماذا كانت أمه تبدو مهمومة نوعا ما؟ لعل الرحلة أرهقتها، لعلها الحمى التى أصابت زهير. توقف عن التفكير حين شرعت هند فى خلع ثيابها، أسرعت جاريتها الشخصية لالتقاط الثياب المطروحة عن الأرض. استسلمت النساء الثلاث للتصبين والفرك بأنعم الإسفنجات الموجودة فى العالم، ثم صبت عليهن أوعية من الماء النقى. بعد ذلك دخلن إلى الحمام الكبير الذى كان بحجم بركة صغيرة. كان المجرى الذى يغذى المنزل قد صممت أنابيبه وقنواته لتوفر مؤونة لا تنقطع من الماء العذب للاستحمام.

سألت الأم: «هل أخبرت يزيد؟».

هزت هند رأسها.

«وبم تخبرنى؟».

قهقهت كلثوم.

«العم الكبير ميجيل يرغب فى أن تتزوج هند من خوان!».

ضحك يزيد: «ولكنه بدين وقبيح!».

صاحت هند من فرط السرور «أرأيت يا أماه! حتى يزيد يتفق

عمى. فى رأس خوان بدلًا من العقل توجد يقطينة. أمى! ليس بوسعه أن يكون أشد حماقة مما هو عليه، قد يكون عمى ميجيل قذرا ولكنه ليس مغفلا. كيف له أن يفكر فى هذه المزاوجة بين خنزير وشاة؟».

«ليست هناك قوانين فى تلك الأمور يا طفلتى».

تجاسرت كلثوم فقالت: «ليس مؤكدا، فقد يكون هذا عقاب من الله على التحول إلى المسيحية!».

نخرت هند معترضة، ودفعت برأس شقيقتها الكبرى تحت الماء. برزت كلثوم من جديد منفرجة الأسارير. كانت خطوبتها قبل أشهر معدودة، وتم الاتفاق على ترتيب احتفالات الزفاف ومغادرتها لبيت أبويها فى أول العام القادم. بوسعها أن تنتظر. كانت تعرفَ خطيبها ابن حارث منذ أن كانا طفلين صغيرين. كان ابنا لأحد أبناء عمومة أمها، وقد شغف بها منذ أن كان فى السادسة عشرة من عمره. كم تمنت أن يعيشا معًا فى غرناطة بدلًا من إشبيلية، غير أن ذلك لم يكن ممكنا. وما أن يصبحا زوجا وزوجة حتى تبدأ محاولاتها لجره ليكون أقرب إلى بيت أسرتها.

«هل خوان كريه الرائحة مثل العم الكبير ميجيل؟».

مر سؤال يزيد دون إجابة. صفقت أمه بيديها فدخلت الجوارى المنتظرات أمام الباب بالمناشف والزيوت العطرية. وبينما كان يزيد يراقب مستغرقا، كانت أجساد النساء الثلاث تجفف وتدلك بالزيوت؛ ومن الخارج كان يتناهى صوت عمر وهو يدمدم فى نفاد صبر، فغادرت النسوة الحمام على عجل، ودخلن الغرفة المجاورة حيث كانت ثيابهن بانتظارهن. تبعهن يزيد، ولكن سرعان ما أرسلته أمه إلى المطبخ بتعليمات الملزم لإعداد الطعام، وضرورة تقديمه فى غضون نصف ساعة بالضبط. قبل أن ينطلق، همست هند فى أذنه: «خوان يطلق رائحة أنتن من رائحة ذلك العجوز ميجيل!».

«أرأيت؟ "آمه" لا تكون دائما مخطئة إذن!» هكذا صاح الصبى

منتصرا وهو يتواثب إلى خارج الغرفة.

كان القزم قد أعد وليمة فى المطبخ. كان هناك الكثير من الروائح المتعارضة، حتى أن يزيد الذى كان صديقا رائعا للطباخ، استعصى عليه فك شفراتها ومعرفة ما أعده هذا العبقرى محدود النمو من أجل وجبة العشاء، احتفالا بعودة الأسرة سالمة من غرناطة. بدا المطبخ مزدحما بالخدم والحشم، وكان بعضهم قد عاد مع عمر من المدينة الكبيرة. كانوا يتحدثون بانهماك تام، فلم يلحظ أى منهم يزيدًا حين دخل سوى القزم، الذى كان فى مثل طوله تقريبا. هرع إلى الصبى:

أيمكنك أن تخمن ما طهوته؟».

«كلا، ولكن ما سر كل هذا الحماس والضجيج؟».

«أتقصد أنك لا تعرف؟».

«ماذا؟ أخبرنى حالا أيها القزم. أنا أصر».

بدون قصد كان يزيد قد رفع صوته واصبح وجوده ملحوظا، فعاد المطبخ إلى سكونه مجددًا، ولم يعد يسمع إلا صوت نشيش كرات اللحم فى مقلاة كبيرة. نظر القزم إلى الصبى وعلى وجهه ابتسامة أسى:

أخوك، زهير بن عمر..».

«ليس به إلا حمى هينة. أهناك شيء آخر؟ لماذا لم تخبرنى هند؟ ماذا هنالك أيها القزم؟ لابد أن تخبرنى».

«سيدى الصغير. لا أعرف كل الظروف، ولكن ما بأخيك ليس حمى هينة. لقد طعنه مسيحى فى المدينة بعد شجار وقح. إنه بخير، والجرح سطحى، لكن الأمر يتطلب بضعة أسابيع حتى يشفى».

نسى يزيد مهمته، وركض خارجا من المطبخ عبر الفناء، وكان على وشك أن يدخل إلى غرفة شقيقه حين رفعه والده عن الأرض.

«لقد غلب النوم زُهيرًا. يمكنك أن تتحدث إليه فى الصباح ما طاب لك الحديث».

«من طعنه يا أبى؟ من؟ من هو؟».

ارتاع يزيد. لقد كان شديد القرب من زهير وأحس بشىء من الذنب؛ لأنه تجاهل أخاه الكبير وقضى كل هذا الوقت مع هند والنساء.

حاول أبوه أن يطمئنه.

«كان حدثا تافها، مصادفة تقريبا. أهاننى شخص أحمق ونحن على وشك الدخول إلى منزل عمك..».

«كيف؟».

«أمور تافهة. بعض السباب حول إجبارنا قريبا على تناول لحم الخنزير. تجاهلت ذلك الكائن، ولكن زهيرًا، باندفاعه المعتاد، صفع الرجل على وجهه، وعندئذ أشهر خنجرا كان يخفيه فى ثيابه وطعن أخاك تحت الكتف مباشرة..».

«ثم ماذا؟ هل عاقبتم الوغد؟».

«كلا يا بنى. لقد حملنا أخاك إلى داخل المنزل واعتنينا به».

«وأين كان خدمنا؟».

«معنا، ولكن منعتهم أوامرى الصارمة من رد الأذى».

«ولكن لِمَ يا أبى؟ لِمَ؟ لعل المربية "آمه" محقة على كل حال. لن يتبقى لنا سوى الذكرى العطرة».

«وحق الله؟! أقالت ذلك حقا؟».

أومأ يزيد: دامعًا. مسح عمر النداوة عن وجه ابنه وضمه إليه. «يا يزيد بن عمر. لم يعد هناك أمر نستطيع أن نحزم فيه أمرنا دون تردد وتريث. إننا نعيش أصعب حقبة فى تاريخنا، لم تنزل بنا مثل تلك النوائب الهائلة منذ أن فتح طارق وموسى هذه البلاد، وتعرف كم مضى على ذلك، أليس كذلك؟».

أومأ يزيد: «فى قرننا الأول، وقرنهم الثامن».

«هو كذلك تماما يا بنى. هو كذلك تماما. لقد تأخر الوقت. دعنا

نغسل أيدينا ونأكل. أمك تنتظر».

"آمه" التى كانت تستمع إلى المحادثة كلها وهى صامتة عند طرف الفناء أمام المطبخ، دعت للأب وللابن فى همس وهما يدخلان. ثم راحت تتمايل جيئة وذهابا، وأطلقت حشرجة غريبة من عمق حلقها وبصقت بلعنة.

«اللهم نجنا من تلك الكلاب المسعورة أكلة الخنازير. احمنا من أعداء الحق، الذين أعمتهم العقائد الباطلة، فمسمروا إلههم على قطعة خشب ودعوه بالأب والأم والابن، مغرقين أتباعهم فى بحر من الزيف. لقد غلبونا ومحقونا بالقهر والاضطهاد. ألف حمد وشكر لك يا رب، أنا على ثقة من أنك ستخلصنا من هؤلاء الكلاب الذين يُغيرون علينا فى كل المدن ليخرجونا من ديارنا...».

ثم واصلت على ذلك المنوال أجلا غير معلوم، حتى قاطعتها جارية شابة:

«طعامك سيبرد يا "آمه"».

قامت العجوز ببطء وتبعت الجارية إلى داخل المطبخ بظهر محنى. كانت مكانة "آمه" بين الخدم جلية جلاء الشمس. فبما أنها كانت مربية ومرضعة سيد الدار، وكانت تخدم عائلته منذ مولدها، فإنه ما من أحد يمكنه أن يتحدى سلطتها بين الخدم، غير أن هذا لم يحل كل مسائل التراتب والبروتوكول. فبمعزل عن الطباخ الموقر، الذى كان يتباهى بأنه أمهر الطهاة فى الأندلس كلها، ويعلم تمام العلم إلى أى مدى يمكنه أن يخوض فى الحديث عن شئون العائلة فى حضور "آمه"، كان الآخرون يديرون دفة الحديث بعيدا عن المسائل الحساسة فى حضورها. لا يعنى ذلك أن "آمه" كانت جاسوسة للأسرة. كانت فى بعض الأحيان تترك الزمام للسانها فيصاب الخدم بالذهول أمام جرأتها، ولكن على الرغم من تلك المرات العارضة، فإن حميميتها وانعدام الكلفة مع السيد وأبنائه،

كانت تجعل بقية أهل الدار فى حال من الضيق.

وإذا أردنا الحق، فإن "آمه" كانت توجه سهام النقد الحادة لأم يزيد وكذلك لطريقة تربيتها لعيالها. إذا تركت "آمه" لأفكارها العنان دون رقابة منها لوجدت نفسها تنتهى بالابتهال إلى الله أن يتخذ سيدها زوجا جديدة. كانت تعتبر سيدة الدار مفرطة فى تدليل بناتها، مفرطة فى السخاء مع الفلاحين المشتغلين بالضيعة، مفرطة فى التساهل مع الخدم بشرورهم وإهمالهم لواجبات دينهم.

فى بعض الأحيان كانت "آمه" تذهب بعيدا إلى حد التفوه بصيغة معتدلة من تلك الأفكار على مسمع عمر بن عبد الله، مؤكدة أن مثل هذه الثغرات فى النظام دون سواها، هو ما دفع بالإسلام إلى المأزق المؤسف الذى يجد الآن فيه نفسه بالأندلس، ولم يكن عمر يرد سوى بالضحك، ثم يكرر كل كلمة على زوجته. بالقدر نفسه كانت زبيدة تتسلى بفكرة أن شخصها الضعيف يرمز إلى ما لحق بإسلام أهل الأندلس من وهن وقصور.

أما الضحكات التى تناهت الليلة من غرفة الطعام فلم تكن ذات صلة "بآمه" ولا بآرائها العجيبة. كانت المزحات علامة مؤكدة على أن قائمة الطعام التى أعدها القزم قد لاقت قبولا فى نفوس سادته. فى الأيام العادية كان طعام الأسرة أكثر تواضعا، لم يكن هناك عادة أكثر من أربعة أصناف منفصلة، وطبق واحد من الحلويات، تتبعه الفاكهة الطازجة. أما الليلة فأمامهم لحم ضأن مشوى وكثيف التتبيل؛ وأرانب مطهية فى عصير العنب المختمر مع الفلفل الأحمر، وفصوص كاملة من الثوم؛ أما كرات اللحم المحشوة بالكمأ بنى اللون، فقد كانت فعلا تذوب فى الفم؛ مع مجموعة متنوعة من كرات اللحم الأكثر تماسكا مقلية فى زيت الكزبرة ومقدمة مع مثلثات العجائن الحارة المقلية بالزيت نفسه؛ مع وعاء كبير ممتلئ بالعظام الطافية فى صلصة لها لون الزعفران؛ وطبق كبير من الأرز المحمر؛ ومنمنمات من العجائن المحشوة، وثلاثة أصناف مختلفة

من السلطة؛ الهليون، ومزيج البصل، والطماطم، والخيار مقطعة شرائح رفيعة، ومرشوش عليها الأعشاب وعصارة ليمون طازج، وحمص منقوع فى اللبن الرائب وعليه نفحة من الفلفل الأسود.

كان ما أثار ضحكهم أن يزيدًا وهو يكافح من أجل استخلاص عصارة إحدى العظام إذ نفخها خطأ على لحية أبيه. صفقت هند بيديها فدخلت جاريتان إلى الغرفة، فأمرتهما الأم بأن ينظفا المائدة وأن يوزعا ما تبقى من طعام فيما بينهم.

«واسمعا، أخبرا القزم أننا لن نتناول حلواه ولا كعك الجبن الليلة. سنكتفى بقصب السكر، ألم يغمس فى ماد الورد؟ إلينا به، فقد تأخر الوقت».

كان الوقت قد تأخر بالفعل أكثر من اللازم بالنسبة للصغير يزيد، فقد أخذه النوم منحنيا على حشية من حشايا الأرضية. لاحظت "آمه" ذلك ودخلت الغرفة واضعة أصبعها على شفتيها فى إشارة لالتزام السكوت وأشارت للآخرين بأن يزيدًا قد استغرق فى النوم. من أسف أنها كانت بلغت من الكبر ما يعجزها عن رفعه عن الأرض، وأحزنتها هذه الفكرة. أدرك عمر بسليقته ما كان يجول بخاطر مرضعته العجوز. تذكر عهد طفولته، حين كانت لا تكاد تسمح لقدميه بأن تمسا الأرض، حتى أن أمه كانت تخشى ألا يتعلم المشى بالمرة. نهض عمر، ورفع ابنه فى رقة، وحمله إلى غرفة نومه، "وآمه" تتبعه بابتسامة ظافرة؛ كانت هى التى خلعت عن الصبى ثيابه ووضعته فى الفراش، حريصة على تسوية أغطية السرير على خير وجه.

كان عمر مستغرقا فى التفكير حين شارك زوجته وابنتيه تناول بضع شرائح قصب السكر. أمر غريب! كيف جعلته ذكرى حمل "آمه" له ووضعه فى فراشه منذ كل تلك السنوات، يتأمل من جديد تلك السمة الفاصلة للعام الذى بدأ توا؟ فاصلة بالنسبة لبنى هذيل ولنهج حياتهم.

كما أنها فاصلة، لو أردنا الحق، بالنسبة للإسلام فى الأندلس.

حاولت زبيدة، وقد استشعرت تغير مزاجه، أن تنفذ إلى دخيلته.

«سيدى، أجبنى عن سؤال واحد».

حين أخرجه صوتها عن أفكاره تطلع نحوها بابتسامة لا تحمل أى تعبير. «فى أوقات كأوقاتنا تلك ما أهم الاعتبارات؟ أن ننجو بحياتنا هنا بأفضل ما نستطيع، أم أن نستعيد الخمسمائة عام المنصرمة من وجودنا لنخطط لمستقبلنا وفقا لذلك؟».

«لست واثقا من جواب عن هذا السؤال».

قالت هند: «جوابه عندى».

أجاب والدها: «أما هذا فأنا واثق منه، ولكن الوقت قد تأخر ويمكننا استكمال هذا الحديث فى يوم آخر».

«الوقت ليس فى صالحنا يا أبتى».

«وأنا واثق من هذا أيضا يا صغيرتى».

«السلام عليك يا أبتى».

«وعليك سلام الله وبركاته. نوما هنيئا».

سألته زبيدة: «هل ستتأخر؟».

«دقائق معدودة. أحتاج لاستنشاق بعض الهواء الطلق».

لبث عمر جالسا بضع دقائق بعد أن غادرتا، مستغرقا فى تأملاته، محدقا فى المائدة الخاوية، ثم نهض وخرج إلى الفناء، ملتفا فى حِرَام حول كتفيه. جعله الهواء الطلق يقشعر قليلا بالرغم من انعدام البرودة الشديدة، تشبث بالحِرام بشدة وراح يتمشى هنا وهناك.

خمدت أضواء المشاعل بالداخل، ولم يتبق له إلا ضوء النجوم يقيس به خطواته. لم يكن ثمة صوت إلا خرير تيار الماء الذى يدخل الفناء من أحد الأركان، مغذيا النافورة التى تتوسطه، ثم يتدفق خارجا إلى الطرف الآخر للدار. فى أيام أسعد حالا من تلك كان يقطف بعض

زهرات فواحة بالأريج من شجيرات الياسمين، ثم يلف حولها بحنو منديلا من الموسلين، وينثر عليها الماء ليحفظ نداوتها ويضعها على وسادة زبيدة؛ وفى الصباح تكون زهرات الياسمين لا زالت نضرة وعطرة. أما الليلة فمثل تلك الأفكار هى أبعد ما يكون عنه.

كان عمر بن عبد الله يفكر، وكانت الصور المتكررة الملحة على عقله من القوة بما يجعل جسده كله يرتجف. طاف بخياله جدار النار، وانبعثت من جديد ذكريات تلك الليلة الباردة. رغما عنه انثالت دموعه وغارت فى شعر لحيته. هكذا تمت حروب الاستعادة بسقوط غرناطة قبل ثمانية أعوام. كان الأمر على الدوام منتظرا ومتوقعا حتى أن عمر وأصحابه لم تصبهم لذلك دهشة خاصة. غير أن بنود الاستسلام قد أقرت للمسلمين الذين يشكلون غالبية أهل البلاد، وهو الاحتفاظ بحريتهم الدينية والثقافية ما أن يعترفوا بسيادة الحكام القشتاليين. لقد نصت الوثائق بحضور الشهود على أن مسلمى غرناطة لن يتم اضطهادهم أو منعهم من ممارسة عبادتهم وإقامة شعائر دينهم، أو من التحدث بالعربية وتعليمها أو الاحتفال بأعيادهم. نعم، فكر عمر، هذا ما تعهد به أساقفة إيزابيلا حتى يتجنبوا حربا أهلية، وقد صدقناهم. كم كنا عميانا. لابد أن عقولنا قد سممتها الخمر. كيف صدقنا كلامهم الطلى ووعودهم المعسولة؟

كان عمر حاضرا عند توقيع المعاهدة، باعتباره أحد سادة ونبلاء المملكة. لن ينسى أبدا الوداع الأخير لآخر السلاطين، أبى عبد الله، الذى أسماه القشتاليون «بو أبدل»، قبل أن يذهب إلى البوچارا حيث كان ينتظره قصر هناك. التفت السلطان ونظر للمرة الأخيرة إلى المدينة، وابتسم متطلعا نحو الحمراء متنهدا. لا شىء سوى ذلك. ما من كلمة قيلت. ماذا كان يمكن أن يقال؟ لقد بلغوا خاتمة تاريخهم فى الأندلس. تحدثوا إلى بعضهم بعضًا حديث الأعين. كان عمر ورفاقه من السادة

مستعدين لتقبل هزيمتهم. فعلى كل حال، وكما لم تفتأ زبيدة تذكره به، ألا يمتلئ تاريخ الإسلام نفسه بقيام الممالك وسقوطها؟ تسقط بغداد نفسها فى أيدى جيش التتار الجهلاء؟ إنها لعنة الصحراء. الأقدار الطائشة. قسوة المصير. حديث النبى؛ إما أن يكون الإسلام دين الدنيا أو لا يكون أبدا.

بدت له فجأة القسمات الكئيبة لوجه عمه. عمه! ميكال، أو المالك. عمه! أسقف قرطبة. ميجيل - المالك. ذلك الوجه الكئيب الذى سوف يرتسم عليه الألم ولن يتمكن من إخفائه سواء بلحيته أو بابتسامته الزائفة. كثيرا ما كانت حكايات "آمه" عن ميكال الصبى تتضمن عبارات من قبيل: «كان الشيطان يسكنه». أو «كان يتصرف وكأنه صنبور لا يفتحه أو يغلقه إلا إبليس». كان ذلك ما يقال مغلفا بالحب والحنان لتأكيد كم كان ميكال طفلا سيئا. الابن الأصغر والأوفر حظا محبة وتدليلا، تماما مثل يزيد. ما الخطأ الذى وقع إذن؟ ما الذى مر به ميكال فجعله يفر من قرطبة ويتحول إلى ميجيل؟

كان الصوت الهازئ والمتحدى للعم الكبير ما زال يتردد صداه فى رأس عمر. «أتدرى ما مشكلة دينكم يا عمر؟ ان أمره تم لنا بأهون من اللازم. كان على المسيحيين أن يمروا بأنفسهم من المسام شديدة الصغر للإمبراطورية الرومانية، مما اضطرهم للعمل سرا تحت الأرض. كانت السراديب السرية تحت أرض روما هى مسرح تدريباتهم. وعندما انتصروا فى النهاية كانوا قد أتموا بناء اجتماعيا متينا مع قومهم. أما نحن؟ أرسل النبى ﷺ خالد بن الوليد بسيف فى يده فانتصر وفتح. آه! نعم، لقد انتصر وفتح بقدر عظيم. لقد سحقنا إمبراطوريتين. سقط كل شىء تحت أقدامنا. سيطرنا على بلاد العرب وبلاد فارس وأجزاء من بيزنطة. ألم يكن الأمر أشد صعوبة فى أى موضع آخر؟ انظر إلينا. إن لنا فى الأندلس حتى الآن سبعة قرون وليس بوسعنا ترسيخ شىء يكتب له البقاء. ليست المشكلة هى المسيحيون فحسب، أم تراها كذلك يا عمر؟

العلة فينا، تجرى فينا كالدماء فى العروق».

نعم، نعم يا عم ميكال، أقصد ميجيل. العلة فينا نحن أيضا، ولكن كيف لى أن أفكر بهذا الآن؟ كل ما تبصره عيناى هو جدار النار ومن ورائه الوجه المسرور لذلك الطائر المفترس، يحتفل بانتصاره. لعنة خيمينث. ذلك الراهب اللعين الذى أرسل إلى غرناطتنا بناء على الأوامر الصارمة لإيزابيلا. تم إرسال قس اعترافات تلك الشيطانة إلى هنا ليطرد أرواحها الشريرة. لابد أنها كانت تعرفه جيدا، وهو ولا غرو، كان يعرف ما تريد. ألا يمكنك أن تسمع صوتها؟ أبتاه، هكذا تهمس بنبرة التقوى الكاذبة، أبتاه، كم يقلقنى الكفرة فى غرناطة. أحيانا ما تراودنى رغبة عارمة فى أن أسومهم العذاب حتى يذعنوا ويستسلموا فيسلكوا سبيل الصلاح. لماذا أرسلت خيمينث إلى غرناطة؟ ما داموا واثقين تماما من تفوق معتقداتهم، فلم لا يعتمدون على المصير الختامى للمسلمين؟

أنسيت لماذا أرسلوا خيمينث السسنورى إلى غرناطة؟ لأنهم لم يعتقدوا أن رئيس الأساقفة تالافيرا كان سيضع الأمور فى نصابها. لقد تعلم العربية ليقرأ كتب علومنا، كما ألزم من حوله من رجال الدين بالقيام بالمثل. قام بترجمة كتابهم المقدس وكتب التعاليم الدينية المسيحية إلى اللغة العربية، وقد كسب بعضًا من جماعتنا بهذه الطريقة ولكن ليسوا كثيرين. لهذا أرسلوا خيمينث. لقد رويت لك الأمر العام الماضى فقط يا عمى الأسقف، ولكنك نسيت الآن. ماذا كنت لتفعل لو أنهم برهنوا على ذكائهم حقا ونصبوك رئيسا لأساقفة غرناطة؟ إلى أى مدى كان يمكن أن تمضى يا ميكال؟ إلى أى مدى يا ميجيل؟

لقد كنت حاضرا مع الجمع عندما حاول خيمينث أن يفحم قضاتنا وعلماءنا فى مناظرة لاهوتية. كان ينبغى أن تكون هناك أنت أيضا، جزء منك كان سيشعر بالفخر بعلمائنا. خيمينث بارع. ذكى. غير أنه لم ينجح فى ذلك اليوم.

عندما رد عليه زكرى (زجرى) بن موسى الحجة بالحجة لاقى إطراء واستحسانا حتى من بعض رجال الدين التابعين لخيمينث، وخرج الأسقف عن طوره. زاعما أن زكرى قد أساء لمريم العذراء، بينما كان كل ما فعله صاحبنا هو أنه تساءل: كيف يمكنها أن تبقى عذراء وقد وضعت عيسى. لابد أنك ترى أن هذا التساؤل لا يعوزه المنطق السديد، أم أن لاهوتك يمنعك من الإقرار بكل الحقائق المسلم بها؟

اقتادوا عالمنا زكرى إلى غرفة التعذيب ولقى أقسى العذاب حتى وافق على أن يرتد عن دينه. عند ذلك الحد غادرنا، ولكن قبلها كنت أرى ذلك الوميض فى عينى خيمينث كما لو كان قد أدرك فى تلك اللحظة أنه لا سبيل آخر أمامه لتحويل الناس عن دينهم.

فى اليوم التالى أمر جميع الناس بالخروج إلى الشوارع، وقام خيمينث دى سيسنيروس -أخذه الله أخذ عزيز مقتدر- بإعلان الحرب على حضارتنا وعلى أسلوبنا فى الحياة. فى ذلك اليوم وحده أفرغوا كل مكتباتنا العامة وبنوا بمحتوياتها جدارا هائلا من الكتب فى ساحة باب الرملة. لقد أضرموا النيران فى حضارتنا، أحرقوا مليونى مخطوط. محوا السجل العامر لثمانية قرون فى يوم واحد. لم يحرقوا كل شىء. لم يكونوا على كل حال همجًا، ولكنهم كانوا أصحاب حضارة مختلفة، أرادوا أن يزرعوها فى الأندلس. توسل أطباؤهم إليهم أن يستثنوا ثلاثمائة مخطوط تتعلق أساسا بالطب، وقد وافق خيمينث على ذلك؛ لأنه حتى هو، كان يعرف أن معرفتنا بالطب أكثر تقدما من كل ما توصلوا إليه فى العالم المسيحى.

إنه جدار النار ذلك الذى أراه طيلة الوقت الآن يا عمى، وتملأ صورته قلبى بالخوف على مستقبلنا. النيران التى التهمت كتبنا سوف تمحو ذات يوم كل ما صنعته أيدينا فى الأندلس، بما فى ذلك هذه القرية الصغيرة التى انشأها أسلافنا، حيث مرحنا ولهونا أنا وأنت صبيانا صغارا. فما علاقة ذلك كله بأى غلبة قد تيسرت لنبينا وبالانتشار السريع

لديننا؟ مضى على ذلك ثمانية قرون أيها الأسقف، أما جدار النار فلم يُضرم إلا العام الماضى فقط.

شعر بالرضا عن نفسه لأنه فاز فى تلك المجادلة المتخيلة، فعاد عمر بن عبد الله إلى الدار ودخل غرفة نوم زوجته، حيث لم تكن زبيدة قد نامت بعد.

«أهو جدار النار يا عمر؟».

جلس على الفراش وأومأ برأسه أن نعم. أحست بأن كتفيه كانتا متوترتين ومنكفئتين. «تصلب جسدك يؤلمنى. تعال، استلق وسوف أدلكه حتى يذهب عنك».

فعل عمر ما طلبته، وأخذت يداها الخبيرتان بهذا الفن تمتد إلى مواضع بعينها من جسده، مواضع صلبة مثل حصوات صغيرة، راحت أصابعها تدور من حولها حتى بدأت تتلاشى وشعرت أن مناطق الشد بدأت تستعيد الاسترخاء من جديد.

«متى سترد على ميجيل بخصوص مسألة هند؟».

«ماذا تقول الفتاة؟».

«إنها تفضل أن تزف إلى حصان».

تبدل مزاج عمر تبدلا حادا، وزأر بضحكة كبيرة. «لطالما كانت حسنة الذوق. إذن فهذه هى إجابة سؤالك».

«ولكن ماذا ستخبر أسقفه؟».

«سأقول للعم ميجيل: إن السبيل الوحيد أمام خوان، حتى يتأكد من العثور على من يشاركه الفراش، هو أن يصير قسا وينتفع بالمعترفات له!».

قهقهت زبيدة ضاحكة فى ارتياح، لقد استرد عمر روحه الطلقة، وسرعان ما عاد إلى طبيعته. كانت على خطأ، فالنيران كانت مازالت مشتعلة بجدار الكتب.

«لا أظنهم يتركوننا نعيش فى الأندلس دون أن نتحول عن ديننا إلى المسيحية. زواج هند من خوان مجرد مزحة، أما ما يقض مضجعى فهو مستقبل بنى هذيل، ومستقبل هؤلاء الذين عاشوا معنا، وخدمونا على مدى قرون».

«لا أحد يعرف أفضل منك، إننى لست بالمرأة المتدينة. مربيتكم العجوز تلك، حاضنة الخرافات، تعلم هذا تمام العلم، وتقول ليزيد: إن أمك مجدفة، على الرغم من أننى أدرأ الشبهات وأحافظ على المظاهر، فإننى أصوم رمضان، كما إننى...».

«لكننا جميعا نعلم أنك تصومين وتصلين صونا لصورتك لا أكثر. ليس هذا سرا بكل تأكيد».

«اسخر منى كما شئت، ولكن ما يهمنى أكثر هو سعادة أبنائنا، ومع ذلك..».

استعاد عمر جديته مرة أخرى وسألها: «ومع ذلك.. ماذا؟».

«هناك شىء بداخلى يرفض مسألة التحول عن الدين. كلما فكرت بالأمر ينتابنى إحساس بالاستفزاز، وربما بالعنف. فأنا أفضل الموت على أن أرسم علامة الصليب على صدرى، وأتظاهر بأننى آكل لحما بشريا وأشرب دما بشريا. إن ما فى طقوسهم من اشتهاء أكل لحوم البشر ينفرنى ويستفزنى. هذا الاشتهاء أعمق مما يبدو، تذكر ما أصاب أهل سرقسطة من هول عندما شرع الصليبيون فى شى السجناء وهم أحياء، ثم أكلوا لحم أبدانهم. مجرد التفكير فى الأمر يصيبنى بالغثيان، ولكن هذا نابع من إيمانهم نفسه».

«كم أنت متناقضة يا زبيدة يا بنت قدوس. فى لحظة تقولين: إن أكثر ما يهمك هو سلامة أبنائنا، وفى اللحظة نفسها تستبعدين العمل الوحيد الذى قد يضمن لهم مستقبلا ما فى ديار أجدادهم».

«وما علاقة عمل كهذا بسعادتهم؟ إن أبناءك كلهم، حتى الصغير

يزيد، مستعدون لإشهار أسلحتهم فى وجه فرسان إيزابيلا. حتى لو تركت عقلك المرتاب ليسحقه ميجيل، فكيف لك أن تقنع أولادك؟ بالنسبة لهم سيكون ارتدادك كارثة بحجم كارثة جدار النار».

«ذلك أمر سياسى وليس روحيا. ستبقى صلتى بالخالق كما كانت على الدوام. إنها مسألة مظاهر لا أكثر».

«وحين يدعوك السادة من المسيحيين إلى الولائم فهل ستأكل معهم لحم الخنزير؟».

«ربما، ولكن لن أتناوله بيمينى أبدا».

ضحكت زبيدة، ولكنها صُدمت أيضا. كانت تشعر بأنه أوشك أن يتخذ قرارا ما. لقد ترك جدار النار أثره على عقله، وقريبا جدا سيتبع خطوات ميجيل. لقد فاجأها مرة أخرى.

«هل سبق وأن أخبرتك بما أنشده مئات منا فى تلك الليلة وهم يدمرون تراثنا؟».

«كلا. أنسيت أنك بقيت صامتا أسبوعا كاملا بعد رجوعك من غرناطة؟ لم تنطق بكلمة واحدة لأى شخص، ولا حتى ليزيد. توسلت إليك، ولكنك لم تستطع إرغام نفسك على الكلام».

«دعك من هذا. لقد بكينا كالأطفال فى تلك الليلة يا زبيدة، ولو أمكن توجيه دموعنا بدقة لأخمدت اللهيب، ولكن فجأة وجدت نفسى أنشد شيئًا كنت قد تعلمته صبيا، ثم سمعت هديرًا، وتبينت أننى لم أكن الوحيد الذى يحفظ أبيات الشاعر. هذا الإحساس بالتضامن ملأ نفسى قوة لم تغادرنى بالمرة. أقول لك هذا لكى تدركى الآن وإلى الأبد أننى لن أتحول عن دينى طواعية».

ضمت زبيدة زوجها إليها وقبلته فى عينيه برقة.

«ماذا كانت أبيات الشاعر تقول؟».

أخمد عمر تنهيدة حسرة وهمس بجانبها:

فإن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن أنـزل ويدفن فى قبرى

تذكرت زبيدة. كان معلمها الخاص شكاكًا بالفطرة، وقد روى لها هذه الحكاية مئات المرات. تلك أبياتُ ابن حزم الأندلسى، الذى ولد قبل خمسمائة عام، حين كانت مشاعل الحضارة الإسلامية قد بدأت لتوها تنير بعض أكثر الأركان ظلمة فى القارة الأوروبية.

ابن حزم، الشاعر الأبرز والأجرأ فى تاريخ الأندلس كله، إنه المؤرخ وكاتب السير الذى وضع أربعمائة مؤلفًا. كان رجلا يقدس المعرفة الحقيقية، دون أن يكترث برضا الناس عنه. أدت هجماته اللاذعة بعُلماء الإسلام المتشددين إلى إعلانه كافرًا من فوق المنابر بعد خطبة الجمعة فى الجامع الكبير. نطق الشاعر بتلك الأبيات عندما قام رجال الدين بإحراق بعض كتبه على الملأ فى إشبيلية.

«لقد عرفت به أنا أيضا، ولكن قد ثبت خطؤه، أليس كذلك؟ أما محاكم التفتيش فقد تجاوزت ذلك إلى ما هو أبعد منه. لم تعد تكتفى بإحراق الأفكار، إنهم يحرقون المدافعين عن تلك الأفكار؛ ولكنه أمر منطقى، فمع كل قرن جديد هناك تطورات جديدة».

أطلقت تنهيدة ارتياح واطمئنان لمعرفتها بأن زوجها لن يندفع إلى اتخاذ قرار قد يندم عليه طوال ما بقى من حياته. ربتت على رأسه كأنها تطمئنه، لكنه كان قد غرق فى النوم.

ظل خاطر زبيدة نشطًا دون هوادة ولم يسمح لها بالنوم، رغم جهودها القصوى. كانت أفكارها الآن تطوف بمصير ابنها الأكبر زهير. لحسن الحظ لم يكن الجرح خطيرا، ليس هذه المرة، ولكن بالنظر إلى عناده وشخصيته الجامحة الطائشة، قد يحدث أى شىء. كانت غرناطة مكانا

فى غاية الخطورة، وفكرت زبيدة بأن الحل الأفضل لابنها هو أن يتزوج من خديجة ابنة أختها المفضلة لديها، التى تعيش مع أسرتها فى إشبيلية. سيكون زواجا متوافقا. ما أحوج القرية إلى الاحتفال، ولعل زفافًا عائليا كبيرا هو السبيل الأوحد الآن للفرح واللهو دون استفزاز السلطات. مع هذه الخطط البريئة لما يحمله الغد القريب من مسرات، هدهدت سيدة البيت أفكارها لتنام.



الفصل الثانى

لا شىء أبهى وأفتن من صباح من شهر سبتمبر فى قرية الهذيل. الشمس لم تشرق بعد، ولكن أشعتها تضىء السماء وتلون الأفق بظلال مختلفة من اللون البرتقالى المائل للأرجوانى. ما من مخلوق إلا ويطيب له القلب فى هذا النور وما يصاحبه من صمت. سرعان ما سوف تشرع الطيور فى الشقشقة، ويدعو مؤذن القرية عباد الله للصلاة.

اعتاد نحو ألفى شخص من سكان القرية أصوات الصباح تلك، حتى أولئك من غير المسلمين كانوا يقدرون الانضباط الميقاتى لصوت المؤذن، أما بالنسبة لبقيتهم، فلم يكونوا كلهم يستجيبون للنداء. وفى دار سيد القرية، كانت "آمه" هى الوحيدة التى تفرد حصيرتها فى الفناء وتبدأ مشاغل يومها.

أكثر من نصف سكان القرية يشتغلون بالزراعة، سواء لأنفسهم أو لحساب بنى هذيل. البقية نساجون، منهم من يعمل فى منزله أو فى الضيعة، الرجال يربون دود القز والنساء يصنعن حرير الهذيل الشهير، المطلوب حتى فى أسواق سمرقند. أضف إلى ذلك بعض أصحاب المتاجر وحدادا وإسكافيا وخياطا ونجارا لتكون أمامك قرية مكتملة. كل ليلة يعود جميع العاملين فى ضيعة العائلة إلى أسرهم فى القرية، باستثناء "آمه" والقزم وجماعة البستانيين.

استيقظ زهير بن عمر مبكرا وهو يشعر بانتعاش تام، نسى جرحه ولكن سبب الجرح كان ما زال يستعر فى رأسه. تطلع من النافذة معجبا بألوان السماء. على بعد نصف ميل من القرية هناك ربوة بها تجويف كبير

يميز صخور القمة. يعرف الجميع ذلك التجويف بكهف الشيخ. على التل، وبداخل الكهف توجد غرفة صغيرة مطلية بالجير، يعيش فيها ذلك المتصوف الذى يردد الأبيات الموزونة المقفاة، والذى أمست صحبته لزهير ذات قيمة ثمينة منذ سقوط غرناطة.

لا أحد يعرف من أين أتى أو كم كان عمره حينما أتى. ذلك ما كان زهير يعتقده. تذكر عمر الكهف، ولكنه أصر على أنه كان خاويًا عندما كان صبيا صغيرا، وأن الفلاحين كانوا يستخدمونه مكانا للقاءاتهم الغرامية. يطيب للشيخ تعزيز غموض وجوده فى الكهف، وكان كلما طرح عليه زهير أية أسئلة شخصية يرد الهجوم بالاندفاع فى تلاوة الأشعار. بالرغم من ذلك كله، كان زهير يشعر بأن ذلك الشيخ المخادع أصيل وصادق.

هذا الصباح كان يشعر برغبة عارمة فى الحديث إلى ساكن الكهف. ترك غرفته ودخل إلى الحمام، وبينما هو فى المغطس كان يتمنى أن يستيقظ يزيد ويأتى للتكلم معه. كان الشقيقان يستمتعان للغاية بأحاديثهما أثناء الاستحمام، يزيد لأنه يعرف أن شقيقه زهير حبيس الحمام لثلث الساعة ولن يسعه الهرب منه، وزهير لأنه يراها الفرصة الوحيدة لمراقبة الصقر الصغير عن كثب.

«من بالحمام؟».

كان صوت "آمه"، والنبرة صارمة آمرة.

«أنا يا "آمه"».

«بارك الله فيك، هل استيقظت مبكرا هكذا؟ ماذا عن الجرح...؟».

أوقفتها ضحكات زهير عن مواصلة كلامها. نهض من المغطس، وارتدى ثيابه، وخرج إلى الفناء.

«أى جرح؟ لا داعى للمزاح يا "آمه". لقد هاجمنى أحمق مسيحى بمدية صغيرة وتعتبريننى على حافة الاستشهاد».

«لم يأت القزم للمطبخ بعد، هل أعد لك إفطارًا؟».
«نعم، ولكن عند عودتى. سأخرج الآن إلى كهف الشيخ».
«ولكن من سيسرج لك جوادك؟».
«تعرفيننى منذ يوم مولدى، فهل تظنين أننى لا أقدر على ركوب
جواد بلا سرج».
«إذن فلتبلغ ذلك الشيطان رسالة منى. قل له: إننى أعلم تمام العلم أنه هو الذى سرق منا الدجاجات الثلاث، قل له: إنه إذا عاد لفعل ذلك مرة أخرى فسوف أحضر بعض الغلمان من الدار لجلده فى القرية على الملأ».
استغرق زهير فى الضحك وربت على رأسها. الشيخ لص دجاج؟ ما أغرب "آمه" فى تحاملاتها الغبية!
«أتعرفين ما أحب أن أتناوله على الإفطار اليوم؟».
«ماذا؟».
«الخليط السماوى».
«شريطة أن تعد بأن تنذر ذلك الشيطان باسمى».
«سأفعل».
بعد خمس عشرة دقيقة، كان زهير ينهب الأرض نحو كهف الشيخ على صهوة جواده المفضل خالد. لوح لأهل القرية السائرين فى طريقهم إلى الحقول، وقد حزموا وجبات غدائهم فى مناديل كبيرة مربوطة فى عصى. أومأ له بعضهم فى أدب وواصلوا سيرهم، وتوقف آخرون عن السير وقدموا له التحية فى سرور. لقد سرت فى القرية كلها أخبار مناوشته فى غرناطة. المتشككون أيضا كانوا مضطرين لأن يقولوا فيه ولو كلمة إشادة واحدة. لا شك أن زهيرًا الفحل -كما كان يسمى- كان رائع الصورة وهو يركض بفرسه خارجا من القرية، وسرعان ما أصبح طيفا ضئيل الحجم، تارة يختفى وتارة يعاود الظهور حسب تضاريس الأرض.

رأى الشيخ الجواد والفارس الذى يعتليه يصعدان التل فابتسم. ها هو ابن عمر بن عبد الله يأتى طلبا للنصح مرة أخرى. لابد أن زياراته المتكررة تزعج والديه. ترى ما الذى يريده هذه المرة؟

«السلام عليك أيها الشيخ».

«وعليك يا بن عمر. ما الذى جاء بك إلى هنا؟».

«كنت فى غرناطة ليلة أمس».

«سمعت».

«و...؟».

هز الشيخ كتفيه.

«أترانى كنت مخطئا أم مصيبا؟».

أجابه الشيخ شعرا، وهو ما سر زهير سرورا عظيما.

قد تَرامَت إلى الفسادِ البَرايا وَاستَوَت فى الضَلاَلَةِ الأديانُ

وادَّعى الهَدىَ فى الأنامِ رِجالٌ صَحَّ لى أنَّ هَديَهُم طُغيانُ

لم يكن قد سبق لزهير أن سمع هذه الأبيات من قبل، استحسنها: «أهو شعرك؟».

«أيها الصبى الأحمق، أى جاهل أنت! ألا يمكنك التعرف على صوت معلم كبير؟ إنه أبو العلاء المعرى».

«ولكنهم يقولون؛ إنه كان ملحدا».

«يقولون، يقولون. من يجرؤ على قول ذلك؟ إننى أتحداهم على قولها فى حضورى!».

«رجال ديننا، أهل العلم».

وهنا نهض الشيخ واقفا، غادر غرفته، وزهير يتبعه فى حيرة، ثم اتخذ الشيخ وضعًا عسكريًا وراح يتلو من فوق قمة التل بأعلى صوته:

هل الدين إلاّ كاعبٌ، دون وصلِها، حجابٌ، ومَهرٌ مُعوزٌ، وحياء

وما قبلت نفسى، من الخير، لفظة وإن طال ما فاهتْ به الخطباء

ابتسم زهير.

«المعرى مرة أخرى؟».

أومأ الشيخ مبتسمًا أن نعم.

«لقد تعلمت من قصيدة واحدة له أكثر مما تعلمت من كل كتب الدين، وأعنى كل الكتب بلا استثناء».

«كفر!».

«بل هى الحقيقة مجردة».

لم يدهش زهيرًا هذا الإعراب عن الشك. لطالما تظاهر بأنه مصدوم إلى حد ما، لم يكن يريد أن يظن الشيخ بأنه نجح بسهولة فى إقناع تلميذ جديد له. كان هناك جماعة من شباب غرناطة، يعرفهم زهير جميعًا، وكان أحدهم صديق طفولته، يركبون مطاياهم لأكثر من عشرين ميلا حتى ذلك الكهف مرة واحدة على الأقل كل شهر، من أجل النقاشات المطولة فى الفلسفة والتاريخ، والأزمة الراهنة والمستقبل. نعم، المستقبل دائما!

كان ما يتشربوه هنا من حكمة ناضجة، يتيح لهم الهيمنة على المناقشات بين أقرانهم عند عودتهم إلى غرناطة، بل ويتيح لهم أحيانا أن يفاجئوا من يكبرونهم برأى فيه من الفطنة والبصيرة ما يجعل الألسنة تتناقله فى كل مسجد يوم الجمعة. سمع لأول مرة عن المقدرة الفكرية لذلك المتصوف الذى يكتب شعرا تحت اسم الزنديق من خلال صديقه ابن باسط، قائد فرسان الفلسفة المعروف.

قبل ذلك، كان زهير يصدق دون مساءلة ما يسمعه من أقاويل تصور الشيخ المنبوذ غريب الأطوار، يرددها رعاة القطعان بدافع من الشفقة. وكثيرا ما كانت "آمه" تمضى إلى ما هو أبعد من ذلك مصرة على أن الشيخ لم يعد يملك زمام عقله، ولذا لابد من أن يترك لحاله، لبدعه الشيطانية. خطر لزهير أنه لو أن "آمه" كانت محقة، فلابد أنه كان يقف فى مواجهة أحمق حقيقى وليس حكيما سريع البديهة. لكن لماذا وكيف

نمت هذه العدوانية؟ ابتسم زهير. حين وصل زهير كان الشيخ يقشر بعض ثمار اللوز المنقوعة فى إناء. والآن راح يهرسها لتصبح عجينة طرية، مضيفا إليها بضع قطرات من الحليب كلما صار المزيج أصلب من اللازم. تطلع نحو زهير ولاحظ ابتسامته:

«معجب بنفسك، ألست كذلك؟ ما فعلته فى المدينة كان طيشًا. استفزازا متعمدا، ولحسن الحظ فإن أباك أقل حماقة منك. إذا قتل خدمكم ذلك المسيحى، لكمنوا لكم فى طريق عودتكم وقتلوكم جميعا».

«وكيف تعرف هذا كله بحق الله؟».

لم يحر الشيخ جوابًا، ولكنه نقل العجين من الإناء الحجرى إلى مقلاة طهى بها بعض الحليب. أضاف إليه قليلًا من العسل البرى، ثم حبوب الهال وعود قرفة. نفخ فى الجمرات، وما هى إلا دقائق حتى كان المزيج يغلى. قلل النار بإلقاء الرماد على الجمرات، وترك المزيج ينضج ببطء على نيران هادئة. كان زهير يراقب المشهد صامتا وقد استحوذت عليه النكهة، ثم رفع الشيخ المقلاة وأخذ يقلب المزيج تقليبًا شديدًا بملعقة خشبية مجففة جيدًا وينثر على السائل بعض شرائح اللوز الرفيعة، وصبه فى قَدَحَين من الخزف، وقدم أحدهما إلى زهير بغير إبطاء.

رشف الشاب من السائل وأطلق أصواتا تنم عن النشوة:

«رحيق مصفى! لابد من أن يكون هذا هو شراب الجنة الذى لايمل المرء احتساءه!».

غمغم الزنديق سعيدًا بنجاحه: «أظن أن المرء حين يدخل الجنة يحل له ما هو أشد قوة من هذا».

«ولكننى لم يسبق لى أن تذوقت شيئا كهذا...».

توقف زهير فى منتصف جملته ووضع القدح أمامه على الأرض. لقد تذوق هذا الشراب فى مكان ما ذات مرة من قبل، ولكن أين؟ أين؟ حدق زهير فى الشيخ الذى جابه نظراته المحدقة.

«ما الأمر الآن؟ هل اللوز أقل مما يجب؟ العسل أكثر مما يجب؟ . . ، ان أخطاء كتلك قد تفسد الشراب، ولكننى أتقنت صنع المزيج. ، يا صديقى الشاب. ليس هذا هو الرحيق الذى كان يشربه آلهة . . . ان، بل هو عصير للعقل من النوع الأنقى. إنه يغذى الخلايا. كان . . . ينا على ما أعتقد هو أول من قال: إن اللوز يحفز أذهاننا وتفكيرنا».

مراوغة خادعة ليس إلا، هكذا أدرك زهير فى الحال. كان الشيخ . . . ط فى الحديث. لقد تذكر زهير الآن أين تذوق آخر مرة شرابا مماثلا. كان ذلك فى منزل عمه الكبير ميجيل. بالقرب من الجامع الكبير فى قرطبة. لابد أن لدى الشيخ بعض الصلات، لابد. أحس زهير بأنه على وشك أن يكشف النقاب عن لغز ما، دون أن يعرف أى لغز كان. تطلع الشيخ إلى التعبير المرتسم على الوجه الماثل قبالته، وأدرك بالسليقة أن واحدا من أسراره كان على وشك أن يكتشف، وقبل أن يتمكن من المضى فى إحدى حيل المراوغة قرر ضيفه أن يواصل الهجوم.

«عندى لك رسالة من "آمه"».

«"آمه"؟ "آمه"؟ من "آمه"؟ أى "آمه"؟ إننى لا أعرف أى "آمه"».

«مرضعة أبى. لقد كانت على الدوام فى خدمة عائلتنا. تعرفها القرية كلها. وأنت، يا من تدعى معرفة كل ما يجرى فى القرية، لا تعرفها؟ أمر لا يصدق!».

«الآن وقد شرحت، أصبح الأمر واضحًا. بالطبع أعرف من هى وكيف أنها على الدوام تتحدث فى أمور لا تخصها. ماذا عنها؟».

«أمرتنى أن أبلغك أنها عرفت من الذى سرق ثلاثًا من دجاجاتنا البياضات...».

أخذ الشيخ يهدر بالضحك أمام استحالة فكرة مثل هذه. هو لص؟

«قالت: إنك إن عدت إلى فعلتك هذه مرة أخرى فسوف تعاقبك أمام القرية كلها».

«هل ترى أية دجاجات فى الكهف. أى بيض؟».

«إننى لا أهتم. إذا احتجت أى شىء من دارنا فكل ما عليك هو أن تخبرنى به، وسيكون هنا خلال ساعة. كنت فقط أبلغ الرسالة».

«أكمل شرابك. هل أسخن لك المزيد؟».

رفع زهير قدحه وتجرع ما فيه دفعة واحدة. كان يراقب الشيخ مدققا. قد يكون فوق الستين، أو لعله فى الخامسة والستين. يحلق شعر رأسه مرة كل أسبوع، والشعيرات القصيرة ثلجية البياض المتنامية عليها كانت تعنى أنه تأخر عن زيارته الأسبوعية لحلاق القرية. له أنف حاد للغاية ولكنه صغير، مثل منقار العصفور، ووجه مجعد، لبشرته مسحة ما بين البنى والزيتونى، يختلف لونها مع تغير الفصول. أما عيناه فتطغى على كل ما سواهما، ليس لأنهما كبيرتان أو أخاذتان بالمعنى الشائع، بل كانتا على العكس تماما. كان ضيقهما هو ما يمنحهما ذلك الجانب المنوم المسيطر، وخصوصا فى سياق مناقشات مشتعلة، عند ذلك كانتا تلمعان بالبريق مثل مصباحين فى الظلام، أو كما يردد أعداؤه كثيرا، مثل عينى قط على سطح ساخن.

كانت لحيته البيضاء مهذبةً تهذيبًا مفرطًا فى الاعتناء والتنسيق بالنسبة للزهاد – ولعل فى ذلك إشارة إلى ماضيه. عادة ما يرتدى سروالًا أبيض واسعًا وقميصًا مناسبًا، وعندما يبرد الجو يضيف لهذا الطقم دثارًا بنيًا غامقًا. اليوم، والشمس تنصبُّ صبًا داخل مأواه المكون من غرفة واحدة، كان يجلس دون قميص.

كانت التجاعيد على صدره الذاوى هى ما يشى بعمره. كان مسنا دون أدنى شك. ولكن ما عمره؟ وما سر هذا الصمت كلما استفسر منه زهير عن أصوله، ذلك الصمت المثير للغيظ الشبيه بصمت أبى الهول، الذى يتناقض تناقضا عجيبا مع طبيعته السمحة وعقله المتفتح وطلاقة لسانه. وعلى الرغم من أن ابن عمر بن عبد الله لم يكن يتوقع هذه المرة

أيضا أن يتلقى إجابة، فقد قرر أن يطرح السؤال مرة أخرى.

«مَن أنت أيها الشيخ؟».

«أتقصد أنك لا تعرف حقا؟».

فوجئ زهير وارتبك.

«ماذا تعنى؟».

«ألم تخبرك "آمه"، التى فى داركم، من قبل؟». لم تفعل بالطبع. أرى الجواب على وجهك. أمر غير معقول! إذن، فقد آثروا الصمت فى نهاية الأمر. لماذا لم تسأل والديك ذات يوم؟ إنهما يعرفان كل ما يمكن معرفته عنى، وقد ينتهى عند ذاك بحثك عن الحقيقة».

شعر زهير بأنه كان على صواب. لم تخدعه غريزته إذن على كل حال، هناك صلة ما بأسرته.

«هل يعرف عمى الكبير ميجيل من تكون؟».

اكفهرت ملامح الشيخ، وبدا عليه الانزعاج. ثبتت نظرته المحدقة على ثمالة شراب اللوز، واستغرق عميقا فى أفكاره، ثم رفع بصره فجأة.

«كم عمرك يا زهير الفحل؟».

احمر وجه زهير، فحين نطق الزنديق باسم شهرته بدا ذلك وكأن الاسم اتهام له.

«الثالثة والعشرون الشهر القادم».

«جيد. ولماذا يدعوك أهل القرية بالفحل؟».

«أفترض أنهم يفعلون لأنى أحب ركوب الخيل. حتى أبى نفسه يقول: إنه حين يرانى راكبا حصانى خالد ينتابه شعور بأننى والحصان كائن واحد».

«كلام فارغ. هراء البلاغة الغامضة! هل سبق أن انتابك أنت مثل هذا الشعور؟».

«حسنا! كلا! ليس حقا، ولكننى أستطيع أن أجعل جوادا، أى

جواد، وليس خالد فقط، يركض أسرع من جواد أى رجل آخر فى القرية، وهذه حقيقة».

«يا ابن عمر، فلتفهم أمرا واحدا. ليس هذا هو السبب وراء تسميتهم لك بالفحل».

شعر زهير بالحرج. هل يستعد الشيطان العجوز لإطلاق خط هجوم آخر لحماية جناح جيشه؟

«سيدى الصغير، إنك تعرف ما أتحدث عنه. ليس الأمر هو ركوب الخيل وحسب، أو كذلك؟ إنك تثب على نسائهم كلما سنحت لك الفرصة، وقيل لى: إنك تميل لفض بكارة فتيات القرية. هل هذه هى الحقيقة؟».

هب زهير واقفا فى سورة غضب.

«هذا كذب. افتراء فادح. لم أضاجع فتاة رغما عنها أبدًا، وأى شخص يزعم خلاف ذلك فإننى أتحداه إلى مبارزة بالسيف، هذا ليس مجالاً للمزاح».

«لم يزعم أحد أنك ترغمهن على ذلك. كيف يتم إرغامهن وهذا حق لك عليهن؟ ما نفع ساقين مفتوحتين على اتساعهما إذا بقى العقل مغلقًا؟ لماذا ضايقك سؤالى إلى هذا الحد؟ إن أباك رجل كريم موقر، لا يتجاوز الحدود من أى نوع، ولكن حكايات من هذا القبيل قد جرت فى عائلتكم على مدى قرون متوالية. اجلس أيها الأحمق سريع الانفعال. ألا تسمعنى؟ اجلس!».

فعل زهير كما أمر.

«أتعرف ابن حصد الإسكافى؟».

ارتبك زهير للسؤال - ما علاقة ذلك الرجل الجليل بمثل هذا الحديث؟ - ولكنه أومأ برأسه إيجابا.

«عندما تلقاه فى المرة التالية تفحص ملامحه بدقة، قد تجد فيه شبهًا ما».

«شبهًا بمن؟».

«شبهًا عامًا بملامح العائلة، هذا هو كل شىء».
«أى عائلة؟».
«عائلتكم بالطبع. ابحث عن بصمة بنى هذيل».
«أيها الشيخ المختل. ابن حصد يهودى، مثل أسلافه...».
«وما علاقة هذا بذاك؟ كانت أمه أجمل امرأة فى القرية، لمحها جدك الكبير، ابن فريد، وهى تستحم فى النهر ذات يوم. انتظرها حتى التهت ثم نالها عنوة. كانت الثمرة هى ابن حصد، الذى هو فى حقيقة الأمر ابن محمد!».

ضحك زهير: «على الأقل كان المحارب العجوز صاحب ذوق سليم. على نحو ما لا يمكننى أن أتخيله...».

«فحلًا؟» هكذا أضاف العجوز ليكمل العبارة.

نهض زهير لينصرف. كانت الشمس فى أوجها فى السماء، وأخذ يفكر فى خليط "آمه" السماوى. مرة أخرى يتفوق عليه هذا الشيخ حيلة ومكرًا.

«سأنصرف الآن وسأفعل كما تقول. سوف أسأل والدى عن تاريخك».

«ولم العجلة؟».

«وعدتنى "آمه" أن تعد لى بعض المزيج السماوى و...».

«أميرة ومزيجها السماوى! ألا يتغير أى شىء فى ذلك المنزل اللعين؟ إن فيك ضعفا ما يا زهير الفحل. ضعف سيكون سبب هلاكك. إنك تقتنع بسهولة بالغة. يقتادك أصحابك إلى حيث يشاؤون، وتصبح ذيلا لهم. لا تتساءل أو تناقش بما فيه الكفاية. لابد من أن تفكر لنفسك. دائما! لا غنى عن ذلك فى هذه الأيام حيث لم يعد أبسط الخيارات مسألة نظرية مجردة، بل مسألة حياة أو موت».

«لا حق لك أنت من بين الناس جميعا أن تقول هذا. ألم أطرح عليك الأسئلة على مدى أكثر من عامين؟ ألم أكن لحوحا ولجوجا معك أيها الشيخ؟».

«نعم، صحيح. لا يمكننى إنكار ذلك، ولكن لماذا تنصرف إذن بينما كنت على وشك أن أخبرك بما تود معرفته؟».

«ظننت أنك قلت: إنه على أن أسأل...».

«تماما. وما كانت إلا خدعة لتشتيت انتباهك وكالعادة أفلحت! أيها الفتى الغر! لن يخبرك أبوك بأى شىء أبدا. أما أمك؟ فالحق إننى لا أدرى. إنها سيدة ذات جرأة وحيوية وتحظى بتوقير كبير، ولكن فى هذا الشأن أظنها سوف تتبع أباك. ابق معى يا ابن عمر، سوف أخبرك بكل شىء بعد قليل».

أخذ زهير يرتج لهفة وتوقعًا. سخن الشيخ بعض الماء وأعد إناء القهوة، بعد أن كان قد دفع بأوعية الطهى إلى أحد الجوانب وسحب سجادة يدوية كبيرة تبدو مستعملة من زمن طويل، سحبها إلى مركز الكهف. جلس وقد مدد ساقيه واحدة فوق أخرى، وأشار لزهير للانضمام إليه. عندما جلس كلاهما صب الشيخ قدحين من القهوة. كان يرشف بصوت مسموع، وشرع يتحدث.

«كنا نظن أن أزمنة المجد الخالية قد تنتهى فى أى مكان آخر عدا غرناطتنا. كنا نؤمن بأن دولة الإسلام سوف تبقى فى الأندلس، ولكننا كنا نهون من قدراتنا على تدمير الذات. تلك الأزمنة لن تعود أبدًا، أتدرى لماذا؟ لأن من يزعمون أنهم حماة العقيدة تنازعوا فيما بينهم، اقتتلوا وأثبتوا عجزهم عن التوحد أمام المسيحيين، وفى النهاية كان الوقت قد فات.

«عندما كان السلطان أبو عبد الله يتطلع لآخر مرة إلى مملكته الضائعة شرع يبكى، وعندئذ قالت له أمه، السيدة عائشة: «ابك مثل النساء ملكًا ضائعًا، لم تحافظ عليه مثل الرجال». لطالما شعرت أن ذلك لم يكن حكما عادلا. فى ذلك الحين كان للمسيحيين غلبة عسكرية ساحقة. وكنا نظن أن سلطان تركيا قد يرسل لنا بالنجدة، ووضعنا الحراس والمراقبين فى «مالقة» على أمل، غير أن شيئا لم يأت. كل ذلك حدث قبل

سبعة عشر عاما فقط، ولكن الأزمنة التى سوف أروى لك عنها مَرَّ عليها نحو مائة عام».

«كان جدك الكبير، ابن فريد، محاربا لا مثيل له، يقال: إن فرسان المسيحيين كانوا يخشونه أكثر مما يخشون ابن قاسم، وصدقنى فإن هذا القول وحده يعنى الكثير. ذات مرة عند حصار مدينة سد خرج من المدينة المحاصرة وحده على صهوة جواده حتى بلغ خيمة الملك القشتالى»، صاح به: «يا ملك المسيحيين، إننى أتحدى كل فارس من فرسانك إلى مبارزة شخصية، وقد أمرنى الأمير أن أخبرك أننى إذا سقطت عن جوادى على يد واحد من رجالك فسوف نفتح أمامكم أبواب المدينة، ولكن إذا غربت الشمس وأنا ما زلت فوق جوادى وجب عليكم الانسحاب».

«كان ملكهم الذى يعرف شهرة وسمعة جدك الكبير فى القتال مترددا فى الاستجابة، ولكن الفرسان المسيحيين ثاروا، كانوا يشعرون أن رفضهم لهذا العرض إهانة لرجولتهم، وهكذا تم قبول عرضه، وجرى ما كان مقدرا له أن يكون. عند غروب الشمس، كان جسد سيد بنى هذيل يرشح كله بالدماء، ولكنه كان ما يزال فوق صهوة جواده. سقط ما يقرب من ستين فارسًا مسيحيًا قتلى. رفع الحصار... لأسبوع واحد فقط. ثم عادوا وباغتوا الحامية على حين غرة، وانتصروا فى نهاية المطاف، ولكن ابن فريد كان قد عاد لقرية بنى هذيل فى ذلك الحين».

«كان عمر جدك عبد الله عامين لا أكثر عندما توفيت أمه الغالية السيدة نجمة، وهى تلد عمتك الكبيرة زهرة. شغلت أختها الصغيرة السيدة مريم مكانها وأصبحت أمًا للطفلين، وأكرم بها من أم. قيل: إن الطفلين شبا وهما يعتقدان أنها أمهما الحقيقية».

بدأ زهير يشعر بنفاد الصبر: «هل أنت متأكد من أن تلك هى قصة حياتك أنت؟ إنها تبدو أقرب لقصة حياتى أنا. لقد نشأت على سماع الحكايات الخرافية التى تدور حول جدى الكبير».

ضاقت عينا الزنديق. وهو يحدق فى زهير: «إذا قاطعتنى مرة أخرى فلن أناقش الأمر معك بعدها أبدا. هل هذا واضح؟».

أومأ زهير بموافقته على تلك الشروط المتعسفة: واستأنف الشيخ حكايته.

«ولكن كانت هناك مشكلات أخرى، فعلى الرغم من أن ابن فريد قد أظهر احترامًا كبيرًا وعاطفة طيبة نحو زوجته الجديدة، فإن ذلك كان دون أى قدر من الشغف والهوى. استطاعت مريم أن تحل محل أختها المتوفاة فى كل شىء آخر، ولكن ليس فى فراش جدك الكبير. إنه ببساطة لم يعد قادرًا على الانتفاع بتلك الآلة الموهوبة للرجال. جاء لفحصه كثير من الأطباء والمعالجين. وصلت إلى الدار مشروبات مقوية من أغرب الأنواع، وكانت تصب فى حلقه صبا لتجديد همته، ولم يحدث شىء. تبخترت عذارى حسناوات قبالة فراشه، ولم يحرك ذلك كله ساكنًا.

«ما لم يدركوه هو أن مرض النفس لا يُعالَج كما تعالج أمراض البدن. أرأيت يا صاحبى الشاب؟ حين تهبط المعنويات لا يصيح الديك! أواثق من أنك لا تعرف شيئا من ذلك كله؟».

هز زهير رأسه أن لا.

«كم يدهشنى هذا الأمر! إن كلا من "آمه" والقزم يعرفان كل صغيرة وكبيرة. كان على أحدهما إخبارك». ثم أبدى الشيخ نفوره من الاسمين اللذين أتى على ذكرهما بأن تنشق بعنف، ثم بصق بلغمه خارج الكهف فى مهارة ودقة.

«أرجوك لا تتوقف الآن. لابد من أن أعرف كل شىء». هكذا قال زهير، بصوت يشى بالتوسل واللهفة معًا. ابتسم الشيخ وهو يصب المزيد من القهوة.

«ذات يوم عندما كان ابن فريد فى زيارة لعمه فى قرطبة، ركب الاثنان وخرجا من المدينة إلى ضيعة رجل مسيحى، كانت صلة صداقة تربط عائلته بعائلتكم منذ سقوط إشبيلية. لم يكن ذلك السيد النبيل،

واسمه دون ألفارو بمنزله، ولا السيدة زوجته. وبينما كان الاثنان ينتظران دخلت عليهما خادمة شابة ببعض الفاكهة والشراب. لم تكن قد تجاوزت الخامسة عشرة أو السادسة عشرة على أقصى تقدير.

«كان اسمها بياتريس وكانت بديعة التكوين. كان لبشرتها لون المشمش الناضج، ولعينيها شكل اللوز، وحين تبتسم يبتسم وجهها بكامله. لقد رأيتها بعد ذلك بمدة قصيرة، وكان من الصعب على -وإن كنت صبيًا حدثًا- ألا أنفعل أمام حسنها. لم يستطع ابن فريد أن يحول بصره عنها، وأدرك عمه على الفور ما حدث فسعى لأن يرحلا، غير أن جدك الكبير رفض أن يتزحزح من المنزل. قال عمه للأسرة فيما بعد: إنه حتى عندئذ كان يساوره إحساس داخلى بأن ابن فريد متوجه نحو حافة هاوية، غير أن كل تحذيراته ومخاوفه ونذر الشر التى بثها ذهبت أدراج الرياح. كان ابن فريد معروفا بعناده.

«عندما عاد دون ألفارو بصحبة أبنائه سعدوا لرؤية الزائرين، أعدت مأدبة عامرة، وتم تجهيز أسرة النوم. لم يكن هناك أى استعداد لأن يسمحوا للرجلين بالعودة إلى قرطبة فى الليلة نفسها. بعثوا برسول لإخبار العائلة بأن ابن فريد لن يرجع قبل يوم الغد. يمكنك أن تخمن من أسعده ذلك التدبير كل السعادة. فى النهاية، وبعد أن تقدم الليل، قام المحارب العظيم بسؤال ضيفه فى استحياء عن الجارية.

قال دون ألفارو: «حتى أنت يا صاحبى، أنت أيضًا؟ بياتريس هى ابنة دوروثيا طاهيتنا. ألك رغبة فيها؟ إذا كنت تريد مضاجعة الجارية فيمكن ترتيب الأمر بلا شك».

«تخيل ذهول دون ألفارو عندما جعل رده الكريم هذا ابن فريد يقفز ناهضًا عن وسائده، وقد اصطبغ وجهه بحمرة الغضب، ودعا مضيفه أن يتبارزا بالسيف. أدرك دون ألفارو أن الأمر كان حرجًا، قام واقفًا واحتضن ابن فريد». «ماذا تريد يا صديقى؟» سكت الجميع، وانبعث

صوت ابن فريد مختلجًا بالعاطفة: «أريدها زوجة لى، تلك رغبتى ولا مزيد». هنا فقد عمه الوعى، وإن كان الأرجح أنه أفرط فى احتساء الخمر. ماذا كان بوسع دون ألفارو أن يقول؟ قال إن والد الفتاة متوفى، وإنه سوف يسأل أمها دوروثيا، ولكنه كان صريحًا بما يكفى؛ لأن يؤكد بوضوح أن الرفض كان مستبعدًا، بما أن المرأة تعمل فى خدمته.

«لم يطق جدك الكبير الانتظار»: استدعها الآن! وأطاعه دون ألفارو فيما قال. جاءت دوروثيا مرتبكة حائرة وانحنت أمام الرفقة المجتمعة. شرع دون ألفارو يتحدث قائلا: «يا دوروثيا، لقد استمتع ضيوفنا بطعامك كثيرا، وهذا الفارس العظيم، ابن فريد، يهنئك على جودة طهيك، كما يهنئك أيضا على جمال بياتريس. نحن الذين رأيناها تشب عن الطوق وتنضج خلال السنوات القليلة المنصرمة، نتعامل مع صورتها باعتياد وألفة، ولكن أمام الأعين الجديدة فإن جمالها يلوح فتاكًا. هل عندك أية خطط لتزويجها؟» يا للمرأة المسكينة! ماذا كان بوسعها أن تقول؟ هى أيضا صعقتها المفاجأة حيث وقفت هناك بجرمها الهائل، وشعرها الأحمر المنسدل حتى ركبتيها. ذهلت لسؤاله، فهزت رأسها نفيا غير مصدقة. واصل دون ألفارو قائلا: «حسنا إذن! عندى نبأ سار من أجلك. يريدها صاحبى ابن فريد زوجة له. أتفهمين؟ زوجة له طوال العمر، وليست خليلة لليلة واحدة! سوف يدفع لك مهرا سخيًا. فماذا تقولين؟»».

«يمكنك أن تتخيل يا ابن عمر حال تلك المرأة المسكينة. راحت تبكى، مما حرك فؤاد ابن فريد، فتحدث إليها وشرح لها من جديد أن نواياه شريفة تمامًا. عندئذ نظرت نحو دون ألفارو ثم قالت: «كما تشاء يا سيدى. إنها يتيمة الأب، والقرار لك»، وقرر دون ألفارو فى تلك اللحظة نفسها أنه فى الصباح التالى ستكون بياتريس هى الزوجة الثالثة لجدك الكبير. شربوا مزيدا من النبيذ. وكما قيل لنا فيما بعد: لم ير أحد مثل تلك الفرحة التى ارتسمت على وجه جدك الأكبر منذ يوم مولد جدك لأبيك،

«أنه بلغ السماء السابعة. راح يغنى، كان يغنى بقدر من البهجة الجليلة والطرب الواضح بحيث سرت عدوى الغناء بين الجميع فشاركوه. لم ... أبدا تلك القصيدة وظلت تُغنى فى منزلكم منذ ذلك الحين».

تصلب جسد زهير.

«هل كانت الخمرية؟».

ابتسم الشيخ وأومأ أن نعم. تركت قصة غرام ابن فريد أثرا عميقا فى نفس زهير، فاندفع يترنم فجأة بإحدى خمريات أبى نواس.

فلتغمر موجة النشوة العالية جميع حواسى!

أشفقى على المكلوم يا وقود الحب

وعلى قلبه الذى طال احتراقه

ألا جواب منكِ حتى بعبوس الوجه والتقطيب

حين أنظر ما أنتِ عليه من حسن.

فما الحياة سوى الهوى، وموت المتيم جنةٌ

تُغفر فيها الذنوب جميعها.

صاح الشيخ متهللًا: «الله! الله! إنك لتحسن الغناء».

«عرفت هذه الأبيات عن أبى».

«وهو عرفها عن أبيه، ولكن المرة الأولى هى الأهم. هل أواصل أم أنك اكتفيت لهذا اليوم؟ تتألق الشمس فوق القمم، ومزيجك السماوى بانتظارك بالمنزل، إذا كنت قد تعبت...».

«أرجو أن تواصل، أرجوك!».

واصل الشيخ.

«فى الصباح التالى، وبعد الإفطار، تحولت بياتريس إلى الإسلام. وعندما عرض عليها الاختيار بين أسماء عربية بدت مرتبكة، حتى إن اسمها الجديد حدده لها زوجها المقبل. أسماء بنت دوروثيا.

يا للصبية المسكينة! حينما استيقظت فى وقت مبكر من ذلك

الصباح، لكى تنظف المطبخ وتشعل النار، أبلغوها بخبر زفافها الوشيك فأخذت تبكى. كان عم جدك الكبير هو الذى قام بعقد القران، بما أنه كان المسلم الوحيد الحاضر. ديننا بسيط، فالميلاد والموت والزواج والطلاق، كلها أمور لا تتطلب أية طقوس معقدة، بخلاف النظام الذى ابتدعه الرهبان.

«كان ابن فريد فى عجلة من أمره؛ لأنه كان يريد أن يضع أسرته أمام الأمر الواقع، وشعر بأن التأخير قد يدمر الزواج تمامًا. كان فرع العائلة الذى ينتمى إليه أشقاء نجمة ومريم يتميز بالقدرة على حل وتسوية ما ينشأ من نزاعات بين العشائر والقبائل، كما أنهم كانوا قتلة محنكين. وبطبيعة الحال كانوا سيعتبرون انصرافه عن شقيقتهم لصالح جارية مسيحية إساءة كبيرة. وكما تعلم، لم تكن هناك غضاضة فى اتخاذ خليلة، ولكن ذلك كان أمرًا مختلفًا، فقد تم اختيار سيدة جديدة للدار دون معرفتهم أو رضاهم، ولسوف تلد له أطفالا بلا شك، وإذا سمح لهم الوقت فربما حاولوا قتل بياتريس. كان ابن فريد معروفا فى الأندلس كلها باسم «الليث» لشجاعته وإقدامه، غير أنه كان قادرا على لعب دور الثعلب بالقدر نفسه من التمكن. كان يعرف أنه إذا تزوجها وانتهى الأمر فسوف يكون له السبق على أشقاء زوجته وله عليهم حجة. كان عمه غاضبا بالطبع، غير أنه لم يتشاجر مع ابن أخيه فى دار دون ألفارو. ذلك فيما بعد.

«وهكذا عاد ابن فريد وأسماء بنت دوروثيا إلى قرطبة. واستراحا هناك ليوم وليلة قبل استئناف رحلة تستغرق يومين إلى مملكة غرناطة وإلى أمان قرية الهذيل. على غير علم من ابن فريد، كان النبأ قد بلغ المنزل مع رسول خاص أرسله عمه.

«ساد المنزل جو تفجع وحداد. كان جدك عبد الله وقتها، فى الثامنة عشر من عمره، وعمتك الكبرى تصغره بأربع سنوات، وكنت أنا وهى فى السن ذاته. كانا يذرعان الباحة، حيث يتدفق تيار المياه، جيئة

[illegible] كلاهما على الحال نفسها من الاضطراب والغيظ. كنت أراقبهما يزدادان غضبًا وضيقًا بمرور الوقت دون أن أعرف سبب ذلك، [illegible] ما سألت جدك عن السبب صاح فى وجهى: «انصرف من هنا يا ابن [illegible] لا شأن لك بذلك». لم يتحدث إلىَّ هكذا أبدا من قبل. وعندما [illegible]ت السيدة مريم من غرفتها، هرع كلاهما نحوها وعانقاها، وشرع الثلاثة يبكون فى اللحظة نفسها. نسيت وقاحتى عن طيب خاطر. كنت أحب جدك حبا جما، وآلمنى ما قاله لى فى ذلك اليوم ألما شديدًا، ولكننى أدركت طبعًا سر غضبه فيما بعد، حتى ذلك النهار كنت ألعب وألهو معه ومع زهرة كأنداد متساوين، ولكن شيئا ما قد تبدل. وما أن استعاد البيت هدوءه حتى حاول كل منا الرجوع إلى سيرتنا الأولى فى أيامنا الحالية، ولكن الأمور لم تعد أبدًا كما كانت عليه. لم أستطع أن أنسى بالمرة أنه كان السيد الصغير، وكانوا يذكِّرونه باستمرار بأننى ابن الجارية التى تم تكليفها بتلبية حاجات السيدة أسماء».

أخيرا بدأ الشيخ يتحدث عن نفسه؛ هكذا حدَّث زهير نفسه، ولكن قبل أن يتمكن من طرح أى سؤال مضى الشيخ فى روايته.

«كانت السيدة مريم أرق نساء الأرض، ومع ذلك كانت ذات لسان حاد مع الجوارى، إذا ما تجاوزت إحداهن أصول اللياقة ورفعت الكلفة، كلهن باستثناء المرضعة "آمه" بالطبع. إننى أتذكرها بوضوح [illegible]. أحيانًا كانت تذهب للاستحمام فى بركة كبيرة من المياه العذبة التى فاض بها النهر، تسبقها ست خادمات وتتبعها أربع جوار أخريات. [illegible] يرفعن ملاءات ويمسكن بها من جميع الجهات حولها، فيوفرن لها خصوصية تامة. عادة ما كان يستمر هذا الاحتفال مجللا بالصمت، إلا إذا صادف أن صحبتها زهرة إلى هناك. كانت الخالة وابنة أختها تثرثران بلا كلفة، ويسمح عندها للجوارى بالضحك على نوادر زهرة وأقوالها. كانت الخادمات توقرن مريم، ولكن لم يحببنها. أما أبناء أختها المتوفاة

فكانوا يعبدونها عبادة. لم تكن تسبب أى سوء لجدك ولعمتك الكبيرة شقيقته. كانا يعرفان أن أباهما لم يكن سعيدا معها. استشعرا، بالحدس الذى يملكه الأطفال عادة، أنه أيا كانت المشكلة بينهما فهى غائرة وصعبة، لكنهما لم يتوقفا عن حبهما لها أبدًا.

أمسك الشيخ فجأة عن الكلام ونظر بحدة فى عينى سامعه المضطربتين.

«أهناك ما يشغلك أيها السيد الشاب؟ أترجو أن تغادر الآن وتعود فى يوم آخر؟ الحكاية لن تهرب منا».

كانت عينا زهير قد وقعتا على هيئة صغيرة تقترب فى الأفق وحولها غبار يثور، مما يشى براكبٍ آت فى مهمة. ظن أنه كان رسولا من بنى هذيل.

«أخشى أن نضطر للتوقف إذا كان من يمتطى الحصان مقتربا رسولا من دارنا. سأعود غدا عند شروق الشمس. هلا أشبعت فضولى وأجبتنى عن سؤال واحد، قبل أن أغادرك اليوم؟».

«اسأل».

«مَنْ أنت أيها الشيخ؟ كانت أمك تخدم فى دارنا، ولكن من أبوك؟ هل يمكن أن تكون أحد أبناء عائلتنا؟».

«لست واثقا من ذلك. كانت أمى جزءا من المهر، فتاة خادمة أتت مع السيدة نجمة من قرطبة حين زفت السيدة لابن فريد. لابد أن أمى كانت فى ذلك الحين فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها. أما أبى، فمن يدرى؟ قالت أمى: إنه كان بستانيا فى ضيعتكم، لقى مصرعه فى إحدى المعارك بالقرب من «مالقة» فى عام مولدى نفسه. صحيح أنها تزوجت منه، ولكن لا يعلم الله إن كان هو أبى حقًا. فيما تلا من سنوات، وبعد الموت المفاجئ والملغز لأسماء بنت دوروثيا، والظروف الغريبة التى صاحبت موت أمى، سأسمع حكايات تُروى حول أبى الحقيقى، فقد قيل: إن البذرة التى نتجت عنها كان ابن فريد هو من زرعها. كان هذا

الطبع يفسر سلوكه خلال ما تلا من سنوات، ولكن لو كانت تلك هى الحقيقة لكانت أمى قد أخبرتنى بها بنفسها. لقد كففت عن الانشغال بهذا الأمر».

أثار هذا المنعطف فى الأحداث فى نفس زهير الفضول والشغف. إنه يتذكر الآن على نحو غامض تلك القصص التى كانت ترويها "آمه" حول مأساة السيدة أسماء، غير أنه لم يكن بمقدوره تذكر حتى خطوطها العريضة. ود بشدة لو أنه بقى ليستمع للحكاية برمتها، غير أن الغبار راح يترسب.

«لكنك ما زلت تخفى حقيقة واحدة مهمة».

«وما عساها تكون؟».

«اسمك أيها الشيخ، اسمك».

كان رأس الشيخ منتصبًا طوال هذا الوقت، غير أنه تهدلَ فجأة إذ راح يتأمل رسوم البساط. ثم رفع بصره إلى زهير وابتسم:

«لقد نسيت منذ عهد بعيد الاسم الذى سمتنى به أمى. لعل "امه" أو القزم يتذكرانه. على مدار عقود كثيرة للغاية عرفنى الأصدقاء والأعداء باسم وجيد الزنديق. كان ذلك هو الاسم الذى استخدمته عند كتابة أول مؤلفاتى، وهو اسم ما زلت أفخر به».

«لقد زعمت أنك عرفت سر تسميتهم لى بالفحل. سوف أُعمل فكرى جاهدا لكى أعثر على سبب مساو فى القسوة يفسر اكتسابك لهذا الاسم».

«الجواب هين، فهو يصفنى بدقة. فأنا باعتبارى زنديقًا، صاحب عقل حر مأخوذ بنشوة الوجد!».

ضحك الاثنان. وحين توقف الفارس أمام الكهف قاما واقفين، واندفع زهير بتلقائيته المعتادة إلى الشيخ يحتضنه ويقبل وجنتيه. تأثر الزنديق بهذه الإيماءة الحميمة، وقبل أن يتمكن من قول أى شىء سعل الرسول بهدوء.

قال زهير: «ادخل يا رجل، تعال. أهى رسالة من أبى؟».
أومأ الفتى، كان فى حوالى الثالثة عشرة من العمر.
«معذرة يا سيدى، لكن السيد يبلغك أن عليك العودة فورا، كانوا يتوقعون عودتك على الإفطار».
«حسن! اصعد لظهر هذا البغل الذى تدعوه حصانًا وعد أدراجك. وسوف أتخطاك فى غضون دقائق معدودة؛ لأقدم التحية لأبى بنفسى. لا رسائل منى إليه».
أومأ الفتى، وكان على وشك المغادرة حين أوقفه الزنديق. «اقترب أيها الفتى. هل أنت عطشان؟».
تطلع الصبى نحو زهير، الذى أومأ إيماءة هينة. تناول الفتى فى لهفة قدح الماء الذى قُدم له، وتجرعه دفعة واحدة.
«إليك! خذ بضع تمرات لتأكلها فى طريق عودتك. سيكون لديك الوقت الكافى لأكلها حين يدركك السيد الشاب».
تقبل الفتى التمرات ممتنًا، وانحنى للرجلين، وسرعان ما رأياه وقد شرع يلاطف حصانه ليعود أدراجه على طريق الجبل.
«السلام عليك يا وجيد الزنديق».
«وعليك يا بنى، أيمكننى أن أسألك معروفًا؟».
«لك ما تريد».
«عندما سمح لى والدك بالمقام هنا قبل خمس وعشرين سنة، أصر على شرط واحد ووحيد، هو أن أحتفظ بشفتى مطبقتين محكمتين بشأن كل ما يخص عائلتكم، وإذا تبين له أننى خرقت هذا الشرط فسوف يسحب على الفور إذنه لى بالإقامة إلى جواركم، وتنقطع أيضًا مؤن الطعام التى رتبتها لى والدتك بجودها وطيبتها. إن مستقبلى يتوقف على التزامك الصمت، لم يعد عندى مكان آخر أذهب إليه».
غضب زهير.

«ولكن هذا غير مقبول. هذا ظلم، وهو ليس من شيم أبى. ولسوف...».

«لن تفعل شيئًا. قد يكون أبوك مخطئًا، ولكن كان لديه أسبابه. ا. ر، منك تعهدا بالتزام الصمت».

«أعدك بذلك. وأقسم على القرآن بأننى...».

«وعدك وحده يكفينى».

«بالطبع أيها الزنديق. ولكننى أريد منك أن تعدنى فى المقابل بأنك سوف تكمل لى القصة».

«عزمت على فعل ذلك بكل تأكيد».

سار الزنديق إلى حيث كان الحصان خالد معقولاً وابتسم معجبا، بينما وثب زهير على ظهر الحصان العارى.

ربت الزنديق على كفل الحصان.

«ركوب الحصان دون سرج».

صاح زهير مكملًا له: «أعرف أعرف، مثل ركوب ظهر شيطان، إذا كان ذلك صحيحا فكل ما أستطيع قوله هو: إنه لابد من أن يكون للشيطان ظهرا مريحا».

«صحبتك السلامة أيها الفحل. ولتبق داركم عامرة أبد الدهر».

هكذا ردد العجوز مبتسما ابتسامة عريضة فى وجه زهير وهو ينهب الأرض نهبًا نازلاً عن التل.

بقى الزنديق واقفًا هناك صامتًا بعض الوقت يرقب بإعجاب مهارة الفارس الذى يبتعد.

«ذات يوم كنت أنا أيضًا بهذه البراعة فى ركوب الخيل. ألا تذكرين يا زهرة؟». لم يكن هناك رد.



الفصل الثالث

استيقظ يزيد من قيلولة ما بعد الظهيرة وهو يرتجف قليلًا، ووجهه يتصبب عرقًا. كانت "آمه"، الراقدة إلى جواره متوترة لرؤية أصغر أبنائها على هذه الحال. مسحت وجهه بقطعة قماش من كتان مغموسة بماء الورد، ثم مست جبينه، كان جبينه باردا تمامًا مثل نسائم الأصيل فى الفناء.

لم يكن هناك داع للقلق.

«هل تشعر باعتلال يا بُنى؟».

«كلا. رأيت فقط حلمًا غريبًا. كان الحلم حقيقيًا للغاية يا أمى. لماذا تكون أحلام الظهيرة واقعية بدرجة أكبر؟ هل السبب أن نومنا يكون أخف؟».

«ربما. ألا تريد أن تخبرنى بالحلم؟».

«حلمت بجامع فى قرطبة. كان آية فى الجمال يا أماه. ثم دخل العم الكبير ميجيل وبدأ يصب قوارير دماء هنا وهناك. حاولت أن أمنعه، لكنه ضربنى...».

قاطعته زبيدة قائلة: «ما نراه فى أحلامنا يفوق الواقع». لم تكن تحب الهجوم المتواصل على ميجيل الذى تُغذِّى به "آمه" الأولاد، وهكذا حاولت أن تلهى عقل أصغر أبنائها». ولكن مهما بلغت أحلام المرء عن الجامع الكبير فى قرطبة فإن ذلك يقصر عن الحقيقة. سوف نصطحبك معنا ذات يوم فترى أقواسه رائعة الجمال. أما ميجيل...» وتنهدت.

كان زهير فى طريقه للحمام فسمع الحديث ودخل غرفة الأم بهدوء فى الوقت المناسب، ليسمع ما أعرب عنه يزيد من استهجان نحو أسقف

قرطبة. لا أحبه، ولم أحبه أبدًا. دائمًا ما يقرصنى من وجنتى بشدة. تقول "آمه": إنه لا يمكن أن نتوقع منه أى خير. قالت إن أمه، السيدة أسماء كذلك، لم تكن تحبه. تعلمين يا أمى، ذات مرة سمعت "آمه": والقزم يتحدثان عن السيدة أسماء. قالت "آمه" إن ميجيل هو الذى قتلها. هل هذا صحيح؟».

أصبح وجه زبيدة فى لون الرماد، واصطنعت ضحكة صغيرة تنم عن عدم الاقتناع. «أى حماقة هذه؟ بالطبع لم يقتل ميجيل أمه! سوف يستاء والدك بشدة إذا سمعك تردد هذا الكلام. إن مربيتكم تنطق بكثير من الهراء، وعليك ألا تصدق كل ما تقوله».

تساءل زهير بنبرة هازئة: «هل أنت واثقة من هذا يا أماه؟».

نبه صوته كليهما، وثب يزيد ناهضا وقفز مباشرة نحو ذراعى أخيه. تعانق الشقيقان وتبادلا القبلات، وابتسمت أمهما.

«عاد الجرو فى أمان الله مع راعيه وحاميه. لقد افتقدناك كثيرًا هذا الصباح، كان يزيد يفكر ما إذا كان مزعجا لكل من فى الدار. هل كان ما يقوله لك ذلك الشيخ شيقًا وممتعًا إلى هذا الحد؟».

خلال رحلة عودة زهير إلى المنزل، كان قد أعد جيدا جوابه عن هذا السؤال المتوقع.

«مأساة الأندلس. فشل أسلوبنا فى الحياة فى أن يبقى. يرى أننا قد وصلنا إلى نهاية تاريخنا. إنه رجل واسع العلم يا أمى. عالم حقيقى. ماذا تعرفين عنه؟ إنه يرفض تمامًا التحدث عن نفسه».

قال يزيد: «سل "آمه"، فهى تعرف كل شىء عنه».

«سوف أخبر "آمه" بأن تسيطر على خيالها مستقبلاً وأن تتوخى الحرص فى حضور يزيد».

ابتسم زهير، وكان على وشك أن يتدخل فى الحديث حول "آمه" وفضائل آرائها العديدة، لكنه لمح فجأة عينى أمه والتحذير الواضح

[illegible] نهضت جالسة فى فراشها وأصدرت إليه أمرًا على الفور:

«اذهب واغتسل يا زهير، شعرك يغطيه الغبار».

فأضاف يزيد مقطبا: «وينضح برائحة عرق الخيل!».

غادر الشقيقان وصفقت زبيدة بيديها، فدخلت إلى الغرفة وصيفتان، تحمل إحداهما مرآة ومشطين، ودون كلمة واحدة شرعتا فى تدليك رأس سيدتهما، زوجان من الأيدى يعملان فى تناغم تام. كانت الأصابع العشرون رقيقة وصلبة فى الوقت نفسه، وغطت فى عملها المساحة الكاملة من الجبهة حتى قفا العنق. وفى الخلفية لم يكن يصل إلى سمع زبيدة إلا خرير الماء. عندما شعرت باستعادة توازنها الداخلى أشارت لهما بالتوقف عن عملهما.

استقرت المرأتان جالستين أرضًا، بينما أدارت زبيدة جسدها واعتدلت على طرف الفراش، فبدآ يعملان على قدميها. كانت صغراهما، أميمة، حديثة العهد بهذا العمل، وتجسد ما كان يعتريها من توتر فى عدم قدرتها على الاستعانة بالشدة اللازمة لتدليك كعب سيدتها الأيسر.

سألت زبيدة: «ماذا يتردد فى القرية؟».

كانت أميمة قد رقيت مؤخرًا لتقوم على خدمة السيدة، فأرادت زبيدة أن تخفف من ارتباكها. احمر وجه الخادمة الشابة إذ وجهت لها سيدتها الحديث، وغمغمت ببضع أفكار غير مترابطة حول الإجلال العظيم الذى يكنه كل أهل القرية لبنى هذيل. أما خديجة زميلتها الأكبر سنًا والأكثر خبرة، فقد هبت لنجدتها.

«يدور الحديث كله حول الصفعة التى وجهها زهير بن عمر لذلك الكافر يا سيدتى».

«زهير بن عمر ليس إلا طائش أحمق! وماذا ُيقال؟».

نجحت أميمة فى كتم ضحكتها، غير أن أريحية زبيدة وبساطتها طمأنتها، فردت بوضوح:

«صغار السن يوافقون على ما فعله ابن عمر يا سيدتى، ولكن كثيرين من كبار السن منزعجون، ويتساءلون ما إذا كان المسيحى قد تعمد الاستفزاز، وابن حصد الإسكافى كان قلقًا، فقد ظن إنهم قد يرسلون جندًا لمهاجمة قرية الهذيل ويأخذوننا كلنا أسرى، كما قال: إن...».

«هذا هو ابن حصد يا سيدتى، جاهز بالشؤم والتطير فى الأوقات المناسبة». كانت خديجة تخشى أن تكون أميمة قد أفاضت وباحت بما هو أكثر من اللازم، وأرادت أن توجه الحديث وجهة أكثر أمنًا، ولكن زبيدة كانت مُصرة.

«اسكتى. خبرينى أيتها الصبية، ماذا قال ابن حصد؟».

«لا أستطيع أن أتذكر كل ما قال يا سيدتى، ولكنه قال: إن أحلامنا الهنيئة قد انقضت، وأننا قريبًا سوف نصحو من النوم ونحن نرتجف».

ابتسمت زبيدة.

«إنه لرجل طيب حتى حين تخطر له أفكار كئيبة، إنها مثل حجر مَرَقَ من يد صديق لتفاحة نضرة. هل أخذت ثيابى إلى الحمام؟».

أومأت أميمة أن نعم. صرفت زبيدة الاثنتين بانحناءة رأس. كانت تعرف تماما أن الإسكافى لم يعرب إلا عما تشعر به القرية بأكملها. ثمة شعور عظيم بالغموض والريبة. للمرة الأولى خلال ستمائة عام، يواجه أهل قرية الهذيل احتمال العيش دون مستقبل واضح لأبنائهم. كانت هناك ألف حكاية وحكاية تدور فى أرجاء غرناطة عما جرى بعد استرداد قرطبة وإشبيلية. وصل كل لاجئ وبجعبته حكايات حول الرعب والوحشية الجزافية. أما الأمر الذى ترك انطباعًا غائرًا للغاية؛ فكان ذلك الوصف المفصل حول تقسيم الأراضى والممتلكات بين الكنيسة الكاثوليكية والعرش. ذلك ما كان يخشاه أهل القرية أكثر من أى شىء آخر. لم يكونوا يريدون أن يتم طردهم من الأرض التى زرعها أجدادهم من قبلهم على مدى قرون، فإذا كان السبيل الوحيد لحماية بيوتهم هو

. . دينهم، فكثيرون منهم سيقدمون على هذا البلاء من أجل البقاء، . او ا العائلات التى ستقدم على هذا ستكون عائلة عبيد الله، الوكيل ااا ,, لشئون الضيعة؛ لأنهم لا يعبدون إلا الأمن والثروة.

عزمت زبيدة على أن تراجع تلك المسائل مع زوجها، وأن يتوصلا الى قرار. كان أهل القرية يتطلعون نحو بنى هذيل فى انتظار إجابة ما، وكانت تعرف أنهم لابد من أن يخافوا من فعلة زهير الطائشة. على عمر أن يتوجه إلى الجامع يوم الجمعة، كان الناس فى حاجة إلى من يطمئنهم.

وبينما هى تسير فى الفناء، رأت زبيدة ولديها يلعبان الشطرنج. لاحظت المباراة لدقيقة، وسَرَّهَا أن تلاحظ التكشيرة الهائلة على ملامح زهير، علامة لا لبس فيها على أن يزيد يوشك أن يفوز. امتلأ صوته الفَتِيّ بالحماسة حين أعلن بانتصار: «دائمًا ما أربح عندما تكون الملكة السوداء فى جانبى!».

«ماذا تفعل أيها التعس؟ أمسك لسانك. لابد من أن يُلعب الشطرنج فى صمت تام، هذه أولى قواعد اللعبة، وأنت تنعق مثل غرابٍ على سطح ساخن».

قال يزيد: «ملكتى تحاصر سلطانك، ولم أتكلم إلا حين عرفت أن المباراة انتهت، فلا داعى للغيظ والمشاكسة، هل ينشغل الغارق بقطرات المطر؟».

غضب زهير لهزيمته على يد صبى فى التاسعة من عمره، ووضع ملكه على الطاولة، وضحك ضحكة شاحبة للغاية، وغادر فى تشامخ: «أراك على العشاء أيها التعس؟».

ابتسم يزيد للملكة. كان يجمع القطع ويضعها فى صندوقها الخاص حين أتى راكضا من الفناء خادم مسن شاحب الوجه، وكأنه قد رأى شبحًا. خرجت "آمه" من المطبخ، فهمس الخادم بأمر ما فى أذنها. لم يسبق ليزيد أن رأى العجوز على هذه الحال من القلق والتوتر. هل يمكن

أن يكون هناك جيش مسيحى يداهم الهذيل؟ قبل أن يتمكن من أن يهرع نحو البرج ليتبين الأمر بنفسه، ظهر والده فى المشهد تتبعه "آمه".

لم يكن يزيد يرغب فى أن يترك لحاله، فسار عرضا نحو أبيه وأمسك بيده، ابتسم عمر له، ولكنه عبس فى وجه الخادم.

«أواثق أنت؟ ربما هناك خطأ ما؟».

«ما من خطأ يا سيدى. لقد رأيت الموكب بعينى هاتين يمر بالقرية. كان هناك جنديان مسيحيان يرافقان السيدة والناس مضطربون. لقد كان ابن حصد هو الذى تعرف عليها، وأخبرنى بأن أركب حصانى إلى هنا بها فى وسعى من سرعة لأبلغكم».

«يا الله! بعد كل تلك السنوات! اذهب أيها الرجل، وكُلْ شيئًا قبل أن تعود. ستصحبك "آمه" إلى المطبخ. يا يزيد، اذهب وأخبر أمك أننى أريد التحدث إليها، وبعد ذلك أبلغ أخاك وأختيك بأننا سوف نستقبل ضيفًا هذه الليلة. أريد منهم الانضمام إلىَّ بحيث نرحب به بوصفنا عائلة. هيا! اركض أيها الصبى».

تبادلت زهرة ابنة نجمة كلمة مع الإسكافى، بالإضافة إلى أنها لم ترد تحيات كبار السن من الفلاحين لها إلا بإيماءة هينة، اعترافًا بحضورهم من حولها، لا أكثر من ذلك. ما أن مرت عربتها بالشوارع الضيقة للقرية وبلغت كتلة الأشجار التى يظهر المنزل من عندها للعيان واضحًا كل الوضوح، حتى أخبرت سائق العربة بأن يتبع الطريق غير المعبد الذى يمر بموازاة النهر.

«إمض بمحاذاة الماء حتى ترى منزل هذيل». قالت له وقد بدأ صوتها الضعيف يتهدج جياشًا بالعاطفة. لم تكن تتخيل بالمرة أنها سوف تعيش حتى ترى منزلها مرة أخرى. الدموع التى كتمتها لعشرات السنين كانت تنهمر الآن بضراوة شديدة كأنها نهر يفيض عن شاطئيه. حدثت نفسها أنه لم يعد هناك إلا الذكريات.

كانت تعتقد أنها على مدى الخمسين عامًا الماضية قد طرحت [illegible] شىء بحيث لا يكاد يبقى بداخلها من الماضى ولو مثقال ذرة. [illegible] وجودنا مضللاً. أنبأتها نظرتها الأولى إلى المنزل بأن لا شىء [illegible]. حين رأت مشاهد الطبيعة المحيطة تذكرت كل شىء بقوة [illegible] حتى آلمها التذكر من جديد. كان بستان أشجار الرمان هناك. [illegible] حين تباطأ حصان العربة، وقد بلغ منه الإجهاد مبلغه بعد رحلته الطويلة، وراح يشرب بعض الماء من مجرى النهر. وعلى الرغم من أننا كنا فى الخريف كان بوسعها أن تغمض عينيها وتشم رائحة بساتين الفاكهة.

«هل أنت واثقة من أن عينًا لم تقع عليك؟» تهدج صوته بالانفعال والتوتر. «فى ضوء القمر لا أستطيع سوى أن أسمع خفقات قلبك».

لم ينطقا بأى كلام آخر فى تلك الليلة حتى افترقا قبيل مطلع الفجر.

«ستكونين لى زوجة!».

«هذا منتهى مرادى».

فتحت عينيها وتشربت آخر أشعة الشمس. لم يتبدل شىء هنا. كانت هناك الأسوار الهائلة والبرج والبوابات مفتوحة كالمعتاد، وبشائر الشتاء تلوح فى الجو وشذا التربة يهيمن على حواسها. الضوضاء الناعمة والمياه الحريرية لمجرى النهر تتدفق عبر الفناء وإلى الفناطيس التى تزود الحمام كان كل شىء تمامًا كما تتذكره منذ تلك السنوات. كان عمر بن عبد الله، هو سيد هذه المقاطعة.

شعرت بأن الجنديين المسيحيين المرافقين لها توترا فجأة، وسرعان ما عرفت السبب. كان ثلاثة فرسان يرتدون عباءات وعمائم ذات بياض يُعشى الأعين قادمين نحوها، فتوقفت العربة.

ألجم كل من عمر بن عبد الله، وولديه زهير ويزيد الأحصنة، وقدما التحية للسيدة المسنة.

«السلام عليك يا عمتى، مرحبا بك فى دارك».

«عندما غادرت، كنت فى الرابعة من عمرك، وكانت أمك تريد
دائما أن أكون أكثر صرامة معك. تعال هنا».

ترجل عمر عن جواده وسار نحو العربة، فقبلت رأسه.

همست له: «لنذهب إلى المنزل».

حين بلغوا مدخل المنزل رأوا كبار السن من الخدم بانتظارهم بالخارج. ترجلت زهرة من العربة فتقدمت "آمه" نحوها واحتضنتها.

قالت "آمه" والدموع تنثال على وجهها: «بسم الله، باسم الله، مرحبا بك فى بيتك القديم يا سيدتى».

أجابتها زهرة والعجوزان تتبادلان النظرات: «أنا مسرورة لأنك ما زلت حية يا أميرة. مسرورة حقًا. لقد ذهب الماضى ولا أتمنى أن يعود».

اصطحبوها إلى داخل الدار، حيث انحنت زبيدة وهند وكلثوم، ورحبن بها. تطلعت زهرة نحو كل منهن، ثم تلفتت لترى ما إذا كان يزيد ما زال يتبعها. كان كذلك، فأمسكت بعمامته وألقت بها فى الهواء. رفعت حركتها هذه التوتر عن الجميع وأخذوا يضحكون. ركعت زهرة على إحدى الوسائد واحتضنت يزيد. شعر الصبى بفطرته أن تصرفها معه كان صادقًا وخالصًا فبادلها العاطفة.

«يا عمتى الكبيرة زهرة، أخبرتنى "آمه" أنك كنت محتجزة فى المارستان بغرناطة أربعين عامًا، ولكنك لا تبدين مجنونة بالمرة».

عبس عمر فى وجه ابنه فيما هيمنت على العائلة موجة اضطراب، غير أن هند قهقهت بالضحك.

«أنا أتفق مع يزيد، فلماذا لم تجيئى طوال كل تلك المدَّة؟».

ابتسمت زهرة.

«فى البداية لم أحسب أننى سأكون موضع ترحيب، وبعدها لم أفكر بالأمر، هذا كل شىء».

دخلت "آمه" تتبعها جاريتان معهن مناشف وثياب نظيفة.

«فليباركك الله يا سيدتي. حمامك جاهز. هاتان الفتاتان ستساعدانك».

«أشكرك يا أميرة. بعد ذلك لابد أن آكل شيئًا».

ودخلت زبيدة قائلة: «العشاء جاهز يا عمتي، كنا ننتظر لكي نأكل معك».

أمسكت "آمه" بذراع زهرة وسارا نحو الفناء، تتبعهما الخادمتان.

انتظرت هند حتى يبتعدن عن مرمى السمع.

«أبي! عمتنا الكبيرة زهرة ليست مجنونة، أليس كذلك؟ هل سبق أن جُنت حقًا؟».

هز عمر كتفيه وتبادل نظرة سريعة مع زبيدة. «لا أدرى يا بنيتى، قيل لنا: إنها قد فقدت عقلها فى قرطبة. لقد أعادوها من جديد إلى هنا، لكنها رفضت الزواج وبدأت تهيم على وجهها بين التلال تنشد أشعار الكفر والتجديف. لابد من أن أقر بأننى لم أكن مقتنعا أبدا بمسألة وضعها، بدا الأمر ملائمًا للغاية. كان أبى يعشقها وانتابته تعاسة شديدة لهذا القرار، ولكن ابن فريد كان رجلاً شديد البأس، لابد من أن نحرص على سعادتها فى أعوامها الأخيرة».

لم تكن هند راغبة فى تغيير الموضوع.

«ولكن يا أبى، لماذا لم تذهب أبدًا إلى المارستان لتزورها، لماذا؟».

«أحسست أن هذا سيكون مؤلمًا للغاية بالنسبة لها. فكرت فى القيام بذلك أحيانًا، ودائمًا كان يمنعنى شىء ما. اعتاد أبى أن يسافر لزيارتها، ولكن فى كل مرة كان يعود للمنزل وهو فى حالة من الإحباط بحيث لا يبتسم وجهه لأسابيع. أظن أننى فضلت ألا أوقظ تلك الذكريات، ولكنها هنا الآن يا ابنتى، وأنا واثق من أنها سوف تجيب عن كل أسئلتك، فلم يُعرف عن العمة زهرة اتصافها بالتحفظ أبدًا».

قالت زبيدة: «أخشى أن تظنوا أننا كنا نجحدها ونتجاهل وجودها، حتى الأسبوع الماضى كنا نرسل إليها الثياب النظيفة والفاكهة فى موعد أسبوعى عن طريق ابن عم أبيكم هشام».

قال يزيد بنبرة الراشدين: «يسرنى سماع هذا»، ولكن ضايقه أن قوله جعلهم يندفعون للضحك، فاضطر لأن يشيح بوجهه حتى يوارى ابتسامته

خلال العشاء تبددت لدى الجميع أية شكوك كانت متبقية بشأن اتزان عقل زهرة، فقد تحدثت وتضاحكت بمنتهى البساطة والأريحية، وكأنها كانت دائمًا أبدًا فردًا من أهل الدار. فى مرحلة ما، عندما انتقل الحديث رغمًا عنهم إلى مأساة الأندلس، أظهرت السيدة العجوز بديهة وفطنة سياسية أدهشت زبيدة.

«لماذا آل أمرنا للاضمحلال؟ لقد وقعنا فريسة لإحساس الحمقى بالشرف والكرامة! أتعرفين ما ذلك يا هند؟ وأنت يا يزيد ويا زهير؟ كلا؟ الحمقى يعتبرون الصفح والعفو خطأ».

كانت هند هى التى أفلحت أخيرًا فى طرح السؤال الذى كان يدور بعقولهم جميعًا.

«عمتى الكبيرة؟ كيف أذنوا لكِ بمغادرة المارستان؟ ماذا حدث؟».

بدت علامات الدهشة الصافية على وجه العجوز. «أتقصدين أنكم لاتعرفون؟».

هز الجميع رؤوسهم نفيًا.

«كنا معزولين دائمًا عن بقية العالم فى ذلك المكان. غرناطة كلها تتحدث بشأن ما جرى فى المارستان، وظننت أنكم تعرفون»، وبدأت تضحك، «من الأفضل أن أخبركم على ما أظن. ألديكم أى شىء لتحلية الفم يا زوجة ابن أخى؟».

قبل أن تتمكن زبيدة من الجواب، تحدثت "آمه"، التى كانت تنتظر بصبر حتى الانتهاء من الطبق الرئيسى:

«أتحب سيدتى تناول بعض المزيج السماوى؟».

«المزيج السماوى! أتتذكرينه يا أميرة؟».

قالت "آمه": «نعم أتذكره، ولكننى كنت سأعد بعضًا منه على

ال من أجل إفطار زهير، غير أنه لم يعد من جولته الطويلة على
ان إلا عند منتصف النهار. كل المقادير مُعدة منذ الصباح. دقيق
معجون وبانتظار تشكيله كعكا وخبزًا، لن أستغرق وقتًا طويلاً».

عندما رأتهم زهرة ينظرون جميعا نحوها فى لهفة وترقب، أدركت
أن عليها أن تخبرهم الآن، وهكذا شرعت تروى الأحداث الجسام التى
أدت إلى تغير مفاجئ فى حياتها.

«قبل عشرة أيام جاء إلينا بعض الرهبان وبدأوا استجوابًا حول
من النزلاء. كانت الغالبية من المسلمين، والبقية من اليهود وقليل من
المسيحيين. أخبر الرهبان المسئولين أن رئيس الأساقفة ذلك الذى أتى
من طليطلة...».

همس زهير فى احتقار: «خيمينث!»، فابتسمت عمته الكبيرة.

«هو نفسه. كان قد أخبر رهبانه أن يبدأوا عملية التحويل
الإجبارية. وأى مكان يبدؤون منه أفضل من المارستان؟ لم يكونوا فى
حاجة إلى تهديدنا ولكنهم فعلوا. منذ ذلك الحين لم يكن مسموحا بالبقاء
إلا لأولئك المؤمنين بعذرية السيدة مريم، وبربانية السيد المسيح، وكما
تعرفون فإن الخمر محرمة هناك، وحين رأى النزلاء قوارير النبيذ مع
الرهبان أقبلوا عن طيب خاطر يشربون دم المسيح، وهكذا مضت عملية
التحول بسلاسة شديدة».

«عندما أتى دورى قلت لهم: «لا شىء أهون عندى من الامتناع
عما حرم الله، ولكن عندى أخبارًا لكم. أنا لا أشرب بول الشياطين هذا
ومع ذلك فقد تحولت عن الإسلام بإرادتى الحرة، وحقيقة الأمر أيها
الآباء الموقرون أن هذا هو السبب الذى دفع أسرتى لإرسالى إلى هنا. ظنوا
أنى فقدت زمام عقلى حينما قلت: إننى صرت تابعة مخلصة لكنيستكم.
«أصيب القساوسة المساكين بالحيرة والارتباك. لعلهم اعتقدوا أننى كنت
مجنونة حقا، ولهذا ارتأوا تجاهل قصتى؛ لذلك السبب أشرت للصليب

الموجود حول عنقى. أتعرفون ما جرى يا أولاد؟ لقد أفلحت الحيلة.
في الصباح التالى أخذونى لمقابلة القائد العام بقصر الحمراء. تخيلوا ذلك، نزيلة فى المارستان تلتقى ممثل ملك قشتالة! كان فى غا... اللطف والتهذيب معى. حكيت له ما حدث لى. عندما تحقق من أ... أبى هو ابن فريد كاد أن يغشى عليه. قال: إنه سمع من أبيه حكايا... عن بسالة جدكم الكبير، وشرع فى الحال يقص على بعضًا منها. كن... أعرفها كلها، لكننى لم أدعه يدرك ذلك، وكنت أستمع بانتباه لكل كلمة، وأنا أبتسم وأومئ فى الأوقات المناسبة. نجح كل منا بطريقة ما فى تجاهل حقيقة أن مزاج أبى الحاد هو ما أودى بى إلى المارستان. سألنى عن رأيى فى حال غرناطة. قلت له: إننى قبل أربعين عامًا سألتُ القدير أن يمن على بمنة عظيمة الشأن؛ وما زلت أبتهل أن تتحقق قبل أن أموت. سأل القائد العام: «وما هى تلك المنة يا سيدتى؟» «أن يهبنى القوة لأمتنع عن التطفل على ما لا يعنينى».

أخذ يزيد يضحك على الطريقة التى كانت تقلد بها القائد وطريقته فى الكلام، وضحك الجميع، حتى كلثوم التى غشيتها الرهبة لوصول تلك الزائرة الخرافية. سُرت زهرة لتأثير قصتها فيهم فواصلت الحكى: «قد ترون أن ذلك كان جُبنًا منى، ربما تكونون على حق، أترون يا أولاد؟ كنت أريد أن أخرج وإذا قلت الحقيقة... ولو أننى أطلعته على ما كنت أشعر به حين أحرق خيمينث الشرير ذلك كتبنا، فلربما كنت لا أزال فى المارستان، أو لربما أرسلونى إلى أحد الأديرة. تعلمون أنهم قد أخذونا جميعا من المارستان حتى نشاهد محرقة ثقافتنا. فكرت حينها فى هذا المنزل وفى كل المخطوطات بمكتبتنا: ابن حزم، وابن خلدون، وابن رشد، وابن سينا. على الأقل سوف تنجو هنا. كان يمكننى أن أخبر القائد بذلك كله، ولكنهم عندئذ ما كانوا ليصدقون أننى عاقلة. لقد أتى أسلوب عدم الاكتراث أكله وأحدث الأثر المطلوب.

نهض القائد العام، انحنى وقبل يدى. قال لى: «فلتطمئنى يا ... العزيزة، سنقودك إلى ضِيَاع عائلتك فى أقرب وقت تشائين ... حراسة مسلحة». ثم انصرف وأعادونى إلى المارستان، لكم أن ... حالتى. لم أغادر هذا المبنى لأربعة عقود كاملة. كنت أتأهب فى ... للموت عندما حدث ذلك كله. وبالمناسبة، لابد من أن ترسلوا ... الكتب بعيدًا. اشحنوها بحرًا إلى الجامعة فى القاهرة أو فاس. أما ... لن يكتب لها النجاة أبدًا، والآن ليس لدى ما أضيفه، كل ما أرجوه ... ألا أكون عبئًا عليكم».

قال عمر بنبرة فيها لمسة ادعاء: «هذه دارك، وربما كان عليك ألا تغادريها من الأصل».

احتضنت هند زهرة وقبلتها، وتأثرت العجوز تأثرًا كبيرًا بهذه البادرة العفوية.

«لم أعرف أبدًا أنك تحولت يا عمتى الكبيرة».

«ولا أنا» هكذا أجابت زهرة فجعلت يزيد يصرخ ضاحكًا.

«هل اختلقت ذلك كله لتخرجى من هناك؟ حقًا؟».

أومأت زهرة بالإيجاب فضحك الجميع، ولكن شيئًا ما كان يقلق يزيد.

«من أين حصلت على الصليب إذن؟».

«صنعته بنفسى، لا يعوزنا الوقت اللازم فى ذلك المكان. كنت أقوم بنحت أشكال كثيرة من الخشب لأحفظ نفسى من الجنون فعلا».

نهض يزيد من مكانه وذهب ليجلس بالقرب من زهرة، قبض على يدها بشدة كأنما ليتأكد من أنها حقيقية.

«يمكننى أن أقر أن ابن أخى رجل صالح تمامًا مثل أبيه. إن أبناءك على سجيتهم فى حضورك. لم يكن الأمر هكذا معنا بالمرة. أممممم! أشم رائحة زكية. أميرة لم تفقد شيئًا من براعتها». دخلت "آمه" بكعكات الذرة وقد لَفَّتها فى قماش؛ للاحتفاظ بسخونتها. كان القزم فى أثرها، وهو

يحمل وعاءً معدنيًا ممتلئًا بالحليب شديد السخونة، ثم تبعتهما أميمة و... قدر ممتلئة بالسكر البنى الخام. انحنى القزم أمام زهرة فردت تحيته.

«أما زالت أمك حية أم توفاها الله أيها القزم؟».

«ماتت قبل حوالى خمسة عشر عامًا يا سيدتى، كانت أيضًا تدعو الله لك».

«كان عليها أن تدعو لنفسها، فلربما كانت لا زالت تعيش حتى الآن».

كانت "آمه" قد بدأت تعد المزيج السماوى، اختفت يداها فى سلطانية كبيرة تقطع فيها الكعكات اللينة بكل يُسر، أضافت بعض الزبد وواصلت ترقيق المزيج بيديها، ثم أشارت لأميمة فتقدمت وأخذت تصب السكر، بينما كانت "آمه"، بيديها المجعدتين، مستمرة فى خلط المكونات. وأخيرا سحبتْ أصابعها. صفقت زهرة بيديها ثم مدت وعاءها. كورت "آمه" يُمناها وقدمت لها حفنة ضخمة، وتكرر الأمر نفسه مع الآخرين. ثم صبوا الحليب الساخن وتناولوا الصنف الحلو، ولوهلة انشغلوا بالتمتع بطيب هذا المزيج البسيط حتى فاتهم أن يشكروا صانعته.

«سماوى! إنه حقًا سماوى يا أميرة! ما أروعه من مزيج سماوى! الآن يمكننى أن أموت قريرة العين».

قال يزيد: «لم يسبق لى أن تذوقت مزيجا سماويا مثل هذا يا "آمه"».

سأل زهير: «كان لا يمكن بأية حال صنع هذا المزيج من أجلى يا "آمه"، أليس كذلك».

غمغم عمر قائلا: «مذاق هذا المزيج يذكرنى بصباى».

شعرت "آمه" بالرضا. لقد امتدحتها الضيفة وكذلك رجال العائلة الثلاثة أمام الجميع. ليس لديها سبب للدمدمة والتذمر الليلة، هذا ما كان يدور بخلد هند وهى تضحك بداخلها من عبث هذا الطقس

... الذى يعود إلى تاريخ الزواج الأول لابن فريد.

كانت غرفة نوم هند ذات يوم هى غرفة زهرة، والآن ها هى معدة ... ـديد للسيدة العجوز، وانتقلت هند إلى إحدى الغرف الاحتياطية ... ـاح الحريم بالمنزل، قريبًا من غرفة أمها، اصطحبت زهرة إلى غرفتها ... نساء الدار وكذلك "آمه". توقفت على المدخل المفضى إلى الفناء ... تطلعت نحو السماء. فرت منها دمعة ثم أخرى.

كل شهر كنت أحلم بهذا الفناء. أتذكرين ظلال شجرة الرمان ... نور البدر التام يا أميرة؟ أتذكرين ما كنا نقوله؟ إذا كان البدر معنا فما حاجتنا للنجوم؟».

أمسكت "آمه" بذراعها ووجهتها برفق خلال الباب، بينما تمنت لها كل من زبيدة وهند وكلثوم نومًا هادئًا.

فى جزء آخر من الفناء كانت أميمة فى طريق عودتها لبيتها، بعد أن أعدت فراش السيدة زبيدة، حين برزت ذراع لتمسك بها وتجرها نحو إحدى الغرف.

همست: «كلا يا سيدى!».

مس زهير نهديها، ولكن حين بدأت يداه تجوسان فى موضع آخر منعته الفتاة.

«ليس بوسعى الليلة أيها الفحل. لستُ طاهرة، وإن كنت لا تصدقنى مد يدك بالداخل واكتشف بنفسك».

تدلت يداه جانبًا، لم يجبها، وعبرت الباب فى لمح البصر ثم اختفت.

عادت هند وكلثوم إلى غرفة أمهما. كانتا جالستين على الفراش تراقبانها وهى تفك شعرها ثم تخلع ثيابها.

دخل عمر عليهما من الباب الذى يصل بين غرفتيهما.

«كم كانت ليلة عجيبة! كانت تصغر أبى بعامين فقط، أرى فيها الكثير منه. كانا قريبين للغاية من بعضهما بعضًا. أعرف كم كان يفتقدها.

أي فاجعة! أي حياة مهدرة! كان يمكن لزهرة أن تكون شيئًا عظيمًا حقًا. أتعرفن أنها كانت تكتب الشعر؟ وكان شعرًا جيدًا. حتى جدنا، في الوقت الذي كان فيه شديد الغضب عليها، كان يعترف بذلك في قرارة نفسه..».

طرقة على الباب، ودخل زهير إلى الغرفة.

«سمعت أصواتا فقلت: لابد أنه اجتماع عائلي».

صححت له هند على الفور: «لا يمكن عقد اجتماع عائلي دون يزيد، فهو الوحيد الذي يأخذ تلك الاجتماعات مأخذ الجد. كان أبي يتحدث عن عمتنا الكبيرة قبل أن تتدخل في الحديث».

«وذلك ما أتيتُ لسماعه، فلا يعود شبحٌ للحياة في كل يوم. لابد أنها كانت امرأة وأي امرأة! ظلت منفية عن هذا المنزل لأكثر من خمسين عامًا. وكم كان سلوكها حميدًا الليلة، لا ضغائن ولا غضب. ارتياحٌ وحسب».

قال والدهم: «لا سبب لديها لتغضب منا، فلم نؤذها بشيء».

«من الذي أذاها إذن يا أبي؟ من؟ ولماذا؟ وأي جرم اقترفته العمة الكبيرة زهرة؟».

خالط الغضبُ اللهفة في صوت هند وهي تسأل، غضبٌ لم تحاول أن تواريه. لقد تحركت عواطفها أمام هيبة العجوز ونُبلها، دون أن تعرف أي شيء عنها، اللهم إلا كلام "آمه" الملغز العجيب، وما التقطته من نميمة وثرثرة لدى أقاربها في إشبيلية. لا تتطابق أيٌ من الحكايات مع ما عايشوه اليوم من واقع حين التجأت زهرة الحقيقية إلى منزل أجدادها بعيدا عن اضطراب غرناطة.

نظر عمر نحو زبيدة التي أومأت له برقة، وأقر بدقة المسألة، وصعوبة أن يخبر أبناءه بكل ما يسعه تذكره حول اللغز المحيط بزهرة. كانت هناك أمور عديدة يجهلها. من بين كل من ظلوا على قيد الحياة ليس سوى "آمه" من يعرف كل التفاصيل، وربما شخص واحد آخر باستثناء العم الكبير ميجيل، الذي يبدو أنه كان على علم بكل شيء.

أخذ عمر بن عبد الله يتحدث: «مضى زمن طويل للغاية على ذلك
الله، فلست واثقًا من أننى أتذكر كل التفاصيل. ما سوف أرويه لكم
، ، نه لى أمى، التى أحبت زهرة وصارت مرتبطة بها بشدة.

لا أدرى متى بدأت بالضبط مأساة زهرة. كانت أمى تقول: إن الأمر قد بدأ يومَ عاد جدكم ابن فريد إلى الدار ومعه زوجته الجديدة السيدة أسماء. لم تكن تكبرُ زهرة إلا ببضعة أعوام، ولم تُبد أية محاولة لتغيير نمط أو أسلوب الحياة هنا. تركت تدبير أمور الدار للجدة مريم، ويقال: إنها خلال شهورها الأولى كانت فى حالة من الرهبة البالغة، حتى أنه كان من الصعب عليها أن تصدر أمرا صغيرا إلى خادمة:

«أبى وزهرة كانا متعلقين بخالتهما مريم كل التعلق. كانت هى التى كفلتهما بعد وفاة أمهما، وهكذا فقد نزلت من قلبيهما منزلة الأم. الأخ والأخت كانا يعتبران دخول أسماء بيتنا تطفلاً واقتحامًا. لم يقع أى خطأ، ولكن تباعدت المسافة بينهما وبين أبيهما، ولا شك أن الخدم لعبوا دورًا خبيثًا فى كل هذه المسألة. كانوا على كل حال واعين بأصل أسماء، فلم تكن إلا فتاة مطبخ مسيحية، كانت أمها لا تزال طاهية، على الرغم من أن ابن فريد عرض عليها أن تترك خدمة دون ألفارو وتلتحق بأهل منزله. زود هذا كله أهل القرية بخيوط لا تنتهى للنميمة والثرثرة، وخصوصا فى مطبخ هذا المنزل. قد تظنون أن الخادمات والطاهيات سيشعرن بشىء من إحساس بالرفقة حيال هذا الترقى المفاجئ الذى حظيت به واحدة من بينهن، ولكن لا ذرة من هذا. بث والد القزم على الخصوص الكثير من السم، لدرجة أن ابن فريد استدعاه وهدده بأن يقطع رقبته بنفسه فى فناء الدار الخارجى، وقد كان لهذا التهديد أثره، وبدأت الأمور تهدأ شيئًا فشيئًا، إلى أن خمدت الحمى.

«كانت المشكلة فى أن الخدم لم يتجشموا حتى عناء خفض أصواتهم فى حضور الصغار، وكان الداء معديًا. أصبحت زهرة فى غاية

من السخط والغيظ. كان ابن فريد هو مركز حياتها، وحين تزوج أسماء شعرت بالخيانة. ورغبة فى أن تعاقب أباها كانت ترفض كل الخُطَّاب، وانسحبت بداخل نفسها أكثر فأكثر. كان يمكنها أن تقضى أيامًا دون أن تتحدث إلى أى شخص.

«كان ابن فريد بالطبع يتوقع نتيجة زواجه فى القرية، ولم يكن غافلاً عن تلك المشكلات؛ ولذلك السبب جلب من قرطبة حاشية كاملة من الجوارى لخدمة أسماء، وهو يعرف أن ولاءهن الأول سيكون لسيدتهن الجديدة. وجعل على رأس هؤلاء امرأة أكبر سنًا كانت قد خدمت عائلتنا لسنوات عديدة، ولكنها فرت أمام سلاطة لسان الجدة الكبيرة نجمة، فرحلت عن الدار وأصبحت غسّالة بالأجر فى القرية.

«كان لهذه المرأة ابن من رجل إما أنه كان بائع تين فى قرطبة أو أحد خدمنا الذين ماتوا فى حصارٍ ما قريبًا من «مالقة»... والله أعلم. كان صبيًا فطنًا للغاية، ألمّ ببعض العلم بفضل سخاء بنى هذيل. درس على المعلمين أنفسهم الذين علموا أبى وعمتى زهرة. ولكنه، على عكسهما، كان كثير القراءة ومطلعا على أعمال كبار علماء الفلسفة والتاريخ والرياضيات واللاهوت، بل والطب. كان يعرف الكتب الموجودة بمكتبتنا أفضل من أى فرد فى العائلة. كان اسمه محمد بن زيدون، وكان بهى الطلعة أيضًا.

أحبته عمتكم الكبيرة. كان ابن زيدون هو الذى انتشلها من حالة الاكتئاب، وحثها على كتابة الشعر، وعلى أن تفكر فى العالم الذى يقع فيما وراء هذا المنزل، بل وفيما وراء تخوم الأندلس. أوضح لزهرة ظروف زواج ابن فريد، وأقنعها بأنه لم يكن للسيدة أسماء أى ذنب، وهكذا نجح فى التوفيق بينهما.

«أعتقد أنه بسبب نجاح هذا الصبى الخادم فيما أخفق فيه ابن فريد إخفاقًا مريعًا، أن أصبح ابن فريد يُكن لابن زيدون نفورًا لا مزيد عليه. وفى إحدى المرات سمعوه يقول: «لو لم ينتبه هذا الصبى إلى ما يقول فلربما

؛امه الأمر عنقه». شرع فى معاقبة الفتى، بأن أصرَّ على أن يذهب للعمل فى الحقول، وأن يتعلم صنعة يدوية مثل كل الآخرين، واقترح أن يقوم والد ...ان بتعليمه النجارة، أو أن يقوم ابن حصد بتلقينه مهارات الإسكافيين. ؛انت حكمة الصبى أكبر من سنه. انتابه الغضب من سيده، ولكنه أدرك السبب وبدأ يتجنب المرور بالفناء الداخلى للدار. توسلت كل من زهرة وأسماء لابن فريد ألا يعامل الشاب بمثل تلك القسوة، وأعتقد أن جدتنا السيدة أسماء هى التى أفلحت فى إقناع جدى أن يسمح لابن زيدون بتعليم كل من زهرة وأبى مبادئ الرياضيات تعليمًا منهجيًا منظمًا.

«كان أبى نادرًا ما يحضر تلك الدروس، فأغلب الأوقات كان بالخارج يمارس الصيد، أو مقيمًا مع أسرتنا فى غرناطة. وهكذا كان محمد بن زيدون وزهرة بنت نجمة فى صحبة أحدهما للآخر كل يوم، وحدث ما كان لابد من أن يحدث...».

كانت عينا هند تلمعان بالإثارة.

«ولكن لماذا لم يهربا معًا وحسب؟ لو كنت مكانهما لفعلت ذلك».

«كل شىء بأوان يا هند. كل شىء بأوان. تجسدت مشكلة فى صورة امرأة أخرى كانت تماثل زهرة فى الحُسن، ولكنها كانت على عكس زهرة ابنة خادم عجوز، وتعمل كخادمة صغيرة. لا تختلف كثيرًا عن خادمتنا أميمة. كانت الصبية ذكية ذكاءً بالغًا، ولكن دون أى قسط من التعليم الرسمى، وكانت هى أيضًا تريد أن تتخذ من ابن زيدون زوجًا لها. بطبيعة الحال وجدها ابن فريد فكرة ممتازة، وأعطى أوامره لولى أمر كل منهما بحيث يرتبان للعرس. «جُن جنون زهرة. ربما ما كان علىّ أن أستخدم تلك الكلمة، لنقل: إنها صارت على حال من الاضطراب والبلبلة حين أخبرها ابن زيدون بما تمّ التخطيط له. أجبرته على أن يلتقى بها فى تلك الليلة فى بستان الرمان قبالة المنزل مباشرة...».

صاحت هند بالضحك، وكان ضحكها معديًا بحيث ابتسم

الجميع عدا زهير. تساءل والدها عن سبب ضحكها.

«بعض الأمور لا تتغير أبدًا، أليس كذلك يا أخى؟ تخيلهما يلتقيان فى بستان الرمان!».

تغير لون وجه زهير، وفَهِم أبوه التلميح فابتسم وحوّل الانتباه عن ابنه البكر بمواصلة حكاية زهرة.

«فى تلك الليلة تصرفا كما يتصرف الزوج والزوجة، وفى الصباح التالى ذهبت للجدة أسماء وأخبرتها بما كان. صعقت أسماء وقالت لها: إنه من المستحيل السماح لها بأن تتزوج من ابن خادمتها...».

«ولكن...» كانت هند على وشك أن تقاطع أباها حتى رأت تقطيبة وجهه فتوقفت. «نعم يا هند، أعلم، ولكن ليس هناك أى منطق يحكم مثل تلك الأمور. لم تكن أسماء تريد أن تكرر زهرة تجربتها. إنه تناقض بالطبع، ولكنه ليس أمرا نادر الحدوث، وسوف تتذكر والدتكم جيدًا أنه عندما تزوج العم الكبير رحيم الله بإحدى البغايا، تحولت تلك البغى وصارت الأكثر طهارة واستقامة من بين العمات، مخلصة لزوجها إخلاصًا تاما، لا تلين أو تتهاون فى موقفها من كبيرة الزنا وسائر الشرور. أفترض أنها إحدى النتائج التى أشار لها العالم الكبير ابن خلدون بوصفها أزمة تغير المواقع الاجتماعية. بمجرد أن يصعد المرء إلى أعلى درجات السلم الاجتماعى من أدنى درجاته، فلن يستطيع أن يمنع نفسه من النظر من علٍ نحو الأقل منه حظًا.

«لنعد إلى الحكاية. ذات ليلة وبينما كانت زهرة وابن زيدون مجتمعين فى مكانهما المفضل، لم يفطنا إلى أن غريمة زهرة كانت قد تبعتهما إلى هناك، وأنها كانت تراقب كل شىء. كل شىء. وفى الصباح التالى روت القصة كلها لابن فريد مباشرة، فلم يتشكك فى ما قالته ولو للحظة. لابد من أنه قد أحس أن نفوره من ابن الغسالة كان فى محله تمامًا. سمعوه يصرخ بأعلى صوته: «خمسون دينارا ذهبًا لمن يأتينى بذلك الصبى».

«أظن أنهم لو كانوا أمسكوا بابن زيدون فى ذلك اليوم لقام جدى ...ـه دون تردد. ولحسن حظ عاشقنا أنه كان قد أُرسل فى الصباح إلى ..املة لقضاء طلب. حين سمعت أمه بما ينتظر ابنها إن عاد، بعد أن ..ـها الجدة أسماء، أرسلت صديقًا من القرية ليحذره. اختفى ابن زيدون ..لم يكن. لم تقع عليه عين فى القرية مرة أخرى خلال حياة ابن فريد...».

تساءلت كلثوم بصوتها الناعم المطيع: «أبى، من كانت غريمة ..تنا الكبيرة؟».

«ولم السؤال يا بُنيتى، لقد ظننت أنكم قد تخمنون من هى بعد أحداث هذه الليلة. كانت "آمه"!».

صاح الأبناء الثلاثة معًا: «"آمه"!».

قالت زبيدة: «ششششش! ستأتى إلى هنا ركضًا لو سمعتكم تصيحون باسمها هكذا».

تبادلوا النظرات صامتين، وكانت هند أول من قطع الصمت.

«والعمة الكبيرة زهرة؟».

«استدعاها جدكم الكبير فى حضور زوجتيه الاثنتين، وقد توسلتا إليه أن يصفح عنها. أما زهرة نفسها فأبدت جسارة وجرأة. ربما يمكننا أن نسألها الآن، ولكن أمى أخبرتنى أن زهرة قالت: «لماذا يحق لك أنت دون سواك أنت تتزوج بمن تشاء؟ إننى أحب أسماء باعتبارها الزوجة التى اخترتها بإرادتك وباعتبارها صديقة لى على السواء. لماذا لا يمكنك أن تتقبل ابن زيدون؟»، وفى تلك اللحظة صفعها، فلعنته وظلت تكيل له اللعنات حتى شعر ابن فريد بالخجل من نفسه، ولكن ليس بالدرجة التى تجعله يصفح عنها، كل ما فعله هو أن أدار ظهره لها وخرج من الغرفة. فى اليوم التالى مباشرة غادرت هذا المنزل، ولم تعد إليه حتى ليلة الأمس. أما ما كانت تفعله فى قرطبة فالله أعلم به، وسيكون عليكم أن تسألوا فى ذلك شخصًا آخر غيرى».

بينما كان أبناء عمر بن عبد الله يتأملون الحكاية المأساوية لعمتهم الكبيرة، كان الأمر الذى تتهيأ له أفكارهم هو السماح ل"آمه" بالانصراف والخلود للنوم. حرصت زبيدة على تجنب أى ذكر لابن زيدون. لم تكن راغبة فى تقديم أية مبررات أو أعذار، فلقد تأخرت نصف قرن على كل حال. لقد مضى ذلك كله وانقضى، ولم تعد فى حقيقة الأمر تحتفظ بأية أحقاد. أمضت العجوزتان السهرة تتحدثان حول أحوال ضيعة بنى هذيل. كانت زهرة تريد أن تعرف كل شىء، ووجدت فى "آمه" الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يخبرها بكل شىء.

حكت لها "آمه"، دون أن تغفل صغيرة أو كبيرة، عن الظروف التى أحاطت بموت أخيها عبد الله، بعد أن ألقى به حصان من فوقه، الحصان نفسه الذى كان قد أشرف على استيلاده من سلالة كريمة، ودربه بعد ذلك بنفسه، ثم حكت لها كيف ماتت زوجته من بعده بعام واحد فقط.

«حتى وهو على فراش موته كان يفكر بك، وجعل ابنه الصغير عمر يقسم على المصحف بأن يحرص على إرسال الثياب والطعام إليكِ. لم يهن عليه غيابك أبدًا».

تنهدت زهرة وارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة.

«إن ذكريات طفولتنا كانت مجدولة بشدة كما تعلمين...».

ثم توقفت عن الحديث، كما لو أن ذكرى أخيها قد قادت إلى ذكريات الآخرين. تذكرت "آمه" الأيام القديمة حين رأت التعبير المرتسم على وجهها. حدثت "آمه" نفسها قائلة: لا شك أنها تراه الآن بعين خيالها، ليتها تتحدث عنه. ما الذى بقى الآن يستحق أن نخفيه؟

وكما لو أن زهرة قد قرأت أفكار غريمتها القديمة، قالت وهى تجاهد لتكون نبرتها طبيعية تمامًا: «وماذا كان من أمر محمد بن زيدون؟»، ولكن قلبها كان يخفق بقوة. «هل توفاه الله؟».

«كلا يا سيدتى. إنه حى. لقد غير اسمه. يدعو نفسه وجيد ... ويعيش على تلٍ يبعد عن هنا بضعة أميال. يزوره زهير بن عمر ...ام، ولكنه لا يعرف شيئًا عن ماضيه، ونرسل له هو أيضًا الطعام ... ل. بمجرد أن اكتشفنا هوية الرجل الذى انتقل للعيش فى ذلك ... على التل، أصرّ عمر بن عبد الله على أن نقوم بذلك. فى هذا الصباح نفسه قضى زهير بصحبته ساعات عديدة».

أثارت هذه الأنباء حماسة زهرة حتى أن دقات قلبها كانت أقرب إلى طلقات الرصاص فى أذنى "آمه".

«لابد من أن أنام الآن. سلام الله عليك يا أميرة».

«وعليك يا سيدتى. بارك الله فيك».

«أرجو ذلك، فالله قد حرمنى بركته منذ أمد بعيد يا أميرة».

غادرت "آمه" الغرفة ممسكة بالمصباح، وإذ توقفت بالخارج سمعت زهرة تقول شيئًا ما: أوشكت أن تعود إليها. ولكن كان من الواضح أن ابنة ابن فريد كانت تناجى نفسها بصوت مسموع. ظلت "آمه" منغرسة على البلاطة التى تقف عليها فى الفناء.

«المرة الأولى، أتذكرها يا محمد؟» كانت زهرة تحدث نفسها. «مثل برعم ...، الأعين تشع بوميض الأمل والقلوب تتوثب. لماذا لم تعد إلىَّ أبدًا؟».



الفصل الرابع

«ليس هناك سبيل آخر. إذا دعت الضرورة لابد لنا من أن ندع الإرادة الإلهية تكشف عن نفسها وتخرج من ظلمات السجون، وأن تصب نور الإيمان الحقيقى فى العقول الضالة لأولئك الكفرة. لقد جرب سلفى الشهير، الأخ تالافيرا، وسائل مختلفة وأخفق، وأنا شخصيًا أعتقد أن قرار طبع قاموس لاتينى - عربى لم يكن من الصواب فى شىء، ولكن ليل ما فيه الكفاية فى هذا الشأن. لقد انقضت تلك المرحلة ونشكر الرب على ذلك، وإننى على ثقة من أنه قد انقضى معها الوهم بأن الكفرة سوف ينضمون إلينا من خلال العلم والخطاب العقلانى.

مولاى يبدو مستاءً! إننى أعى تمامًا أن سياسة أخرى أخف وطأة قد تتفق مع لباقتنا الدنيوية، ولكنك سوف تعذر لى صراحتى الوقحة، إنّ ما على المحك الآن هو مستقبل آلاف الأشخاص، لا أقل من هذا ولا أكثر. أولئك الذين كلفتنى كنيستنا المباركة بإنقاذهم وحمايتهم. إننى على اقتناع بأنه إذا كان من غير الممكن اجتذابهم إلينا طواعية، فلابد من أن نقودهم تجاهنا بحيث يمكن لنا دفعهم دفعًا إلى سبيل الخلاص الحقيقى. إن بقايا الإسلام تزعزع أساساتهم، وليس فى الوقت متسع لأن نرفع أيدينا عنهم».

كان خيمينث دى سيسنيروس يتحدث فى حماسة ملتهبة. ما كان يثبط همته هو حقيقة أن الرجل الجالس على المقعد المواجه هو دون إنيجو لوبيز دى مندوثا، كونت تنديلا، والقائد العام لجرانادا وعمدتها، جرانادا التى يسميها العرب غرناطة، وقد تعمد دون إنيجو أن يرتدى لهذه

المقابلة تحديدا ثيابا موريسكية، وكان هذا الطراز من الزى يثير فى رئيس الأساقفة ضيقًا شديدًا.

«بالنسبة لزعيم روحىّ، فإن قداستكم تُبدون قدرة مميزة على خوض المسائل الدنيوية. هل أَنْعمت الفكر فى هذه المسألة بجدية؟ لقد وافق ملوكهم على شروط معاهدة الاستسلام، التى وضعتُ صيغتها بنفسى، ألم يفعلوا أيها الأب؟ لقد كنتُ حاضرًا حين قدم سلطانهم لملكتنا خضوعه رسميًا، وقد اتفقنا على أن ندعهم يعيشون فى سلام، وما زال الأخ تالافيرا يحظى باحترام كبير فى حى البيازين؛ لأنه التزم الشروط المتفق عليها.

«سأكون صريحا لدرجة الوقاحة يا سيدى رئيس الأساقفة. حتى وقت وصولك إلى هنا لم تواجهنا مشكلات خطرة فى هذه المملكة، لقد أخفقتَ فى التغلب عليهم بقوة الحجة والمساجلة والآن ترغب فى اللجوء لأساليب محاكم التفتيش».

«عليك بالأساليب العملية يا سيدى. إنها وسائل مُجربة ومُختبرة».

«نعم، مُجربة ومُختبرة على الكاثوليك ممن أردتَ الاستيلاء على ممتلكاتهم وضياعهم، ومُجربة ومُختبرة على اليهود الذين لم يحكموا مملكة أبدًا، واشتروا حريتهم بدفع الدوكاتيات الذهبية وتحولوا إلى ديننا. الوسائل نفسها لن تجدى هنا فتيلا. إن أغلب من نسميهم بالموريسكيين هم من قومنا نحن، مثلى ومثلك تمامًا، وقد حكموا أجزاءً هائلة من شبه جزيرتنا. حكموا دون إحراق هذا العدد الهائل من كتبنا المقدسة أو هدم كنائسنا كلها، كما لم يضرموا النيران فى معابد اليهود بغرض إقامة مساجدهم مكانها. إنهم ليسوا ظاهرةً عابرةً بلا جذور. ليس بالإمكان محوهم بضربة سوط، ولسوف يقاومون، وسوف يسفك المزيد من الدم، دمهم ودمنا».

حدق سيسنيروس فى الكونت باحتقار محض. لو أن من يخاطبه الآن كان أى شخص آخر من نبلاء المملكة، لأعلن رئيس الأساقفة فى وجهه صراحة أن دماءه لابد من أن تكون قد اختلطت وتلوثت بجرعة

.. الدم الإفريقى. غير أن هذا الشقى لم يكن مجرد نبيل عادى، كانت ءالله من أبرز عائلات البلاد، وقد تباهت بأبنائها من الشعراء والحكام المحاربين فى خدمة الدين الحقيقى، فقد قام آل مندوثا بتوظيف علماءِ الأنساب لتتبع سلالتهم حتى ملوك القوط الغربيين. لم يقتنع بعد سيسنيروس بهذه الجزئية الأخيرة، ولكن شجرة العائلة كانت مقنعة بما فيه الكفاية، ولو بدون روابط مع القوط الغربيين. كان سيسنيروس يعرف العائلة خير معرفة، بل إنه هو نفسه كان من رعايا الكاردينال مندوثا صاحب السلطان على الملوك أنفسهم. على كل حال، كانت البلاد كلها تعلم بحقيقة أن عم القائد العام، بصفته كاردينال ورئيس أساقفة إشبيلية، قد عاون إيزابيلا على الغدر بابنة شقيقها واغتصاب عرش قشتالة فى عام ١٤٧٨. وبالتالى فقد حظيت عائلة مندوثا بمنزلة رفيعة للغاية عند الملك والملكة الحاليين.

كان سيسنيروس يعرف أن عليه التزام الحرص، ولكن الكونت كان هو الذى تجاوز القواعد التى تحكم العلاقات بين الكنيسة والدولة. قرر أن يحتفظ بهدوئه، ستحين له فرص أخرى لمعاقبة غرور هذا الرجل. تحدث سيسنيروس بأرق نبرة صوت يمكنه استدعاؤها عند الضرورة. «هل تتهم محكمة التفتيش يا سيّدى بوقوعها فى الفساد على أوسع نطاق؟».

«وهل ذكرتُ أنا كلمة الفساد؟».

«كلا، ولكن مضمون كلامك...».

«مضمون، أى مضمون؟ إننى بالكاد أشرت، يا عزيزى الأخ سيسنيروس، إلى أن محكمة التفتيش تجمع ثروة فاحشة من أجل الكنيسة. إن الممتلكات المصادرة وحدها يمكنها أن تموّل ثلاثة حروب على الأتراك، أليس كذلك؟

«وكيف يمكن لسيادتكم أن تتصرفوا فى الممتلكات؟».

«بل أخبرنى أنت أيها الأب الموقر، أليست القضية على الدوام هى

أن أبناء من تزعمون أنهم مهرطقون، مدانون أيضًا؟».

«إننا نسلم بأن ولاء أفراد الأسرة الواحدة يكون لبعضهم بعـ
فى المقام الأول».

«إذن فالمسيحى الذى كان أبوه مسلمًا أو يهوديًا لن يكون أبدًا محل ثقـ

«لعل: كلمة أبدًا مفرطة الشدة».

«وكيف إذن أصبح توركيمادا، ونسبه اليهودى معروف جيـ
رئيسًا لمحكمة التفتيش نفسها؟».

«لكى يثبت ولاءه للكنسية كان عليه أن يكون أشد يقظة وحر
من سليل أسرة نبيلة يمتد نسبها إلى ملوك القوط الغربيين».

«بدأت أفهم منطقك. حسنًا! وليكن ما يكون، لن أُعرّ
الموريسكيين للمزيد من المهانة والإذلال. لقد فعلتَ ما فيه الكفاية. لـ
كان إحراق كتبهم عارًا كبيرًا، لطخة لوثت شرفنا. مخطوطاتهم فى العلـ
والطب لا نظير لها فى العالم المتحضر».

«لقد تم استثناؤها».

«كان تصرفًا همجيًا أيها الرجل، هل عميت لدرجة ألا تفهم هذا؟

«وحتى الآن لم تقم سيادتكم بإلغاء أوامرى».

جاء دور دون إنيجو هذه المرة لكى يحدق فى القس بغضب. جا
التوبيخ فى محله تمامًا، كان جبنا من جانبه... جبنا محضًا. أبلغه أحد رجا
البلاط، وكان قد وصل قريبًا من إشبيلية بأن الملكة قد أرسلت تعليما
سرية إلى رئيس الأساقفة تضمنت الأمر بتدمير المكتبات. ولكنه يعر
الآن أن ذلك كان تلفيقًا لا أساس له. تعمد سيسنيروس تضليل رجـ
الحاشية ذاك، وشجعه على إبلاغ القائد العام بالمعلومات الزائفة. يعر
دون إنيجو أنه خُدع، ولكنه عذر أقبح من ذنب. كان عليه أن يعارض
الأمر ويبطله، ويرغم سيسنيروس على إظهار تلك الرسالة المزعومة مـ
إيزابيلا. كان القس يبتسم ناظرًا إليه. حدث الكونت نفسه قائلاً: «هـا

الرجل هو الشيطان ذاته، يبتسم بشفتيه وليس بعينيه أبدًا».

«رعية واحدة وراعٍ واحد يا مولاى، ذلك ما تحتاج إليه هذه البلاد لتعبر من العواصف التى تواجه كنيستنا فى العالم الجديد».

«إننى أغبطك يا رئيس الأساقفة على عدم إدراكك حظك الطيب. لولا اليهود والموريسكيون، الأعداء الطبيعيون الذين عاونوك على الاحتفاظ بالكنيسة بلا انقسام أو شقاق، لأشعل المهرطقون المسيحيون جحيمًا من الفوضى والدمار فى شبه الجزيرة. لا أريد أن أفاجئك بهذا، فهى ليست بالفكرة العويصة عليك. ظننت أنك سوف تتوصل إليها بنفسك».

«سيادتكم مخطئون. إنه دمار اليهود والموريسكيين الذى يتوجب علينا حماية كنيستنا منه».

«كلانا على صواب مع اختلاف الطرق. ثمة أشخاص كثيرون ينتظرون مقابلتى. علينا أن نستأنف هذا الحديث يومًا آخر».

بهذه الطريقة الفجة أبلغ كونت تنديلا خيمينث دى سيسنيروس بأن المقابلة قد انتهت. نهض القس وانحنى. وقف دون إنيجو ورآه سيسنيروس يتألق فى ثيابه الموريسكية. أجفل القس منكمشًا.

«أرى أن ثيابى تسوؤك بقدر ما تسوؤك أفكارى».

«ولكن هذه تتلاءم مع تلك يا مولاى».

انطلق القائد العام يقهقه. «إننى لا أنكر عليك ارتداء قلنسوة الرهبان، فلماذا تضايقك ثيابى؟ إنها توفر راحة أكثر من ثياب البلاط، الأمر وكأننى قد دفنت حيًا بداخل تلك المشدات والسترات المزدوجة المحكمة، التى يبدو أن الغرض الوحيد منها هو أن تضيق الخناق على أهم أعضاء الجسم مما أنعم به الرب علينا. أما هذا الرداء الذى أرتديه فهو مصممٌ ليمنح أجسادنا الراحة، وهو لا يختلف كثيرا عن قلنسوتك كما قد تخيل. لقد صممت هذه الثياب ليتم ارتداؤها فى الحمراء. فأى شىء آخر سوف يتعارض مع ألوان تلك الزخارف الهندسية المعقدة. بالطبع حتى

أنت تقدر ذلك أيها الأخ. أعتقد أن هناك الكثير الذى يمكن قوله بـ
التواصل مع الخالق مباشرة، دون وساطة من صور منحوتة، ولكننى أ
أقع فى التجديف، ولا أريد أن أزعجك أو أؤخرك أكثر من هذا....».

التوت شفتا الأسقف بابتسامة خُبث. غمغم بشىء ما من
أسنانه. وانحنى ثم غادر الغرفة. نظر دون إنيجو من النافذة. أسـ
القصر كان يقع البيازين، الحى القديم حيث عاش المسلمون واليهـ
والمسيحيون، واختلطوا وتاجروا على مدى قرون. كان القائد العـ
مستغرقًا فى تأملاته حول الماضى والحاضر، حين سمع سعلة حذر
والتـفت فرأى كبير خـدمه اليهـودى بن يوسف، حاملاً صينية عل
قدحان من الفضة وإناء مماثل لهما يحتوى القهوة.

«اعذر تطفلى يا سيدى، ولكن ضيفك ينتظر له أكثر من ساعة»

«بحق السماء! أدخله يا ابن يوسف فى الحال».

انسحب الخادم و عاد وهو يتقدم عمر إلى غرفة المقابلات.

«السيد عمر بن عبد الله يا مولاى».

ألقى عمر بالتحية التقليدية على دون إنيجو.

«السلام عليك يا دون إنيجو».

تحرك كونت توندِيلا نحو ضيفه بذراعين مفتوحتين وضمه إليه

«أهلاً وسهلاً يا دون هومير. كيف حالك يا صديقى القديم؟ لا
مكان للرسميات بيننا، استرح من فضلك».

فى هذه المرة جلس دون إنيجو على الحشايا الموضوعة بالقرب مـ
النافذة وطلب من عمر أن ينضم إليه هناك. صب كبير الخدم القهوة وقدمـ
للرجلين. أومأ له سيده فانسحب متراجعًا خارج الغرفة. ابتسم عمر.

«يسرنى أنك محتفظ به فى خدمتك».

«إنك لم تقطع كل هذه الطريق لكى تثنى على اختيارى لخدمى
دون هومير».

كان عمر ودون إنيجو يعرفان بعضهما بعضًا منذ أن كانا طفلين. تقاتل جَدَّاهما الأكبران فى معارك أسطورية أصبحت منذ عهد بعيد جزءً من الموروث الشعبى للناس فى الجهتين، ثم أصبح البطلان صديقين حميمين، وبدآ يتبادلان الزيارة بانتظام. كان الجدان الكبيران يعرفان مغارم الحرب، ويتسلون للغاية بالخرافات التى تُنسج حول اسميهما.

فى الأعوام السابقة على ١٤٩٢ كان إنيجو يطلق على صديقه اسم هومير، لا لشىء إلا لما يجده من صعوبة فى حرف العين العربى. أما استخدام اللقب «دون» فأحدث عهدا. ويمكن أن يرجع بدقة إلى تاريخ سقوط غرناطة. لا جدوى من الشعور بالإساءة أو الامتعاض. كان عمر فى دخيلته يعرف أن دون إنيجو لم يعد صديقه، وحدثه عقله بأن دون إنيجو يشعر نحوه بالشعور نفسه. لم يلتق الرجلان منذ شهور. هذا الأمر المؤسف كله لم يكن سوى تمثيلية، غير أنه لابد من الحفاظ على المظاهر. لا يمكن الإقرار بأن مروءة وأخلاق الفرسان قد ذرتها رياح الهزيمة وحرب الاسترداد.

كان هناك حرص على العلاقات الحميدة عبر التبادل المنتظم للفواكه والحلوى فى أيام الأعياد الخاصة بكل منهما. ولكن عيد الميلاد الأخير كان الاستثناء الوحيد، فلم يصل أى شىء إلى مسكن القائد العام فى قصر الحمراء من قِبَل عائلة الهذيل. تألم دون إنيجو لذلك غير أنه لم يفاجأ فقد سبق جدار النار عيد ميلاد المسيح بأسابيع معدودة. ولم يكن ابن عمر هو المسلم الوحيد من علية القوم الذى قاطع الاحتفالات.

أرسل دون إنيجو فى طلب صديقه القديم، رغبة واضحة منه فى رأب الصدع الذى اتسع الآن فيما بينهما. وها هو الآن، كما كان فى الأيام الخوالى تماما، يحتسى قهوته بينما يتأمل الزخارف النباتية المنقوشة حول النافذة. عدا أنه فى تلك الأعوام الماضية، كان عمر يجلس بين يدى السلطان أبى عبد الله بصفته عضوًا فى مجلسه، يقدم المشورة للحاكم فيما

يخص علاقات غرناطة بجيرانها المسيحيين.

«أعرف سبب غضبك يا دون هومير. كان عليك أن تبقى بمنزلك فى تلك الليلة. ما الذى قاله جدك لى ذات مرة؟ آه، نعم! إنى أتذكر. قال: البعيد عن العين بعيد عن القلب. أريدك أن تعرف أن القرار لم يكن قرارى. كان سيسنيروس، رئيس أساقفة الملكة، هو الذى قرر إحراق كتبكم فى المعرفة».

«إنك القائد العام لغرناطة يا دون إنيجو».

«نعم، ولكن كيف لى أن أتحدى إرادة الملكة إيزابيلا؟».

«بأن تذكرها بالشروط التى وقعتها هى وزوجها فى هذه الغرفة نفسها، بحضورك وحضورى، قبل أكثر من ثمانية أعوام. بدلاً من ذلك التزمتَ الصمت وحولتَ بصرك، حين كان يتم ارتكاب أكبر فاحشة فى جبين العالم المتحضر بهذه المدينة. إن التتار الذين أحرقوا ودمروا مكتبة بغداد قبل ما يزيد عن قرنين من الزمان، لم يكونوا سوى همجيين وجهلة، تثير الكلمة المكتوبة فيهم الذعر، وهكذا فقد كان تصرفًا غريزيًا منهم. أما ما فعله سيسنيروس فكان ألعن وأضل سبيلاً. إنها جريمة ارتكبت بدم بارد، وبتخطيط وتدبير...».

«إننى...».

«نعم! أنت! لقد هوت كنيستك بالفأس على أصل الشجرة التى أظلت الجميع دون تفرقة. تعتقدون أن هذا فى صالحكم. ربما، ولكن لكم من الزمن؟ لمئة عام؟ لمئتين؟ أمر وارد، ولكن على المدى البعيد سوف تنهار هذه الحضارة الضعيفة. سوف تستولى عليها بقية أوروبا. إنك تدرك بالتأكيد أن مستقبل شبه الجزيرة هذه قد تداعى. الرجال الذين يضرمون النار فى الكتب، ويعذبون معارضيهم، ويحرقون المهرطقين على الخازوق لن يكونوا قادرين على بناء منزل راسخ الأساس. سوف تحل لعنة الكنيسة بشبه الجزيرة هذه».

شعر عمر بأنه فقد السيطرة على نفسه، فتوقف فجأة ولاحت على وجهه ابتسامة واهنة.

«سامحنى. لم آت إلى هنا لألقى موعظة. من الوقاحة دائمًا أن يلقى المقهورون خطبًا على قاهريهم، وإن كنت تريد الصدق فقد جئت لكى أبين خططك بشأن التعامل معنا».

نهض دون إنيجو وأخذ يسير جيئة وذهابًا فى غرفة المقابلات الواسعة. كان أمامه خياران، بوسعه أن ينثر مجموعة من الكلمات المعسولة ويهدئ من روع صديقه، يؤكد له أنه أيًا كان ما حدث أو لم يحدث، فإن بنى هذيل ستكون لهم الحرية على الدوام فى أن يعيشوا كما كانوا دائمًا. كان ليسره لو أنه قال ذلك كله وأكثر، ولكنه كان يعرف أن ذلك غير صحيح، حتى ولو تمنى أن يكون صحيحا. سوف يجعل عمر أشد غضبًا، بما أنه سيراه مثالاً آخر على خداع المسيحيين، فقرر الكونت التخلى عن الدبلوماسية.

«سأكون صريحًا معك يا صديقى. إنك تعرف ما أميل إليه، فأنت ترى كيف ألبس. تتألف حاشيتى من يهود ومسلمين، بدونهما غرناطة، بالنسبة لى مثل صحراء بلا واحة، ولكننى أقف وحدى. لقد قررت الكنيسة والعرش محو دينكم من هذه البلاد إلى الأبد، ولديهما من الجند والسلاح ما يكفل تحقيق ذلك. أعرف أنه سوف تكون هناك مقاومة، ولكنها ستكون حماقة وتدميرًا من الداخل لقضيتكم، وفى نهاية الأمر سوف نتغلب عليكم. سيسنيروس يفهم ذلك أفضل من أى شخص آخر فى جانبنا. أكنتَ تريد أن تقول شيئا ما؟».

«لو أننا ضربنا بيد من حديد فى تعاملنا مع المسيحية كما تفعلون أنتم معنا الآن، فلربما ما كان لهذا الوضع أن يكون بالمرة».

«إنك تنعق مثل البوم بعد الخراب. لقد حاولتم بدلا من ذلك أن تنشروا الحضارة فى شبه الجزيرة بكاملها، بصرف النظر عن الأديان أو

العقائد. كان ذلك نبلا منكم والآن يجب عليكم أن تدفعوا الثمن. كان لابد من أن تنتهى الحرب عاجلاً أو آجلاً، ومعها يظهر النصر النهائى لفريق والهزيمة الساحقة لفريق آخر، ونصيحتى لعائلتك أن تتحولوا فى الحال. إذا فعلتم فإننى أتعهد لكم شخصيًا بالحضور، بل وأن أجر سيسنيروس معى جرًا إلى ضيعتكم لمباركتكم جميعًا. ستكون تلك هى أفضل حماية يمكننى أن أقدمها لعائلتك ولقريتك. لا تعتبرها إساءة يا صديقى. قد أبدو متشائمًا، ولكن فى النهاية، المهم بالنسبة لك ولكم أن تبقوا أحياء ومالكين للضياع والممتلكات التى ظلت عائلتك تتوارثها لأمد طويل. أعرف أن أسقف قرطبة قد حاول إقناعك أيضًا، ولكن...».

نهض عمر وقدم التحية لدون إنيجو.

«إننى ممتن لصراحتك. أنت صديق حقيقى. ولكننى لا أستطيع قبول ما تقوله. عائلتى غير مستعدة أن تقسم يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو أية كنيسة أخرى. لقد فكرت بالأمر مرات عديدة يا دون إنيجو. حتى إننى فكرت فى القتل. لا تجفل، لقد حاولت أن أقتل ماضينا، أن أتخلص من الذاكرة تمامًا مرة وإلى الأبد، غير أن الذكريات مخلوقات عنيدة، ترفض أن تموت. يراودنى شعور يا دون إنيجو أنه لو كان حكامنا هم الذين طلبوا ذلك لما اختلف جوابك كثيرًا عن جوابنا».

«لست متأكدًا من هذا. انظر إلىَّ وحسب، أظن أن بوسعى أن أكون مسلمًا لا بأس به. كيف حال صغيركم يزيد؟ كنت أتمنى لو أنك أحضرته معك».

«لم يكن الوقت ملائمًا لذلك، والآن أستأذنك فى الانصراف. السلام عليك يا دون إنيجو».

«إلى اللقاء يا دون هومير، من جانبى أرجو أن تدوم صداقتنا».

على الرغم من أن عمر ابتسم، فإنه لم يقل شيئا وهو يغادر الغرفة. كان جواده وحارسه بانتظاره خارج جنة «العريف»، تلك

الحدائق الصيفية التى التقى فيها بزبيدة لأول مرة، لكن عمر لم يكن فى مزاج يسمح باسترجاع الماضى والحنين إليه. كانت رسالة مندوثا الجازمة ما زالت تتردد فى أذنيه. لم يجذب انتباهه حتى خرير المياه بينما كان يقترب من الحدائق اليوم. حتى أسابيع قليلة مضت، كان ما زال يفكر فى غرناطة باعتبارها أرضًا محتلة قد تتحرر من جديد فى الوقت المناسب. ما أن يتورطوا فى حرب أخرى سيكون ذلك هو الوقت الملائم لأن نضرب نحن ضربتنا. أى شىء آخر لابد من أن يخدم هذا الهدف. كان ذلك هو ما قاله عمر لرفاقه من وجهاء المسلمين خلال لقاءات عديدة منذ استسلام المدينة.

غير جدار النار ذلك كله، والآن جاء القائد العام ليؤكد له أسوأ مخاوفه. لا يكتفى عبدة الأيقونات بوجود عسكرى بسيط فى غرناطة. كان من السذاجة أن نتخيل أنهم سوف يلتزمون بالاتفاقيات أصلاً. يريدون أن يحتلوا العقول وأن يخترقوا القلوب وأن يعيدوا سبك الأرواح، ولن يهدأ لهم بال حتى ينجحوا.

غرناطة، التى كانت الملاذ الآمن للمسلمين فى الأندلس ذات يوم، أصبحت الآن محرقة خطرة.

حدث عمر نفسه قائلاً: «إن بقينا هنا فسوف ينتهى أمرنا».

لم يكن يفكر فى بنى هذيل فقط، ولكن فى مصير الإسلام بالأندلس. أما حارسه الذى كان يراه على البعد مندهشا لقصر وقت المقابلة، فركض إلى بوابة الحديقة ومعه سيف سيده وغدارته. وبينما كان ما زال مستغرقًا فى أفكاره، امتطى عمر جواده نحو الإسطبلات حيث ... ل عن صهوته من جديد، ثم ترجل وسار بضع مئات من الياردات حيث يوجد القصر المألوف المريح لابن عمه هشام فى الحى القديم.

بينما كان والده فى قصر الحمراء، أمضى زهير النهار فى الحمام العام مع أصدقائه. وبعد أن نظفوا أجسادهم بالبخار، راح خدم الحمام يعتنون

بهم، يفركونهم جيدًا بإسفنج قوى وبالصابون، قبل دخولهم إلى الحمام، حيث يصبحون بمفردهم. هنا يسترخون ويبدءون فى البوح بالأسرار أبدى أصدقاء زهير إعجابهم بالندب الصغير على كتفه.

كان هناك أكثر من ستين حمامًا مماثلاً فى غرناطة. كانت فترة ما بعد الظهر مخصصة للنساء، فلم يعد أمام الرجال خيار إلا الاستحمام في الصباح. أما الحمام الذى يوجد فيه زهير اليوم فقد كان، وفقًا للتقاليد، مقصورًا على استخدام الشباب من علية القوم وأصدقائهم. فى بعض المناسبات، وخصوصًا خلال الصيف، كانت تأتى جماعات مختلطة وتستحم بدون وجود الخدم، على ضوء القمر، ولكن مثل تلك المرات أصبحت نادرة ويبدو أنها انتهت تمامًا بعد سقوط المدينة.

فى الأيام الخوالى، قبل سقوط غرناطة، كان الحمام هو مركز النميمة والشائعات الاجتماعية والسياسية، وغالبًا ما كان يتطرق الحديث إلى المغامرات والمآثر الجنسية، وأحيانًا يُقرأ الشعر الماجن ويُناقش وخصوصًا فى جلسات ما بعد الظهيرة. الآن لا يكاد شىء يتغلب على حديث السياسة – آخر سلسلة الفظائع المرتكبة، أى الأسر قد تحولت، من قام بعرض مالٍ لرشوة الكنيسة، وبالطبع تلك الليلة المشؤومة التى أحرقت فيها الذاكرة الجماعية لهم، التى جعلت حتى هؤلاء الذين أعربوا فيما سبق عن لا مبالاة تامة بأمور السياسة ينشغلون بها ويدلون بدلوهم فيها.

كانت حرارة المناقشات السياسية فى حمام زهير قد هدأت. لقى ثلاثة فقهاء آخرون حتفهم تحت وطأة التعذيب قبل يومين. بدأ الخوف يفعل فعله، واصطبغ المزاج العام باليأس والتسليم بالقضاء والقدر. ظل زهير يستمع فى نفاد صبر إلى أصدقائه، كانوا كلهم ينحدرون من الطبقة الأرستقراطية المسلمة فى غرناطة، إلى أن رفع صوته فجأة قائلاً:

«الخيارات بسيطة وواضحة. أن نتحول أو أن نقتل، أو أن نموت وسيوفنا فى أيدينا».

كان موسى بن على قد فقد شقيقين له خلال الفوضى التى عمت قبل دخول فردناند وإيزابيلا إلى المدينة، وكان والده قد مات مدافعًا عن قلعة «الهامة»، الواقعة غرب غرناطة، وتتشبث أمه به باستماتة تثير ضيقه الشديد، ولكنه كان يعلم أنه لا يستطيع أن يتجاهل مسؤوليته نحوها ونحو شقيقتيه. كلما كان يتكلم، وهو ما لم يكن يحدث كثيرا، كان الآخرون يستمعون إليه فى صمت جليل.

«الخيارات التى عرضها أخونا زهير بن عمر صحيحة، ولكنه فى تعجله نسى أن أمامنا بديلا آخر، وهو البديل الذى اختاره السلطان أبو عبد الله. نستطيع مثله أن نعبر البحر، ونجد لنا موطنًا على ساحل المغرب. لا أخفى عليكم أن هذا ما تريدنا والدتى أن نفعله».

برقت عينا زهير بالغضب.

«لماذا يتوجب علينا أن نذهب إلى أى مكان؟ هذه ديارنا. عائلتى هى التى بنت الهذيل، التى لم تكن إلا أرضًا قاحلة قبل مجيئنا. بنينا القرية، روينا الأراضى وزرعنا البساتين. البرتقال والرمان والليمون والنخيل والأرز. لست من البربر، ولا شأن لى بالمغرب. سأعيش فى دارى، والموت لأى كافر يحاول أن يغتصبها عنوة منى».

ارتفعت درجة الحرارة فى الحمام ارتفاعًا هائلاً، وهنا تنحنح شاب مبديًا رغبة فى الحديث. كان وجهه منحوتًا جيدًا، وبشرته بلون زيتونى شاحب، ولعينيه لون الرخام الأخضر. لا يمكن أن يتجاوز عمره الثمانية عشر أو التاسعة عشر عامًا. تطلعوا جميعًا إليه. كان وافدًا جديدًا على المدينة، وصل من «بالنسيه» قبل أسابيع قليلة، وقبل «بالنسيه» كان قد جاء من الأزهر فى القاهرة. كان قد جاء بغرض إجراء بعض الأبحاث التاريخية عن حياة وأعمال جده الكبير العالم الجليل ابن خلدون، ودراسة بعض المخطوطات فى مكتبات غرناطة. من سوء طالع مشروعه، أنه كان قد وصل فى اليوم ذاته الذى اختاره سيسنيروس لإحراق الكتب.

انفطر قلب صاحب العينين الخضراوين، وظل يبكى طوال الليل بغرفته الضيقة بفندق الياديدا. بطلوع النهار كان قد استقر على المسار الذى سوف يتخذه خلال ما تبقى من حياته. كان يتحدث بنبرة رقيقة، ولكن سرعان ما فتن رفاقه المستحمين بتلك الموسيقى فى لهجته القاهرية وبما تضمَّنَتْهُ رسالته.

«عندما رأيت ألسنة اللهب فى باب الرملة تلتهم عمل قرون، ظننت أن كل شىء قد انتهى. كان يبدو لى وكأن الشيطان قد أقحم قبضته المسمومة فى قلب الجبل وحول مجرى النهر. كل ما زرعناه كان ملقى هناك ذاويا وميتًا. الزمن نفسه أصابه الشلل، وهنا فى الأندلس، كنا بالفعل على الجانب الآخر من الجحيم. ربما يتوجب على أن أحزم أمتعتى وأعود أدراجى إلى الشرق...».

قال زهير: «لن يلومك أحدنا لو فعلت. لقد أتيت إلى هنا لتدرس، ولكن لا يوجد ما يمكنك دراسته عدا الخواء. سيكون من الأصلح لك أن تعود إلى الأزهر».

أضاف موسى: «إن صديقى يقدم لك نصيحة حكيمة. كلنا الآن عاجزون ليس لدينا ما نفخر به سوى مآثر آبائنا».

قال زهير: «فى هذا أختلف معك، وحده من يقول «هٰأنذا» وليس «كان أبى وكان جدى» هو من يمكن اعتباره نبيلا وشجاعًا».

ابتسم الشاب ذو العينين الخضراوين.

«أتفق مع زهير بن عمر. لماذا يتوجب عليكم، يا من كنتم فرسانًا وملوكًا، أن تهجروا قلاعكم وتتركوها للعدو وتصبحون مجرد بيادق؟ فلتمزقوا ستائر الريبة ولتواجهوا المسيحيين. إن سيسنيروس يتصور أنه لم تعد لكم طاقة على القتال. سوف يظل يضغط عليكم ويدفعكم أكثر فأكثر نحو الحافة، وعندئذ وبدفعة واحدة أخيرة سوف يراقبكم وأنتم تسقطون فى هاوية بلا قرار».

«لقد قال لى بعض الأصدقاء فى «بالنسيه» إن محاكم التفتيش فى البلاد كلها تعد العُدة لتسديد ضربة قاضية. قريبًا سوف يحرمون علينا لسانا. ستكون اللغة العربية جريمة عقوبتها الموت. لن يسمحوا لنا بارتداء ثيابنا الخاصة، كما يقال: إنهم سوف يهدمون كل حمام عمومى فى البلاد. سوف يحظرون موسيقانا وحفلات زفافنا وديننا. كل ذلك وأكثر منه سوف يسقط فوق رؤوسنا خلال سنوات معدودة. لقد تركهم أبو عبد الله يستولون على هذه المدينة دون قتال، ولم يكن ذلك إلا خطأ كبيرا منحهم ثقة مفرطة».

تساءل زهير: «وماذا تقترح، أيها الغريب؟».

«يجب ألا ندعهم يظنون أن ما فعلوه بنا مقبول. لابد من أن نستعد للثورة عليهم».

لدقيقة لم يتحرك لهم ساكن. جعلتهم كلماته يتجمدون كلهم فى أماكنهم، لم يقطع أفكارهم ومخاوفهم إلا خرير المياه المتدفقة عبر الحمام. ثم أقدم موسى على تحدى الطالب المصرى الشاب تحديًا مباشرًا.

«إذا ما اقتنعت بأن الثورة على سيسنيروس وشياطينه قد تفلح وتمكننا من أن نقلب ولو صفحة واحدة فى التاريخ لكنت أنا أول المضحين بحياتهم، ولكننى ما زلت غير مقتنع بكلامك البليغ. ما تقترحه مبادرة كبرى سوف تظل تتردد فى القادم من الزمان. لماذا؟ من أجل أى شىء؟ أى خير سينجم عنها فى نهاية المطاف؟ إن المبادرات والكلمات الكبيرة كانت هى لعنة عقيدتنا منذ البداية».

لم يرد أحد على اعتراضات موسى، وعندما شعر بأنه قد تغلب الآن على القاهرى، مضى بمساجلته خطوة أخرى للأمام.

«إن المسيحيين يصطادون حيوانات مختلفة بوسائل مختلفة فى مواسم مختلفة، ولكنهم بدأوا يصطادوننا طوال مواسم العام. أوافق على أننا يجب ألا ندع أرواحنا يأكلها الخوف، ولكن يجب أيضًا ألا نضحى

بأنفسنا سُدى. علينا أن نتعلم من اليهود كيف نعيش فى ظروف شا...
الصعوبة. ما زال هناك مسلمون يعيشون فى «بالنسيه»، أليس كذلك
وحتى فى آراجون؟ اسمعوا يا أصدقائى أنا لست مع أى حماقة».

قال زهير لصديقه غاضبًا:

«هل ستتحول إلى المسيحية يا موسى، فقط من أجل أن تعيش؟»

«ألم يفعل اليهود ذلك عبر البلاد من أجل الحفاظ على ممتلكاتهم؟
لم لا نحذو حذوهم؟ دعهم يضيقون الخناق علينا كما يشاؤون. سو...
نتعلم سُبلاً جديدة للمقاومة. هنا برؤوسنا».

تساءل حفيد ابن خلدون: «بدون لغتنا أو كتب علومنا؟».

نظر موسى نحوه متنهدا: «هل صحيح أنك من نسل المعلم ابن خلدون؟»

ابتسم ابن داوود وأومأ برأسه.

واصل موسى: «إذن فأنت بالتأكيد تعرف خيرا منا ذلك التحذ...
الذى وجهه سلفك الجليل لرجالٍ على شاكلتك. قال: إن العلماء من...
كل الرجال هم الأقل صلاحية لأمور السياسة ودهاليزها».

ابتسم ابن داوود ابتسامة خبيثة. «لعل ابن خلدون كان يـ...
إلى تجاربه التى لم تكن سعيدة كل السعادة، ولكن بكل تأكيد مهما ...
فيلسوفًا عظيمًا، يجب ألا نعامله وكأنه نبى يوحى إليه ولا ينطق ...
الهوى. السؤال المطروح عليكم سهل: كيف يمكننا الدفاع عن ماضـ...
وعن مستقبلنا ضد أولئك البرابرة؟ إذا كان لديك حل أفضل، فأرجو...
أن تفصح عنه وأن تقنعنا به».

«لا أملك كل الأجوبة يا صديقى، ولكننى أعرف أن ما تنصـ...
به خطأ».

بتلك الكلمات خرج موسى من الحمام وصفق بيديه. هرع إلـ...
بعض الخدم بمناشف وبدأوا يجففون جسمه. حذا الآخرون حذوه،
وتجمعوا من جديد بالغرفة المجاورة، حيث كان الخدم بانتظارهم بأثوا...

ليلة. قبل انصرافهم، احتضن موسى زهيرًا وهمس فى أذنه: «قد يوجد لديك اسم لى أطيب الشراب».

لم يأخذ زهير كلام صديقه على محمل الجد. فهو يعرف ضغوط الحياة اليومية التى تثقل كاهل موسى، وتفهم موقفه، لكن ذلك لم يكن سببًا وجيهًا للتخاذل والجبن حين يصبح كل شىء على المحك. لم يشأ زهير أن يتشاحن مع صديقه، ولا استطاع الاعتصام بالصمت وكبح أفكاره. التفت نحو الغريب.

«بأى اسم يمكننا أن نناديك؟».

«ابن داوود المصرى».

«أود أن أتحدث إليك أكثر من ذلك. لم لا نعود معًا إلى غرفتك؟ أساعدك فى حزم أمتعتك ثم نجد لك جوادًا لتعود معى إلى بنى هذيل. توكل على الله، وربما عثرت على بعض مخطوطات ابن خلدون فى مكتبتنا! أتحسن ركوب الخيل؟

«هذا كرم بالغ منك. إننى أقبل استضافتك لى بكل سرور، و... نعم، أحسن الركوب».

أما بقية الجماعة فقد وجه لهم زهير دعوة أكثر عمومية. فلنلتق فى الوادى بعد ثلاثة أيام، لنضع الخطط ونناقش وسائل تنفيذها. اتفقنا؟».

سأل هارون بن محمد: «لم لا تبقى الليلة ونتناقش الآن؟».

«لأن أبى فى المدينة وقد ألح على لكى أقضى الليلة فى منزل عمى، إن تذرعت بالرغبة فى الرجوع لمنزلنا، وسيكون من الطيش خداعه على هذا النحو المكشوف. إذن.... بعد ثلاثة أيام؟».

توصلوا إلى اتفاق. أمسك زهير بذراع ابن داوود وقاده خارجين إلى الشارع. سارا بهمة إلى النزل الذى يقيم به حيث جمعا متاع ابن داوود وعادا إلى الإسطبلات. استعار زهير حصانًا من خيول عمه من أجل صديقه الجديد، وقبل أن يتاح لابن داوود الوقت الكافى لاستيعاب

تسارع الأحداث، كانا فى طريقهما لقرية بنى هذيل.

يعيش عم زهير «ابن هشام» فى منزل جميل ضخم من منازل المدينة، لا يبعد إلا مسيرة خمس دقائق عن باب الرملة. لم يكن مدخله مختلفا عن مداخل المنازل الأخرى بالشارع نفسه، ولكن إذا توقف المرء ونظر مدققا على كلا جانبيه سيتضح له أن المدخلين المجاورين له فى حقيقة الأمر لا وجود لهما. كان البابان المزيفان المطعمان بالبلاط الفيروزى مصممين على سبيل التمويه. كان لا يمكن لأى غريب أن يتخيل أن وراء المدخل المزود بشبكة معدنية يوجد قصر متوسط الحجم. يربط ممر تحت أرض الشارع بين أجنحة القصر المختلفة. كما يستعمل كمهرب للطوارئ حتى باب الرملة. لا يتهاون معشر التجار فى اتخاذ الاحتياطات اللازمة.

بعد حديث عمر غير السار مع القائد العام، فى وقت سابق من هذا اليوم، عاد إلى هذا القصر الصغير.

كان ابن هشام وعمر ابنى عمومة. كان والد ابن هشام، هشام الزيد، ابن أخت ابن فريد، وقد استقر فى غرناطة بعد وفاة عمه الذى كفله منذ وفاة والديه اللذين قُتلا على أيدى قُطَّاع الطرق خلال رحلة إلى إشبيلية. ترقى فى المناصب حتى أصبح المستشار الاقتصادى للسلطان فى الحمراء، وخلال ذلك انتفع بمكانته ومواهبه ليكون ثروته الخاصة، وفى غياب أى تنافس حول ممتلكات بنى هذيل، ربطت بين ابنى العم صلة مودة دافئة، وبعد الموت الباكر لوالد عمر، كان عمه هشام الزيد هو الذى بادر لمساعدة ابن أخيه على تجاوز خسارته العاطفية. الأهم من ذلك أنه علم عمر فن إدارة الضيعة، وأوضح له الفارق ما بين التجارة فى المدن، وزراعة الأرض بالعبارات التالية:

«بالنسبة لنا فى غرناطة، المهم هو البضائع التى نبيعها أو نتبادلها. أما هنا فى الهذيل فالمهم هو قدرتك على التواصل مع الفلاحين وفهم احتياجاتهم. فيما مضى كان الفلاحون ملتفين حول ابن فريد وجده

ـلال الحرب. حاربوا معًا تحت الراية نفسها، وكان ذلك أمرًا مهمًا. تغير
الزمان. على خلاف البضائع التى نشتريها ونبيعها، فإن فلاحيك بوسعهم
ان يفكروا وأن يعملوا، وما دمت تذكر هذه الحقيقة البسيطة فلن تواجه
ابدًا مشكلات ذات شأن».

كان هشام الزيد قد توفى بعد سقوط المدينة بعام واحد. لم يصب
بأى مرض، وترددت أقاويل فى السوق بأن موته كان نتيجة انكسار قلبه.
قد يكون ذلك صحيحًا، ولكن من الصحيح أيضًا أنه كان قد احتفل بيوم
مولده الثمانين قبل رحيله ببضعة أسابيع.

منذ رجوعه من الحمراء، كان عمر فى حالة عقلية تغشاها الكآبة
والغم. استحم واستراح، ولكن التزامه الصمت خلال وجبة العشاء أثقل
على جميع الحاضرين. عرض ابن هشام أن يرسل فى طلب بعض الراقصات
وآنية كبيرة من النبيذ، ولكن عرضه قوبل بالرفض على الفور. لم يستطع
عمر أن يفهم كيف تنعم أسرة ابن عمه بهذا المزاج الرائق. كان صحيحا أن
الناس قد اعتادت النوائب، غير أن حدسه ينبئه بأن ثمة شيئا آخر هناك،
وعندما أخبرهم بأمر مقابلته مع دون إنيجو امتنعوا عن إبداء رأيهم. تبادل
ابن هشام مع زوجته مؤنسة نظرات غريبة عندما راح يصب اللعنات على
افتراح القائد العام بأن على كل مسلم أن يتحول إلى المسيحية على الفور.
كان عمر يشعر وكأن تيارات خفية سحبتهما بعيدا عنه. والآن، إذ جلس
الرجلان على الأرض قبالة أحدهما الآخر، وجدا نفسيهما وحيدين للمرة
الأولى منذ وصوله. كان عمر على وشك الانفجار.

لم يكد يفتح فمه بالكلام حتى سمعا طرقا شديدا على الباب. رأى
عمر وجه ابن هشام ينقبض. توقف منتظرًا مجئ الخادم والإعلان عن وصول
الزائر الجديد. لعل دون إنيجو قد راجع قلبه وغير رأيه وبعث وراءه برسولٍ
يطلب منه العودة إلى الحمراء على جناح السرعة، ولكن شخصا دخل الغرفة،
غير مألوف، بدلا من الخادم وفجأة اتضح كل شيء أمام عمر.

«سيدى الأسقف. لم أعلم أنك موجود فى غرناطة».

أشير إلى مقعد فاتخذ الأسقف مجلسه. شرع عمر يتحرك جيئة وذهابًا، ثم تحدث عمه بصوت كان يتناقض تمامًا مع مظهره الواهن.

«اجلس يا ابن الأخ. كنت أعلم أنك فى غرناطة اليوم. ولهذا السبب جئت. لحسن الحظ أن ابن المرحوم ابن عمى هشام الزيد أرجح عقلاً منك. ما الذى يقلقك يا عمر؟ هل زعامة بنى هذيل عبء ثقيل بحيث فقدت الانتفاع بعقلك؟ ألم أخبرك عندما أحرقوا الكتب أن الأمر لن يقف عند هذا الحد؟ ألم أحاول أن أحذرك من عواقب التشبث الأعمى بعقيدة مضى زمانها فى شبه الجزيرة هذه؟

كان عمر يغلى بالغضب.

«هل مضى هذا الزمن حقًا يا عمى؟ لم لا ترفع رداءك القرمزى الجميل لدقيقة واحدة؟ دعنا نفحص عضوك الذكرى . أعتقد أننا قد نكتشف أن قطعة جلد صغيرة قد أزيلت. لماذا لم تتشبث بقوة بقطعة الجلد تلك يا عماه؟ كما أنك لم تخجل من استخدام القطعة نفسها. كم عمر ابنك خوان. عشرون؟ ولد بعد ترسيمك قسًا بخمس سنوات! ماذا حدث لأمه؟ عمتنا المجهولة. هل أجبروها على أن تغادر الدير، أم أن رئيسة الدير تعمل قابلة فى وقت فراغها؟ متى تجلى لك النور يا عماه؟»

صاح فيه ابن عمه: «توقف عن هذا يا عمر! ما نفع كل هذا الحديث؟ الأسقف يحاول مساعدتك ليس أكثر».

«لست غاضبا منك يا عمر بن عبد الله. إننى أحب روحك المتوثبة فهى تذكرنى كثيرًا بأبى. ولكن هناك قانونا يحكم من يتورطون فى شؤون السياسة. لابد من أن يولوا بعض الاهتمام للعالم الحقيقى وما يجرى فيه. لابد من أن تدرس بالتفصيل جميع الملابسات المصاحبة واللاحقة لأى حدث من الأحداث. هذا ما تعلمته من معلمى عندما كنت فى عين يزيد. اعتدنا أن نتلقى دروسنا فى فناء الدار الذى تنساب فيه المياه، وتحيط

«...هم كل الحب. كنا نتلقاها على الدوام فى وقت ما بعد الظهيرة، حيث ... عم الفناء بنور الشمس.

«تعلمت ألا أبنى آرائى أبدًا على الظنون، بل أن تتفق أفكارى ... الحقائق الموجودة فى العالم الخارجى. كان من المستحيل أن تستمر ... باطلة فى الوجود واحة إسلامية فى صحراء مسيحية. هذا ما قلته لى قبل الإسلام بثلاثة أشهر، أتتذكر بماذا أجبتك؟».

«أذكره جيدًا» غمغم عمر، محاكيًا لهجة الشيخ: «إذا كان ما تقوله صحيحًا يا عمر بن عبد الله، فإنها لا يمكن أن تستمر على هذا النحو. لابد من أن يستولى محاربو الصحراء على الواحة». نعم يا عمى، أتذكر. ... قل لى شيئًا...».

«كلا! بل قل لى أنت شيئًا. هل ترغب فى أن تُصَادر ضيعة عائلتنا ... ها؟ هل ترغب فى أن يُقتل زهير وأن تُقتل أنت أيضًا، وأن تُلحق ... والفتيات بالجوارى فى منزل قاتلك، وأن يستعبد أحدُ القساوسة ... ويسىء إليه ويكون فتى للمذبح؟ أجبنى!».

كان عمر يرتجف. احتسى بعض الماء واكتفى بالتحديق فى ميجيل.

واصل أسقف قرطبة حديثه: «إذن لم لا تتحدث؟ ما زال فى الوقت ... ، ولذلك استخدمت كل سلطاتى لأرتب لك مقابلة الحمراء هذا ... اح، ولهذا أقنعت سيسنيروس بالمجىء؛ ليقوم بالتعميد فى القرية. ... هو الطريق الوحيد للبقاء يا بُنى. أتظن أننى تحولت وأصبحت ... لأننى رأيت رؤيا ما؟ الرؤيا الوحيدة التى شاهدتها كانت هى دمار ... السياسة هى التى حكمت قرارى، السياسة وليس الدين».

قال عمر: «ومع ذلك، فإن رداء الأسقف وافقك بسهولة شديدة، ... كنت ترتديه منذ مولدك».

«اسخر كما تشاء يا ابن أخى، ولكن احرص على اتخاذ القرار الصحيح. تذكر ما قاله الرسول ذات مرة للأعرابى عندما سأله هل يعقل

بعيره أو أن يتركها بين يدى الله، قال له: اعقلها وتوكل، وسوف أطا..
على شىء آخر، إذا بلغ محكمة التفتيش فإنها سوف تطلب رأسى .
زلت أتوضأ وأصلى موليًا وجهى صوب مكة كل يوم جمعة».

صُعق ابنا أخ ميجيل، مما جعله يضحك ضحكة خافتة.

«فى أزمنة الجهالة، على المرء أن يتعلم فن الجهالة. لهذا التحـ
بكنيسة روما، على الرغم من أننى ما زلت مقتنعا بأن طريقتنا فى ر..
العالم هى الأقرب إلى الصواب، وأطلب منك أن تقوم بالشىء نفسه. ا..
وافق ابن عمك هو وأسرته بالفعل، وسوف أقوم بتعميدهم بنفسى غا
لِمَ لا تبقى وتحضر الطقوس؟ لقد قُضى الأمر قبل أن تقول...».

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

«بالضبط. يمكنك أن تظل تقولها فى نفسك كل يوم».

«أفضل الموت حُرًا على العيش عبدًا».

«إن هذا الضرب من الغباء هو ما قادنا إلى انهيار عقيدتنا فى ..
الجزيرة هذه».

نظر عمر نحو ابن عمه، لكن ابن هشام حوّل وجهه.

«لماذا؟» صاح عمر به. «لِمَ لم تخبرنى؟ كأننى طُعنت فى قلبى».

رفعَ ابن هشام وجهه، وكانت الدموع تنهمر على وجهه. ع..
رأى قدر الكرب على وجه ابن عمه، فكر عمر قائلاً لنفسه: كم ..
ذلك غريبًا، فحين كنا صغارًا كان أقوى عزيمة منى. لعلها مسؤو..
الجديدة، ولكننى لدىَّ مسؤولياتى وهى أعظم شأنًا. بالنسبة له ما ..
إلا أعماله وتجارته وأسرته، أما بالنسبة لى فإنها حياة ألفى إنسان، ..
ذلك فقد أحزن عُمر مَرأى ابن عمه، وامتلأت عيناه هو أيضًا بالدمـ

للحظات، بينما كان ينظر أحدهما للآخر، بعينين مثقلتين بالأ..
تذكر ميجيل صباهما، لم يكن الصبيان يفترقان. استمرت صداقتهما بـ..
زواجهما بمدة طويلة، ولكن مع تقدمهما فى العمر واستغراقهما فى ..

أسرتيهما، قلت لقاءاتهما، وبدت المسافة ما بين منزل العائلة فى القرية، ومسكن ابن هشام فى غرناطة قد تباعدت. ولكنهما مع ذلك ظلا ابناء عم... كلما التقيا يتكاشفان ويناقشان شؤون أسرتيهما، وثروتهما، ومستقبلهما، وما يجرى بطبيعة الحال فى العالم من تغيرات. شعر ابن هشام بألم عظيم لأنه أخفى قرار تحوله عن عمر. كانت اللحظة الأهم في حياته. كان يشعر بأن ما سيفعله سيكفل الحماية والاستقرار لأبنائه ولأبنائهم. كان ابن هشام تاجرًا ثريًا، ويتباهى بقدرته على الحكم على الطبيعة الإنسانية. بوسعه أن يستشف المزاج العام للمدينة. كان قراره بأن يصبح مسيحيا على نفس مستوى القرار الذى اتخذه قبل ثلاثين عامًا بأن يضع كل ما يملك من ذهب فى صفقة لاستيراد الحرير المقصب من سمرقند، وقد ضاعف ثروته خلال عام واحد.

لم يكن يرغب فى خداع عمر، ولكنه كان يعرف أن ابن عمه معروف بتصلبه الفكرى وشدته الأخلاقية وطالما أثار هذا تجاهه مزيجًا من الاحترام والخوف فى فروع العائلة الممتدة، فخشى أن يقنعه بأنه على خطأ. لم يرغب ابن هشام أن يقتنع بذلك، وأقر بكل ذلك على أمل أن عمر سوف يتفهم ويغفر له، ولكن عمر واصل النظر إليه فى غضب، وأحس ابن هشام كأن حرارة كل تلك السنوات تخترق رأسه. فى دقائق معدودة اتسعت الهوة بين الرجلين اتساعًا أعجزهما عن مواصلة الحديث معا.

كان ميجيل هو الذى كسر الصمت أخيرًا. «سوف آتى إلى الهذيل غدًا».

«لماذا؟».

«هل تُنكر على حق دخول المنزل الذى ولدت فيه؟ إننى أرغب ببساطة فى رؤية أختى. لن أقحم نفسى فى حياتكم».

أدرك عُمر الخطر الذى كان معرضا له، خطر تسليم سجل عائلته لريح النسيان التام. لا يمكن لذلك أن يحدث، وثاب إلى نفسه على الفور. كان يعلم أن ميجيل عزم على التحدث إلى زبيدة وإقناعها

بضرورة التحول. الوغد العجوز يتصور أن إقناعها بخططه الفاسدة ما
يكون أسهل. الشيطان العجوز! إن نواياه واضحة تماما.

«اغفر لى يا عماه، لقد شرد عقلى إلى أمور أخرى. أنت موضع
ترحيب على الدوام فى دارك. سوف نعود معًا عند شروق الشمس،
ولكن عفوًا! لقد نسيت أن وراءك تعميدا ستقوم به. سيكون عليك أن
تأتينا بمفردك. والآن هل أسأل معروفًا».

قال أسقف قرطبة: «تكلم».

«أود أن أنفرد بابن عمى».

ابتسم ميجيل ونهض. صفق ابن هشام بيديه، فدخل الغرفة خادم
ومعه مصباح، وقاد رجل القس إلى غرفته. شَعَرَا بمزيد من الارتياح
فى غيابه. نظر عمر إلى صديقه، غير أنه وجد عينيه نائيتين. حل الأسف
والتسليم محل الغضب بداخله. توقع ابن هشام انفصالهما، الذى ربما يكون
دائمًا، فمد يده نحو عمر، الذى أمسك بها للحظات ثم تركها. كان الـ
الذى انتابهما من العمق بحيث لم يشعرا بحاجة لقول الكثير لبعضهما.

بدأ ابن هشام الحديث قائلاً: «إذا كانت تراودك أية شكوك، فإن
أريدك أن تعرف أن أسبابى لا صلة لها بالدين».

«وهذا ما يُحزننى كل الحزن. فإذا كنت قد تحولت عن اقتناع لكنت خاصمتك
وشعرت بالحزن، ولكن لن يكون بى غضب أو مرارة. على أية حال لا تقلق، ا
أحاول حتى أن أجعلك تعدل عن رأيك. هل قبلت بقية الأسرة قرارك؟».

أومأ ابن هشام بأن نعم.

«أتمنى لو توقف الوقت إلى الأبد».

ضحك عمر عاليًا على ملاحظته تلك، وجفل ابن هشام. كان
ضحكة غريبة مثل صدى بعيد.

قال عمر: «لم نكد نفرغ من كارثة حتى نتأهب لأخرى».

«أيمكن أن يكون هناك أسوأ مما عشناه يا عمر؟ أن تضرم النـ

ا، حضارتنا. لن يؤلمنى أى شىء آخر يفعلونه أكثر من هذا. حتى لو
ا،ونى إلى خازوق ورجمونى إلى أن أسلم الروح، فسوف يكون ذلك
اسهل بالمقارنة مع هذا».

«ألهذا قررت أن تتحول؟».

«كلا وألف كلا. كان ذلك من أجل أسرتى. من أجل مستقبلهم».

أقر عمر قائلاً: «عندما أفكر بالمستقبل، أجدنى لم أعد أستطيع
اتهل السماء عميقة الزرقة. لم يعد هناك وضوح. كل ما أراه ضباب
كثيف، ظلام تام يحيط بنا جميعًا، وفى طبقة غائرة من أحلامى تلوح لى
شواطئ إفريقيا. لابد من أن أستريح الآن وأقول وداعًا لأننى سأغادر
هذا قبل أن تنهضوا جميعًا مِن أَسِرَّتِكم».

«كيف يمكنك أن تكون بهذه القسوة؟ سنصحو جميعًا لأداء صلاة الفجر».

«حتى يوم تعميدكم؟».

«وخصوصًا فى ذلك اليوم».

«إلى الصباح إذن. السلام عليك».

«وعليك السلام».

تريث ابن هشام قليلا.

«عمر؟».

«نعم».

تحرك بسرعة وعانق عمر، الذى بَقِيَ دون استجابة له، وذراعاه
مدلتان جانبًا. وعندما شرع ابن عمه يبكى من جديد احتضنه عمر وضمه
إليه بقوة. قَبَّل كل واحد منهما وجنتى الآخر، واصطحب ابن هشام عمرًا إلى
غرفته. كانت تلك الغرفة معدة خصيصًا لإقامة عمر بن عبد الله متى حضر.

لم يستطع عمر أن ينام. ضجتْ رأسه بأصوات قلقة. السم الفتاك
يسرى وينتشر كل يوم. على الرغم مما أبداه أمام الآخرين من صلابة، كانت
الشكوك والأسئلة تسومه العذاب. ما العدل فى تعريض أبنائه لعشرات

السنين من التعذيب والنفى، وربما الموت؟ أى حق له فى أن يفرض عليهم اختياره؟ هل كان يربى أولاده من أجل أن يسلمهم لقاتليهم؟

بدأت رأسه تهدر كما لو كان ينبعث منها صخب نهر يجرى فى جوف الأرض. إنها الآلام الوحشية للذاكرة. كان يتفجع على السنوات المنسية، على ربيع حياته. كان ابن هشام فى صحبته عندما وقع بصره على زبيدة لأول مرة، وحول كتفيها شملة سابغة، تحول هنا وهناك مثل روح هائمة فى الرياض القريبة من الحمراء. سوف يتذكر هذا المشهد ما دام حيا. تخلل الأغصان شعاع من نور الشمس فبدا شعرها الأحمر مثل سبائك ذهب. ما خلب لبه فى الحال كان نضارتها وحيويتها - لا أثر للخمول الحسى الذى يشوه كثيرات من نساء عائلته. تجمد فى موضعه، مأخوذًا بجمالها. تمنى لو ذهب إليها ومس شعرها، وسمع صوتها، ورأى كيف يتغير شكل عينيها حين تبتسم، ولكنه تمالك نفسه كان قطف ثمرات المشمش الناضج محظورًا. لو أنه بمفرده فلربما تركها تمضى وما رآها بعد ذلك أبدًا. كان ابن هشام هو الذى شجعه على الاقتراب منها، وبعد شهور كان هو الذى يقف حارسًا خلال مواعيد الغرام السرية.

كان جانبا الوسادة دافئا عندما استطاع عمر أن ينام أخيرًا. آخر أفكاره الواعية كان عزمه على الاستيقاظ قبل الفجر بوقت كافٍ والعوده بجواده إلى الهذيل. لم يكن مستعدًا لمواجهة جيشان عاطفة وداع آخر. لم يكن راغبا فى رؤية عينى صديقه العاجزتين تتوسلان فى صمت طلبًا للرأفة.

كان هناك سبب آخر، كان يريد أن يستعيد رحلات شبابه المفقود: أن يعود للديار مع طراوة نسيم الفجر، مبتعدًا بأقصى ما يستطيع عن واقع طقوس التعميد الخسيسة لميجيل؛ وأن يستشعر الأشعة الأولى لشمس الصباح تلوح على قمم الجبال؛ وأن يمتع عينيه بما تحفل به السموات الزرقاء من كنوز لا تنضب. قبيل أن يتمكن النعاس منه مباشرة، انتاب عمر شعور قوى بأنه لن يرى ابن هشام مرة أخرى.

***

الفصل الخامس

«لا يمكن للحقيقة أن تناقض نفسها. صحيح أم خطأ يا زهير الفحل؟».

«صحيح. كيف يمكن أن يكون غير ذلك. ألم يذكر ذلك فى القرآن؟».

«أهذا هو السبب الوحيد لصحة القضية؟».

«حسنا! أقصد أنه ما دام قد جاء فى القرآن.. اسمع أيها الشيخ، لم ات إلى هنا اليوم للجدل حول أفكارك الكافرة!».

«سأطرح عليك سؤالا آخر: هل من الجائز أن نوحد بين ما نستقيه من العقل وما نأخذه عن النقل؟».

«أفترض ذلك».

«تفترض ذلك! ألا يعلمونكم أى شىء هذه الأيام؟ أولئك الملتحون الحمقى! إننى أطرح عليك معضلة حيرت علماء ديننا على مدى ، و ن، وكل ما يمكنك قوله هو: «أفترض ذلك». هذا لا يكفى. على أيامنا كان الشباب يتعلمون أن يكونوا أكثر دقة وحزمًا. ألم يسبق لك أن ، ات أعمال ابن رشد، أحد أعظم مفكرينا؟ رجل عظيم حقًا معروف بين مسيحيى أوروبا بأڤيروس. لابد من أن تكون قد قرأت كتبه، إذ يوجد فى مكتبة أبيك أربعة منها".

شعر زهير بالحرج والإهانة.

"لقد درستها، ولكن بطريقة جردتها من كل معنى. كان معلمى يقول إن ابن رشد قد يكون عالمًا، ولكنه مجدف".

«لا يلد الجهل إلا الجهل. الاتهام باطل. كان ابن رشد فيلسوفًا عظيمًا، مفعمًا بالعبقرية. إنه كان مخطئًا فى رأيى، ولكن ليس للأسباب

التى قدمها لك ذلك الأحمق المخصص لتعليمك علوم الدين. فمن أجل أن يحل ابن رشد ما رآه تناقضًا بين العقل والنقل، قبل بتعاليم التصوف المبهمة. ثمة معان ظاهرة ومعان باطنة، والآن من الصحيح أن المظهر والحقيقة لا يتطابقان دائمًا وأبدًا، غير أن ابن رشد قد أصر على أن التأويلات المجازية كانت ملازمًا ضروريًا للحقيقة. كان ذلك أمرًا يدعو للرثاء، ولكننى لا أظنه صرح بذلك بناء على أية دوافع خسيسة".

سأل زهير حانقًا: "وما أدراك؟ فلعله كان يشعر بأن هذا هو السبيل الوحيد لنشر المعرفة وللاستمرار".

أكدّ الزنديق بيقين استمده من التقدم فى العمر: "لقد كان مخلصًا وجديرًا بكل ثقة، قال ذات مرة: إن أشد ما آلمه فى حياته كان عندما اصطحب ابنه إلى صلاة الجمعة وطردهما حفنة من الجهلة المعممين لم تكن مجرد الإهانة هى ما آلمه -لاشك أنها آلمته- بل إن ما آلمه كذلك كان إدراكه أن انفعالات الغوغاء كانت على وشك إغراق أحدث أديان العالم. أما بالنسبة لى، فلا أرى أن ابن رشد كان مجدفًا بما فيه الكفاية، لقد تقبل تمامًا فكرة عبودية العالم لله".

"هل تشعر بالبرد يا بُنى؟"

"كلا، بل هى كلماتك التى تخيفنى. لم آت إلى هنا لكى أناقش الفلسفات أو لكى أتبادل إهانات لاهوتية معك. إن كنت تود أن تختبر أفكارك فيمكننا أن ننظم مناظرة كبرى فى فناء الدار الخارجى بينك وبين إمام الجامع، شريطة أن يكون الحكم النهائى لنا جميعًا. أنا على ثقة من أن أختى هند سوف تكون فى صفك، ولكن فلتأخذ حذرك؛ لأن دعمها لا يختلف كثيرا عن ذلك الذى يقدمه الحبل للجلاد".

ضحك الزنديق: "أعتذر لك. فحين أتيت فجأة هكذا دون سابق إنذار، كنتُ مستغرقًا فى العمل على إحدى المخطوطات. إنه العمل الذى يتوج عمرى كله، وهى محاولة لجدل كل الخيوط المتعلقة بالحروب الدينية

التى ابتليت بها عقيدتنا. كان رأسى مزدحما بكل تلك الأفكار فأخذتُ اعرضها عليك. والآن خبرنى عن زيارتك لغرناطة".

تنهد زهير مستشعرًا الراحة. روى أحداث الأيام القليلة الماضية دون أن يهمل أدق التفاصيل، وحين راح يتحدث حول قرارهم بعدم تقبل أية إساءات أخرى فى المستقبل دون مقاومة، التقطت أذن الزنديق نغمة انفعال مألوفة. طالما سمع شبابًا فى ريعانهم يتلهفون للتضحية بحياتهم دفاعًا عن كرامتهم. لم يكن يريد أن تضيع حياة أخرى. تطلع نحو زهير وطافت بخاطره سريعًا صورة شاب ملفوف فى كفنه الأبيض. ارتعش جسد الزنديق. أساء زهير تفسير تلك الحركة الهينة، فقد ظن أنه نجح ولو لمرة فى نقل بعض حماسته إلى ذلك الشيخ الحكيم".

"ما الذى يجب عمله أيها الزنديق؟ ما نصيحتك؟"

كان زهير يتوقع وصول أصدقائه الغرناطيين فى وقت لاحق من اليوم نفسه. لسوف يضخ فيهم قدرًا كبيرًا من الثقة إذا ما علموا أن ذلك الشيخ رأى مناظرة مشروعهم. ظل زهير يتحدث لأكثر من الساعة، عارضًا احتجاجات موسى على خطتهم، ورد فعل ابن داوود على هذه العقلية المتخاذلة، وحان الوقت لأن يستمع إلى رأى الزنديق.

لم يكن زهير قبل ذلك بحاجة ماسة إلى الزنديق كما يحتاج إليه الآن، ذلك لأن حفيد الجد الكبير ابن فريد كان مثقلا بالشكوك الخطيرة، ماذا لو أنهم هلكوا جميعًا فى محاولتهم هذه؟ لو أن نتيجة موتهم ستكون هى انبعاث غرناطة المسلمة من جديد، لكانت التضحية إذن تستحق كل نفس زُهقت من أجلها، ولكن هل كان ذلك ممكنا؟ ماذا لو أدى طيشهم إلى طرد كل مسلم من المملكة القديمة، وانتهت حياتهم على أيدى فرسان خمينث دى سيسنيروس؟ كان زهير ما زال غير واثق من أنه قد آن أوان الرحيل عن هذا العالم.

بدأ الزنديق هجومه المضاد بطرح سؤال كان يبدو بريئًا تمامًا،

"إذن فابن داوود المصرى يقول: إنه من أحفاد ابن خلدون؟"

أومأ زهير دون تردد، وقال:

"لماذا هذه النبرة المرتابة؟ كيف يمكنك التشكيك فى كلامه حتى دون أن تراه؟"

"إنه يبدو عنيدًا وطائشًا، ولم يكن جده الأكبر ليقترح مثل هذا النهج؟ كان سيؤكد أنه بدون إحساس متين بالتماسك الاجتماعى فى معسكر المؤمنين لا يمكن أن يُكتب لهم النصر. ما أدى إلى انهيار الأندلس هو غياب هذا التماسك فى صفوف المسلمين. كيف يمكنكم أن تبعثوا من الموت شيئًا لم يعد له وجود؟ لسوف تسحقكم جيوشهم، كما يسحق الفيل بقدمه نملة".

"نعرف ذلك، ولكنه أملنا الوحيد. لقد قال ابن داوود: إن قومًا يُهزمون ويُستعبدون سرعان ما ينمحى وجودهم".

"يتحدث مثل جده الأكبر! ولكن ألا يدرك أننا بالفعل قد 'هزمنا' وأننا مستعبدون الآن؟، أحضره إلَىَّ. أحضرهم جميعا إلَىَّ الليلة ودعنا نناقش الأمر من جديد بالجدية التى يستحقها. ليست أرواحكم أنتم فقط هى التى ستُهدر، على المحك ما هو أكثر وأعظم شأنًا. هل والدك على علم بالأمر؟"

هز زهير رأسه نفيًا، قائلا:

"وددت أن أخبره، ولكن عمى الكبير ميجيل جاء لزيارة عمتى الكبيرة زهرة..."

أمسك زهير عن الكلام، ولكن فات الأوان، إذ كان قد نطق بالاسم المحظور. تطلع نحو الزنديق، الذى ابتسم قائلا: "كنت أتساءل متى تأتى على ذكرها. لا حديث للقرية كلها إلا عن ذلك. لم يعد لهذا أهمية يا بُنى. مضى زمن طويل على ذلك. كنت سأخبرك فى زيارتك الأخيرة، ولكن وصول خادمكم أخرسنى، إذن فأنت تعرف الآن سبب

مع الزنديق، دون أن يمنعوا عنه الطعام مع ذلك".

"إذا كنت تحبها فلم لم تذهب إلى قرطبة وتعثر عليها؟ كان من المراد أن تتخذك زوجًا".

"ما يسرى فى أجسامنا من حرارة وبرودة لا يدوم أو يستمر للأبد يا ابن عمر. فى البداية كنت خائفًا من أبيها - لقد هدد بذبحى إذا ما شوهدت بالقرب من قرطبة، ولكن كان هناك أمر آخر".

"ما هو؟"

"لعل زهرة كانت تحبنى طوال كل تلك السنوات. لعلها! كان لها وسائلها الغريبة لإظهار عاطفتها".

ارتبك زهير، فقال:

"ماذا تقصد؟"

بعد ثلاثة أشهر فى قرطبة شاهدها الناس تستجيب لكل نبيل مسيحى يبتسم لها، واستمر هذا الحال لسنوات، سنوات عديدة. عندما سمعت قصص مغامراتها سقطتُ مريضًا لمدة طويلة، ثم تعافيت.

شفيت وتبددت العلة. شعرت بأننى حر من جديد، على الرغم من أن قلبى نسى كيف كانت تبدو الشمس".

"ونسيت عمتنا الكبيرة زهرة؟"

"لم أقل هذا، أليس كذلك؟ كيف أنسى؟ ولكن الأبواب كانت محكمة الإغلاق. ثم سمعت قصصًا أخرى عن أحداث مماثلة جرت لآخرين. بعد ذلك حشوتُ أذنى بالقطن. ثم أخبرتنى أميرة بعد مرور العمر والكثير من السنوات بأن السيدة نزيلة مارستان غرناطة".

"أعتقد أن ما لم تخبرك به هو أن عمتنا الكبيرة زهرة عاقلة تمامًا مثلك ومثلى. لقد أُرسِلَتْ إلى هناك بناء على الأوامر الصارمة لأبيها، قبل موته بعام واحد. كان يعتقد أن سلوكها الشائن كان متعمدًا بقصد معاقبته على منعها من الزواج بك. هذا ما أخبرتنى به أمى".

"الرجال العظماء مثل ابن فريد دائمًا ما يرون أنفسهم مركز ال
شىء. ألم يستطيع أن يفهم أن السيدة زهرة كانت تعاقب نفسها؟"
"لقد تأثرت كثيرًا عند رؤية أخيها. على الرغم من أن "آمه
قالت لنا: إنها كانت تبغض ميجيل. وحين سألنا عن السبب تجمد وجه
"آمه" مثل الحجر. هل لعب ميجيل أى دور فى طردك أيها الزنديق؟ أنا
واثق أنه كان يتجسس عليكما ولا شك".

دفن الزنديق وجهه بين كفيه محدقا نحو الأرض، ثم رفع وجهه
فرأى زهير آيات الألم على ملامحه. فجأة أصبح وجهه المجعد مشدودًا
متصلبًا، وفكر زهير، كان رد فعله تكرارا لرد فعل "آمه" تمامًا.

"أنا آسف أيها الشيخ. لم أقصد أن أنكأ الجراح القديمة. سامحنى"

كان الزنديق يتحدث بنبرة غريبة.

"بالنسبة لك، لا يُعد ميجيل إلا مرتدا خان الراية الخضراء من
أجل ترانيمهم وأيقوناتهم الخشبية. إنك تراه يسعى متبخترا مزهوا بصفته
أسقف قرطبة، ويجدف ضد دينكم، وتشعر بالعار؛ لأن بينكما صلة قرابة
ألستُ على صواب؟"

أومأ زهير فى جدية.

"فماذا لو أخبرتك أن ميكال المالك، وهو صبى غض، كان
مفعما بالحياة والمرح؟ فوق أنه كان يتجسس عَلَىَّ ثم ينطلق بالوشاية
لأبيه، كان يتمنى السعادة لى أنا وزهرة. كان لاعبًا شغوفًا بالشطرنج، لو
أنه لم يفعل طوال حياته أى شىء آخر لبقى ذكره حيًا؛ لابتكاره ثلاث
حركات افتتاحية على الأقل، لا يباريه فيها سادة هذا الفن فى شبه الجزيرة
كلها، ناهيك عنى أنا أو عن والد القزم، الذى كان لاعبًا له وزنه. كثيرًا
ما كان ينخرط فى معارك فلسفية مع معلميه، مما كان يشى بنضج سابق
لأوانه، كان يروعنا جميعًا، وخصوصًا أمه. كان الصبى واعدًا ومبشرًا إلى
أقصى حد، لدرجة أن ابن فريد اعتاد أن يقول للسيدة أسماء: "لا تدعى

الخادمات يحدقن فيه معجبات. سوف يرمينه بعين الحسود الشريرة". فيما بعد، وقد جرى ما جرى، تذكر كثيرون منا ما قاله أبوه قبل سنين كثيرة. كانت أمى خادمة السيدة أسماء ووصيفتها المؤتمنة، وهى التى اعتادت السهر على رعاية ميجيل. كان كثيرًا ما يأتى إلى مكان إقامتنا بالدار وكنتُ مولعًا به".

تساءل زهير: "وكيف غرقت سفينته إلى القاع إذن؟ ما اللغز؟ كيف أصابه الداء؟ ماذا جرى أيها الزنديق؟"

"أواثق أنت من أنك تريد أن تعرف؟ هناك أمور من الأفضل أن نتركها جانبًا".

"لابد من أن أعرف، وأنت الشخص الوحيد الذى سيخبرنى".

تنهد الشيخ. كان يعرف أن ذلك غير صحيح، فالأغلب أن أميرة كانت تعرف ما هو أكثر مما قيل له فى أى وقت على الإطلاق، ولكن السؤال المشروع هو ما إذا كان يعرف أيهما كل شىء.

امرأتان فقط تعرفان الحقيقة كاملة. السيدة أسماء ووصيفتها الأمينة على سرها. أمى الحبيبة. هكذا كان يظن ذلك الشيخ فى مستقره أعلى التل. كلتاهما ماتت، ووجيد الزنديق على ثقة من أن أمه قد ماتت بالسم. لم يثق بنو هذيل فى قضاء الله وقدره، كانوا يشعرون أن القبر هو السبيل الوحيد بالصمت المطبق. من اتخذ القرار؟ لم يفكر الزنديق ولو لحظة أن يكون الفاعل هو والد عمر: «عبد الله بن فريد». لم يكن ذلك من طبيعته أو مزاجه. لعله كان هشام الغرناطى، الذى كان يؤمن تماما بضرورة حسم الأمور المعلقة. لا يمثل ذلك أى فرق سوى أن التفاصيل المحددة لما جرى قد توارت معها فى القبر.

بعد ذلك بسنوات، كان الزنديق وأميرة جالسين معًا ذات مساء، وراحا يجمعان الأجزاء لبعضها بعضًا، ويفضيان بكل ما يعرفان عن الفاجعة، ومع ذلك لم تكن هناك وسيلة لتأكيد وصدق روايتهما ودقتها،

ولذا يتردد الزنديق الآن قبل أن يتحدث.

"لقد وعدتنى بأن تخبرنى بكل شىء يا زنديق".

"حسن! ولكن فلتتذكر أمرًا واحدًا أيها الفحل، ما سأحكيه لك قد لا يكون الحقيقة كاملة، ما من وسيلة عندى للتأكيد".

"أرجوك دع الحكم فى هذا لى".

"عندما توفى جدك الكبير انهارت زوجتاه. لم تكن السيدة مريم تقاسمه الفراش لسنوات، ولكنها كانت لا تزال على حبها له. مات ابن فريد وهو نائم. عندما توجهت السيدة أسماء إلى فراشه وراحت تضغط كتفيه ومؤخرة رأسه كعادتها لم تجد أى استجابة. حينئذ أدركت أن الروح قد صعدت إلى بارئها، صرخت: "يا مريم! حطت علينا كارثة" قالت أمى: إنها لم يسبق لها أن سمعت أكثر من مثل هذه الصرخة تمزيقًا للقلوب. واست كل واحدة منهما ضرَّتها قدر ما وسعها ذلك.

"بعد سنة لحقت به السيدة مريم. كان موتها بطيئًا ورهيبًا. غطت لسانَها أجسام سوداء، وقاست آلامًا مبرحة. توسلت بأن يمدوها بِسُمٍّ، ولكن جدك لم يستجب لذلك. استدعوا لها أفضل أطباء غرناطة وإشبيلية ولكنهم كانوا بلا حيلة أمام البلاء الذى زرع نفسه فى فمها، وراح يسرى فى جسدها كله. قال ابن سينا ذات مرة: إن سبب هذا الداء مجهول ولا يعرف له دواء، وكان يرى أن السبب فى بعض الحالات يعود إلى تراكم الحالات النفسية السيئة واحتباسها فى عقل المريض. لم أدرس من قبل مثل تلك الحالات، عليه فلست فى وضع يتيح لى التعليق. على أية حال وأيا كان السبب، فقد توفيت السيدة مريم بعد وفاة ابن فريد بعام تقريبًا. كانت أمى تقول: إن قلبها كان فى حالة حداد حتى من قبل وفاة زوجها بعشرين عامًا.

"أصبحت السيدة أسماء الآن وحيدة تمامًا. كانت زهرة نزيلة المارستان، وكان ميكال فتى يافعًا ولا يميل كثيرًا للبقاء حبيس الدار

كان جدك الأكبر رجلاً عطوفًا، ولكنه لم يُعرف بسرعة البديهة. زوجته:
«...ك الكبرى»، كانت تماثله فى طبيعته الشخصية. كانت السيدة
أسماء تمضى كثيرًا من الوقت مع أبيك، الذى كان وقتها فتى فى الثامنة
من العمر تقريبا. اتخذت منه بديلاً لتصب لديه الحب الذى كانت تغدقه
على زوجها الراحل. خارج العائلة لم يكن لها إلا أمى، التى أصبحت
صديقتها الحميمة. أما جدتى لأمى، الطاهية دوروثيا، فقد رفضت
العروض المتكررة بالمجىء للإقامة والعيش بالمنزل. وكلما كانت تأتى
للزيارة كانت جودة الطعام بالدار تتحسن تحسنًا هائلاً. كانت تأتى فى
زيارات قصيرة، غير أنها لا تُنسى؛ لأنها كانت تعد كعكات صغيرة باللوز
تذوب فى أفواهنا. كانت طاهية ممتازة حقًا، وقد تعلم والد القزم منها
الكثير، كما أنه أُغرم بها، وشاعت حكايات عن أنه... ولكن دعنا لا نبتعد
عن موضوعنا الأساسى. الحق أنه ربما لو أن دوروثيا جِاءت لتعيش مع
أسماء بعد موت ابن فريد، لما حلت تلك الفاجعة قط".

كان زهير مستغرقًا تمامًا فى القصة بحيث أنه ظل مسيطرًا
على فضوله حتى هذه اللحظة. حين كان فتى يافعًا، ينصت إلى تلك
الحكايات التى لا تنتهى حول تاريخ العائلة، كان كثيرًا ما يضايق أباه
ويقاطعه بأسئلة مُلحة سعيًا وراء معرفة هذه الجزئية أو تلك. غير أنه ظل
...ا البعض الوقت أمام رفض دوروثيا أن تهجر سيدها وأن تتبع ابنتها
... المديل، وهكذا قاطع راوى الحكاية قائلا:

"إننى أجد هذا أمرًا غريبًا. لماذا؟ أعنى أنها لم تكن إلا مجرد طاهية
... منزل دون ألفارو. وهنا كانت ستعيش فى دعة ونعيم حتى وفاتها".

"لا أدرى يا ابن عمر. لقد كانت سيدة فى غاية اللطف والتهذيب.
وأظن أنها ببساطة كانت تشعر بالحرج فى أن تكون حماة أحد الوجهاء
الموقرين مثل ابن فريد. وربما كان من الأيسر عليها أن تتعامل مع ترقيها
المفاجئ. هذا ما كان يزيد من انزعاج ابن فريد، وهو رفضها الإقامة

معهم بداخل الدار، فقد كانت أمى تخلى لها غرفتنا فى مساكن الحا،
وكانت تبيت بها".

"وماذا كانت المأساة أيها الزنديق؟ ماذا حدث؟ يساورنى شه،
بأن الوقت سوف يداهمنا مرة أخرى، ولا أود أن يحدث ذلك؟"

"أتعنى لماذا توفيت' السيدة أسماء ومن قتل أمى؟"

"بالضبط، فلم تكن السيدة أسماء متقدمة فى العمر، الب،
كذلك؟"

"كلا، وهذا هو بيت القصيد. كانت ما تزال شابة مفعمة بالحي،
فخورة بجسدها، لم تنجب إلا ولدين اثنين".

"عمَّىَ الكبيرين ميجيل ووليد".

"تمامًا. كانت وفاة وليد صدمة هائلة بالنسبة لنا جميعًا. تخيل فقط ا،
أن شقيقك يزيد داهمته الحمى وانتهى أجله. أرأيت؟ مجرد الفكرة تؤلم،
كانت السيدة أسماء متأهبة لأن تنجب أطفالًا آخرين كثيرين عندما ت،
جدك. قالت لى أمى: إنه قد تقدم لأرملة ابن فريد كثير من الخطاب ،
ردتهم جميعًا. جدك عبد الله ما كان ليسمح بأن تُعامل زوجة أبيه ،
سائر النساء، وهكذا عاشت السيدة أسماء فى عزلة تحيط بها أسرتها.

"كان عمك الكبير هشام قد تزوج قُبيل وفاة ابن فريد واستأنه
أعماله التجارية فى غرناطة - تلك الأعمال التى أقول إنها أثارت ا،
الجميع عدا أمه، فإن نزول واحد من أبناء آل هذيل إلى الأسواق ل،
ويشترى كان بمثابة تدنيس للمقدسات، إهانة لشرف العائلة. ا،
أنجبت العائلة شعراء وفلاسفة ورجال دولة ومحاربين، بل وأنج
حتى رسامًا مجنونا قيل: إن رسومه الإباحية كانت موضع تقدير الخا،
فى قرطبة، ولكنهم كلهم كانوا مرتبطين بالأرض ويعتمدون عليها. ا،
الآن فابن أخى «ابن فريد» يفاوض التجار على الأسعار ويساوم أصحا
السفن وفى الحقيقة يستمتع بكل لحظة من حياته هذه. لو أن هشامًا تظاه،

ب بأنه غير سعيد فلربما غفروا له. لقد استشاط ابن فريد غضبًا، ولم ب فى ذلك وقد طرد أحد أبنائه، لأنه لم يقطع صلته بالآخر، وعلى أية حال ما كانت السيدة أسماء لتتسامح مع أى هراء من هذا النوع".

"ولكن هذا يبدو جنونًا. ألم ينحدر بنو هذيل عن أسلاف من البدو المحاربين، ممن كانوا يتاجرون ويتساومون مع القوافل فى كل يوم من أيام حياتهم، قبل أن يرتحلوا إلى المغرب؟ ألا توافقنى؟"

أوافقك تماما. ولكن فكر بالأمر أيها الفحل. لم يعد لدى أحفاد المحاربين الرحالة الذين زحفوا من بلاد العرب إلى المغرب ما يدفعهم للارتحال، أصبحوا مرتبطين بالأرض تماما بحيث أنه لو أن فردا من العائلة ارتأى غير ذلك، لعومل معاملة المهرطق".

زهير الذى كان وثيق الصلة بأبناء ابن هشام، ظل فضوليًا تجاه الاستياء والمهانة التى استهدفت جدهم الكبير.

"لست واثقا من أننى أتفق معك. أقصد أنه حتى فى الصحراء كان أهلنا يحتقرون ساكنى المدن. أتذكر أن "آمه" كانت تخبرنى وأنا طفل أن المدن لا يسكنها إلا الطفيليون".

ضحك الزنديق: "نعم، قد تقول ذلك. لطالما كانت أميرة مدافعة ...ة عن انحيازات الآخرين. ولكنك ترى يا بُنى الفحل، أن للمدن أهميتها السياسية وهو ما تفتقر إليه كل قراكم. ماذا تنتجون؟ الحرير. وماذا ينتجون هم؟ السُلطة. لقد كتب ابن خلدون ذات مرة..."

انتبه زهير فجأة إلى أن الثعلب العجوز كان على وشك أن يجره إلى مناقشة مطولة حول فلسفة التاريخ، والمساجلة التى لا نهاية لها، حول حياة الحضر فى مقابل حياة البدو، فقام بإيقافه.

"يا زنديق، كيف ماتت السيدة أسماء؟ أرجو ألا أطرح هذا السؤال مرة أخرى".

ابتسمت عينا الشيخ وامتلأ وجهه بالتجاعيد، وفى جزء من الثانية

امتلأت هاتان العينان نفسُهما بنُذر المأساة. كان يريد أن يغير الموضوع، وا...
زهيرًا كان يحدق فيه، وقد اكتسى وجهه المؤطر بلحية ناعمة خفيفة ب...
قاس، كشف فجأة عن صرامة أدهشت الزنديق الذى كان يتنفس بصعوبة
"بعد موت ابن فريد بستة أعوام حملت السيدة أسماء".
تساءل زهير بهمس مبحوح وملتاع: "كيف؟ من هو؟"
"ثلاثة أشخاص كانوا يعرفون الحقيقة. أمي والاثنان المعنيان
توفيت أمي وكذلك السيدة أسماء. وهكذا لا يبقى إلا شخص واحد."
قال زهير غاضبًا: "أعرف ذلك أيها الشيخ الأحمق".
"نعم، نعم، يا زهير الفتى الفحل. إنك تشعر بالاستياء. إنك لا
تعرف أيا من هؤلاء الأشخاص ومع ذلك فقد جُرح كبرياؤك".
فكر الزنديق فى نفسه أنه من الغريب أن يتأثر هذا الفتى إلى هذا
الحد. ما علاقته بالأمر؟ أما زالت السلطة الجهنمية لأشباح الماضى قادرة
على إشعال عواطفنا؟ مضى أوان التراجع. مس وجه زهير وربت على
ظهره وناوله قدح ماء.
"بوسعك أن تتخيل جو المنزل عندما انكشف ذلك الأمر. ظهر
من جديد فجأة سيدات العائلة العجائز، وكثيرات منهن أُعتبرن متوفيات
بمرض الشراهة فى الطعام من زمن طويل، توافدن على المنزل آتيات من
قرطبة و"بالنسيه" و"إشبيلية" و"غرناطة". الأنباء السيئة تنتقل سريعة.
لم تكن السيدة أسماء تغادر غرفتها، ولعبت أمي دور الوسيط بينها و...
الحيزبونات العجائز. كان معهن قابلة عجوز من غرناطة، تُعتبر خبيرة ...
فن إسقاط الحمل غير المرغوب فيه من أى رحم، وشرعت فى العمل
تعاونها أمي. كانت العملية التى أجرتها ناجحة وزال الحرج. ما هو إلا
أسبوع واحد بعدها وماتت السيدة أسماء. تسلل بعض السم إلى مجرى
الدم ولكن هذا لم يكن كل شيء، فحين رغب كل من جدك وجدتك
برؤيتها همست السيدة أسماء فى أذن جدتك بأنها كانت تريد أن تموت

كانت قد فقدت كل الرغبة فى الحياة. كان العار لا يحتمل. جاء هشام وزوجته إلى المنزل مع ابنهما، الذى كان محبوبًا هو أيضًا من السيدة أسماء واعتاد أن يقضى بالمنزل أسابيع كاملة، وعلى هذا النحو تصادق كل من ابن هشام وأبيك. أما عن ميكال، فقد سقط مريضًا. لم يذهب ليرى أمه وهى تحتضر، ولا هى أرسلت فى طلبه".

"ولكن من كان أيها الزنديق؟ كيف يمكن للماء الزلال أن يتحول إلى لبن حامض بين عشية وضحاها؟"

"لم تر أمى ما حدث، لكن السيدة أسماء أخبرتها بكل شىء. بعد ثلاثة أسابيع من ذلك ماتت أمى نفسها، دون أن يصيبها خلال حياتها أى مرض. كنت قد جئت إلى البلدة وطلبت الإذن لحضور جنازة السيدة أسماء. كان هذا يعد تبجحًا، غير أننى نجحت فى التحدث إلى أمى. كانت مصرة على أن تتحدث بالألغاز والأحاجى. لم تحدد اسم الشخص المعنى، ولكن من مجموع ما قالته لى فى تلك الليلة وكذلك ما رأته أميرة بعينيها، أصبح ما حدث واضحًا أمامنا - أو هكذا كنا نتصور".

أصبحت أنفاس زهير أثقل، وفارت الدماء فى وجهه تعجلًا وتوقعًا، فى حين توقف الزنديق ليشرب بعض الماء.

"أخبرنى أيها الشيخ، أخبرنى!"

"إنك تعرف ذلك المنزل معرفة جيدة يا زهير بن عمر. كانت السيدة أسماء مقيمة فى الجناح نفسه الذى تقيم فيه والدتك الآن. هل يُسمح لأى رجل غريب أو أى رجل من الخدم بالدخول إلى ذلك الجناح؟"

هزّ زهير رأسه بأن لا.

"مَن مِن الرجال بوسعه الدخول والخروج كما يشاء، باستثناء أبيك؟"

"أفترض أنه أنا أو يزيد"

"بالضبط".

لوهلة لم يستوعب زهير ما قيل له. صدمه الأمر مثل ضربة مفا
على رأسه. تطلع نحو الحكاء الشيخ فى ذعر.

"إنك لا تعنى... لا تعنى..." لكن لسانه رفض أن يصرح بالا
المقصود. كان الزنديق هو من نطق أخيرًا بالاسم.

"ميكال. ميجيل. أى فرق يصنعه هذا؟"

"هل أنت متأكد؟"

"وكيف لى أن أتأكد؟ ولكنه الافتراض الوحيد. قبل أسابيع م
اكتشاف الحمل لاحظ الجميع أن ميكال كان يتصرف بطريقة غريب
توقف عن الذهاب إلى الحمام العام بالقرية لكى يتلصص على النسا
العاريات. لم يعد يضحك. وجهه الحليق أصبح ثقيلا ومتجهمًا، وكا
أثر قلة النوم تبدو فى عينيه. وصل بعض الأطباء من غرناطة، ولكن ماذا
كان بوسعهم أن يفعلوا؟ كان الداء يتجاوز قدرتهم على العلاج. وهكذا
وصفوا له هواء البحر والفاكهة الطازجة ومنقوع الأعشاب. وأرسل
عمك الكبير ميكال إلى مدينة «مالقه» لمدة شهر. مجرد الابتعاد عن المنزل
كان له أثر طيب دون شك.

"عندما عاد كان يبدو أفضل حالاً لكنه لم يقترب من غرفة أمه، وه
ما أدهش كل أولئك الذين كانوا لا يعرفون شيئًا عما يفترسه من عذاب
وكرب. أعتقد أنها تحدثت إليه مرة واحدة. فى جنازتها كانت حاله ت
الرثاء. ظل يبكى أربعين يومًا، وظل مريضًا بعد ذلك لمدة طويلة. لم يست
صحته أبدًا. لقد مات أيضًا ميكال الذى كنت أعرفه، وهكذا حصد
الفاجعة نفسها ثلاث أنفس. أما أسقف قرطبة ذاك فما هو إلا شبح".

"ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا أيها الزنديق؟"

"ليس لغزا، فمنذ طفولته كان ميكال هو المفضل. اعتاد أ
يستحم مع أمه والسيدات الأخريات. أخبرتنى أميرة أنه حتى عندما كان
فى السادسة عشرة من عمره، كان يدخل على السيدة أسماء وهى تستحم

، ١٩ًبرً ا ما كان ينضو عنه ثيابه ويقفز إلى الحمام معها.

"وكانت هى ما تزال فى ريعان شبابها. لا أدرى من الذى بادر منهما بما حدث، ولكننى أستطيع أن أتفهم أزمتها. كانت ما تزال امرأة، وما تزال تحن لتلك المتعة الخاصة التى حُرمت منها منذ وفاة ابن فريد. وحين وقع ما وقع، كان شيئًا شديد الدفء وشديد النشوة، مريحًا للغاية وحميمًا للغاية، نسيت تمامًا من هى ومن هو وأين هما. بعد ما حدث مباشرة تحولت ذكراه إلى ألم لا يطاق، لا يمكن التخلص منه فى حالتها إلا بالموت. من نكون لنصدر حكمنا عليها يا زهير؟ كيف يمكننا أبدًا أن نفهم ما كانت تشعر به؟"

"لا أعرف – لا أريد أن أعرف – ولكن ذلك كان جنونًا".

"نعم كان جنونًا، وخلق من حولها القسوة والتعنت. أشك أن القابلة العجوز قد وجدت تشجيعا على تسهيل موت الطفل وأمه".

"لابد من أن تكون السيدة أسماء قد ندمت على التحول إلى ديننا".

"لماذا تقول ذلك؟"

"أظن أنها إذا ما كانت قد بقيت عابدة للأيقونات، لكان بوسعها أن تتظاهر أمام العالم بأن ظهور طفل فى جوفها ليس سوى معجزة ربانية".

"بدأت تتفوه بسخريات مريرة. حان وقت عودتك لمنزلك".

"تعال معى أيها الزنديق. ستكون موضع ترحيب".

جفل الشيخ أمام الدعوة المفاجئة.

"أشكرك. أود حقًا أن أرى زهرة، ولكن فى يوم آخر".

"كيف يمكنك احتمال هذه العزلة يومًا بعد يوم؟"

"أنا أنظر لعزلتى نظرة مختلفة. من هنا أرى الشمس تشرق كما لا يراها أى شخص سواى، ومن هنا أتمتع بمشهد غروبها كما لا يعرفه إلا القليلون. انظر إليها الآن. أليس هذا هو لون الفردوس؟ وهناك كذلك مخطوطاتى التى تنمو مع كل عام، للعزلة مسراتها يا صديقى".

"ولكن ماذا عن آلامها؟"

"فى كل أربع وعشرون ساعة هناك دائمًا ساعة يملؤها ال
والرثاء للنفس، والارتباك والرغبة فى رؤية وجوه أخرى، ولكنها
ساعة لا تلبث أن تمر، والآن طر يا صديقى، لديك شئون خطيرة لتتع
معها الليلة، ولا تنس أن تحضر لى الشاب الذى يَدَّعى أنه من أحفاد ا
خلدون".

"لماذا تشك به هكذا؟"

"لأن عائلة ابن خلدون قد هلكت تمامًا، عندما تحطمت
سفينة خلال رحلة من تونس إلى القاهرة! والآن... فلتذهب، صح
السلامة!"



الفصل السادس

«عندما أكبر أيها القزم، أريد أن أكون طباخًا... مثلك تمامًا».

كان الطباخ الأول بالمنزل جالسا أمام وعاء هائل، يدق مزيجًا من اللحم والحبوب والطحين بيد هاون خشبية كبيرة، فابتسم وهو يتطلع إلى الصبى الجالس قبالته تمامًا على مقعد منخفض صغير.

قال وهو ما زال يدق اللحم: «يا يزيد ابن عمر، إنه عمل شاق للغاية، وعليك أن تتعلم كيف تطبخ مئات الأصناف قبل أن يرضى أى شخص بتشغيلك عنده».

«سوف أتعلم أيها القزم، أعدك بذلك».

«كم مرة تناولت الهريسة؟».

«مئات وآلاف المرات».

«صحيح تمامًا يا سيدى الصغير، ولكن هل تعرف كيف يتم صنعها، وما المكونات التى نستخدمها لتعطى اللحم النكهة. كلا، لا تعرف! هناك أكثر من ستين وصفة لهذا الصنف وحده، وأنا أطبخه بالطريقة التى أوصى بها المعلم العظيم البغدادى، ولكنى أنتقى بنفسى ما أضيفه من أعشاب وتوابل».

«هذا ليس صحيحًا. أخبرتنى "آمه" أنك تعلمت كل ما تعرفه من أبى. تقول: إنه كان سلطان الطُهاة».

«ومن الذى علم أبى؟ إن "آمه" تلك كبرت وخرفت. لمجرد أنها كانت تعرفنى منذ أن كنت فى سنك تظن أننى لا أملك مهاراتى الخاصة. لا جدال فى أن أبى كان أكثر إبداعًا فى مجال الحلوى. كان

مزيج التمر والشعيرية المطبوخان فى اللبن على نار هادئة، الذى يعد
للاحتفال بالأعراس والأعياد والولائم، له شهرة طافت بالأندلس
كلها. أتى سلطان غرناطة إلى هنا بمناسبة عُرس جدك. وبعد أن تناول
طبق الحلوى أراد أن يأخذ أبى معه إلى قصر الحمراء، ولكن ابن عمى
-رحمه الله- قال: «أبدًا».

«ولكن فى مملكة الطعام الحقيقى لم يكن أبى بمثل براعة جدك
وكان يعرف هذه الحقيقة تماما. أرأيت يا سيدى الصغير؟ لا يمكن
للعبقرى أبدا أن يعتمد على وصفات الآخرين. كم قبضة من الملح؟
ما مقدار الفلفل؟ أى أعشاب؟ ليست مسألة تعلم، على أهميته، ولكنها
مسألة غريزة خاصة. هذا هو سر صنعتنا الوحيد. وتحدث المفاجآت على
هذا النحو. تشرع فى إعداد صنف مفضل ثم تكتشف بأن المطبخ خال
من البصل. تطحن بعض الثوم والزنجبيل وحبات الرمان والفلفل الحار
حتى يصبح هذا كله عجينًا فتستخدمها بديلاً. كوب صغير من عصير
العنب المخمر فتحصل على صنف جديد فاخر، تتذوقه السيدة زبيدة
التى يعرف الجميع سماحتها وكرمها، عند تقديم العشاء، فلا تنخدع ولو
للحظة واحدة. تدرك على الفور أن هذا شيء جديد تمامًا. بعد الطعام
تستدعينى للمثول بين يديها، فتهنئنى وتسألنى عن بعض التفاصيل
أُطلعها بطبيعة الحال على سرى، ولكن حتى وأنا أتحدث إليها أكون قد
نسيت المقادير الدقيقة للمكونات التى استخدمتها. قد لا أعود لإعداد
هذا الصنف مرة أخرى أبدًا، ولكن من يتذوقه مرة لن يكون بوسعه
نسيان نكهة المزيج الفريد . صنف الطعام الطيب حقًا مثل أى قصيدة
عظيمة لا يمكن تكرارها حرفيًا. إذا كنت تريد أن تكون طباخًا فلتجرب
ولتتذكر ما أخبرتك به توًا».

كان يزيد منبهرًا للغاية، وتساءل:

«أيها القزم؟ أتعتبر نفسك عبقريًا؟».

«بالطبع، سيدى الصغير، لماذا إذن أخبرك بكل هذا؟ انظر للهريسة التى أعدها، اقترب وشاهدها بإنعام».

قَرَّبَ يزيد مقعده الصغير من الطباخ وتفرس فى الوعاء.

«ظلت تنضج طوال الليل. فى الماضى لم يكونوا يستخدمون إلا لحم الضأن، ولكننى كثيرًا ما أستخدم لحم العجول أو الدجاج أو لحم البقر، بغرض تنويع المذاق، وإلا فسوف تمل أسرتك من طبخى، وسيضايقنى هذا كثيرًا».

«ما الذى وضعته فى هذه الهريسة؟».

«لحم عجل كامل، وثلاثة أكواب من الأرز، وثلاثة أكواب من حبوب القمح المقشورة، وكوبا من العدس البنى، وكوبا من الحمص. ثم ملأت الوعاء ماءً، وتركت الخليط ينضج طوال الليل، ولكن قبل أن أغادر المطبخ وضعت بعض بذور الكزبرة الجافة، وبعضًا من حب الهال الأسود فى كيس صغير من قماش قطنى خفيف، وغمسته فى الوعاء، وعند طلوع النهار كان اللحم قد ذاب تمامًا، والآن أنا أطحنه ليصير عجينًا. ولكن قبل أن أقدمه لكم لغداء يوم الجمعة، ما الذى سأقوم به أيضًا؟».

«سوف تقلى بعض البصل والفلفل الحار فى الزبد المصفى وتصبهما على الهريسة».

«أحسنت يا سيدى الصغير! ولكن البصل لابد من أن يتوهج ويطفو على سطح الزبد المصفًّى. ربما أضيف شيئًا ما لهذا الصنف فى الأسبوع القادم، ربما ستتوافق جيدًا مع الهريسة بضع بيضات مقلية فى الزبد ومرشوش عليها الأعشاب والفلفل الأسود. ولكنها قد تكون ثقيلة للغاية على المعدة قبيل صلاة الجمعة، وقد يكون الضغط شديدًا بحيث أنهم حين يركعون مستقبلين القبلة برؤوسهم تصدر عن الناحية الأخرى من أجسامهم ريحٌ كريهة. لن يسعد بهذا من يقفون ورائهم مباشرة فى مرمى النيران».

ارتفعت ضحكات يزيد وأصابت القزم بالعدوى فابتسم ابتسامة واسعة، ثم اكتسى وجه الصبى بجدية تامة. ظهرت على جبينه تقطيبة هينة، إذ مرت بخاطره فكرة ما.

«أيها القزم؟».

«نعم».

«ألا تتمنى فى بعض الأحيان لو لم تكن قزما، بل رجلا كبيرًا طويلاً مثل زهير؟ ساعتها كان يمكنك أن تكون فارسًا بدلاً من البقاء فى المطبخ طوال اليوم؟».

«بارك الله فيك يا يزيد بن عمر. دعنى أروى لك حكاية، ذات مرة، على عهد نبينا صلى الله عليه وسلم، أمسكوا بقرد يبول على جدار جامع».

بدأ يزيد يقهقه.

«من فضلك لا تضحك. كانت تلك إساءة كبيرة. اندفع خادم الجامع نحو القرد وصاح به: «أيها القذر الكافر! ألا تخشى عقاب الله؟ ألا تخشى أن يسخطك الله فيحولك مخلوقًا آخر؟» كان ذلك القرد وقحًا، فرد هذا المخلوق المتغطرس: «لا أخشى إلا أن يسخطنى غزالاً!».

أرأيت يا سيدى الصغير العزيز؟ إننى أفضل أن أكون طباخًا أبدع أصناف الطعام فى مطبخكم على أن أكون فارسًا أخشى باستمرار أن يصيدنى فرسان آخرون».

«يزيد، يزيد! أين هذا العفريت الصغير يا أميرة؟ اذهبى واعثرى عليه. أخبريه أننى أريد أن أراه».

كان صوت ميجيل يتردد فى الفناء الخارجى حتى بلغ المطبخ. نظر يزيد نحو القزم ووضع أصبعه على شفتيه. ساد صمت تام إلا من صوت بقبقة القدرين الكبيرين بما فيهما من مرق العظام وبقايا لحم الذبيحة. ثم تحرك يزيد واختبأ وراء المنصة الموضوعة خصيصًا بالمطبخ؛ ليتمكن القزم من الوصول إلى القدور والأوانى. لم يجِدِ ما فعله نفعًا، فقد دخلت "آمنه"

[illegible]ت مباشرة نحو مَخْبئه.

«بحق الله! اخرج وقدم التحية لعمك الكبير، ستغضب منك [illegible] الغضب إن لم تتصرف بأدب».

ظهر يزيد من جديد، واكتسى وجه القزم بالتعاطف.

تساءل الصبى: «أيها القزم؟ لماذا تصدر عن عمنا الكبير ميجيل [illegible] الرائحة الكريهة. إن "آمه" تقول...».

«أعرف ما تعتقده "آمه"، ولكن يجب أن نجيب عن ذلك إجابة [illegible] فلسفة. كما ترى، أى شخص يحشر نفسه بين البصلة وقشرتها لا [illegible] سوى رائحتها الحادة».

حلقة "آمه" فى القزم مغضبة وأمسكت بيزيد من يده. أفلت منها [illegible] راكضًا من المطبخ نحو المنزل. كانت خطته هى أن يتجنب المرور [illegible] تمامًا وأن يحاول الاختباء فى الحمام مستغلاً المدخل السرى من [illegible] الجانبى للمنزل، ولكن ميجيل كان بانتظاره، وأدرك الصبى أن [illegible] خاسرة.

«السلام عليكم يا عمى الكبير».

«بوركت يا صغيرى، فكرت أن نلعب مقابلة شطرنج قبل الغداء».

ابتهج يزيد فى الحال. فيما مضى، كان كلما اقترح لعب مباراة شطرنج [illegible] أحد الكبار، كانوا يقاومون أى تطفل منه على وقتهم وخصوصيتهم. [illegible] لما تحدث إليه ميجيل خلال زياراته المعدودة، ناهيك عن أى تفاعل [illegible] معه. اندفع الصبى إلى الداخل وعاد بقطع الشطرنج. بسط الرقعة [illegible] المهدة وأفرغ محتويات الصندوق بحرص، ثم أدار ظهره للأسقف [illegible] ملكة فى كل يد، ثم مد قبضتيه المغلقتين نحو عمه الكبير. اختار [illegible] القبضة التى فيها الملكة السوداء. لعن يزيد الحظ بينه وبين نفسه. [illegible] ذلك لاحظ ميجيل الشكل المميز لمجموعة قطع الشطرنج، وراح [illegible] القطع باهتمام، وتلون صوته بفحيح الخوف حين تحدث قائلا:

«من أين جئت بهذه؟».
«هدية عيد ميلادى من أبى».
«ومن نحتها لك؟».
كان اسم خوان النجار على وشك أن يفلت من فم يزيد حين تا
أن الرجل الجالس قبالته لم يكن إلا خادما من خدم الكنيسة. انغ
تعليقٌ شارد من تعليقات "آمه" فى عقله كتحذير، والآن يلعب ذ
الاستشفاف الخاص بالأطفال دوره.
«أعتقد أنه كان أحد الأصدقاء من إشبيلية».
«لا تكذب على أيها الصبى. لقد استمعت خلال حياتى إ
اعترافات كثيرة، بحيث يمكننى عند سماع نبرة صوت أى شخص ا
أميز إن كان ينطق بالحق، وأنت تكذب. أريد منك جوابًا».
«حسبتك تريد أن تلعب الشطرنج».
نظر ميجيل بعينين براقتين نحو الوجه المضطرب للصبى الجال
قبالته، الذى يُذكره رغمًا عنه بطفولته الخاصة. لقد كان يلعب الشطر
فى هذا الفناء نفسه وعلى رقعة القماش هذه نفسها، وفى ثلاث مناسبا
تنافس مع سيد من سادة قرطبة. تذكر ميجيل كيف كانت الأسرة بكاما
تتحلق حول المنضدة لتتابع بحماس كيف كان يغلب السيد فى كل مر
ثم ينبعث الهتاف والتهليل وتنطلق الضحكات، وأخوه يرفعه فى الهوا
احتفالاً به. كان أسعدهم جميعا أمه أسماء. اقشعر بدنه للذكرى، وتطا
أمامه فرأى هند وكلثوم وذلك الزائر المصرى الشاب «ابن داوود»، و
يبتسمون له. كانت هند قد رأت كل شيء من بعيد وأدركت أن يزيد
ورطة ما. لم يكن من الصعب عليها أن تستنتج أن الأمر يتعلق بمجمو
قطع الشطرنج. حتى خلال استغراق ميجيل فى حلم يقظته، كان ما زا
قابضًا يده بشدة على الملكة السوداء.
تساءلت الفتاة ببراءة: «هل بدأتما المباراة يا يزيد؟».

«إنه لا يلعب، ولا يتوقف عن اتهامى بالكذب».

قالت هند وهى تحتضن أخاها: «عارٌ عليك يا عمنا الكبير ميجيل، [illegible] يمكنك أن تكون بهذه القسوة؟».

التفت ميجيل نحوها، واختلج أنفه المعقوف اختلاجًا هينًا، وقد [illegible] هت ملامحه ابتسامة باهتة.

«من نحت تلك القطع؟ من أين أتت؟».

«ولِمَ؟ من إشبيلية، بالتأكيد!».

تطلع يزيد نحو أخته مستغربا، ثم تحرك واسترد الملكة السوداء من قبضة ميجيل. ضحكت هند، قائلة:

«لاعبه يا عمنا الكبير ميجيل. قد لا تستطيع التغلب عليه».

رنا ميجيل نحو الصبى. لم يعد يزيد خائفًا، واستعاد وجهه وميضًا [illegible] خابئًا. وجد الأسقف نفسه مرة أخرى على الرغم منه يتذكر صباه. [illegible] الجو المحيط به، هذا الفناء، وصبى شقى فى التاسعة من عمره يتطلع [illegible] بلمحة وقاحة. تذكر ميجيل تحديه لكل نبيلٍ مسيحى يأتى لزيارة [illegible]، كثيرًا ما كانوا يستسلمون، وكيف كان أهلُ المنزل جميعًا يحتفلون [illegible] صاراته.

كم كان غريبا أن يواصل ذلك العالم الذى انتهى بالنسبة له من [illegible] بعيد وجوده فى هذا المنزل القديم. شعر ميجيل فى النهاية بالرغبة [illegible] اللعب مع يزيد وكان على وشك أن يجلس عندما أعلنت "آمه" أن الغداء جاهز.

«هل غسلت يديك يا ميجيل؟» فوجئ أفراد عائلة عمر بن [illegible] الله بصوت زهرة الحاد، ولكن شقيقها ابتسم ناظرًا نحوها. كان [illegible] عرف صوتها جيدًا.

«لم أعد فى العاشرة من العمر يا زهرة».

«لا أهتم إذا ما كنت فى العاشرة أم فى الثمانين، اذهب واغسل يديك».

رأى يزيد هند وهى تجاهد لكى تمنع نفسها عن الضحك، فانطا.
يقهقه بلا قيود، مما جعل شقيقته تدمع من فرط كبحها لمرحها، وعنا.
أصابت عدوى الضحك زبيدة أدرك ميجيل أن عليه أن يتصرف بسر...
بحيث لا تتحول مناسبة الغداء العائلى إلى حلقة سيرك. ضحك ضحكة فاتر
«أميرة! لقد سمعت أوامر زهرة، فهيا».

أحضرت "آمه" وعاء مملوءا بالماء، وتبعها خادم صغير الس
يحمل طستًا صغيرًا، ومن ورائهما أحد صبية المطبخ يمسك بمنشفة
غسل ميجيل يديه وسط صمت مرتبك وعندما انتهى هتفت شقيقته:

«كانت هذه هى الحال نفسها حين كنت صبيًا. إذا أغمضت عينىّ
فيمكننى أن أسمع صرخاتك، وكل من أم زيدون، وأمك -رحمها الله- يصب
رأسك وجسمك، ويحممانك كما يجب، ثم يطرحانك فى مغطس الحمام».

توتر زهير من هذه الإشارة إلى السيدة أسماء، وتطلع نحو زهر
وميجيل، غير أنه لم يبد عليهما أى أثر من الانفعال. نظر ميجيل نحو
شقيقته وأومأ.

«تسرنى رؤيتك وأنت تعودين لهذا المنزل يا أختاه».

تناولوا وجبة منتصف النهار بشهية كبيرة. كان القزم الذى يسترق
السمع كالعادة من الغرفة المجاورة يشعر بالرضا من مستوى الثناء
تطايرت عبارات الإطراء عبر الغرفة مثل طيور أليفة، وبلغ القزم قمة
الرضا حين أكد كل من ميجيل وزهرة فى عفوية أن هريسته تتفوق بلا
حدود على تلك التى كان يعدها أبوه المرحوم المأسوف عليه كثيرًا. عندئذ
فقط عاد سيد الطهاة إلى مطبخه راضيًا عن صنعته وعن عالمه.

سألت زهرة أخاها: «سمعت أنك تعيش حياة رخية فى قصر
الأسقف بقرطبة، يقوم على خدمتك القساوسة وابنك البدين. لماذا يا
ميجيل؟ لماذا انتهى بك المآل إلى هذا؟».

لم يحر ميجيل جوابًا. راح زهير يتفحصهما باهتمام وهما يأكلان. لا

ذلك فى أن زهرة تعرف السبب الحقيقى وراء قرار ميجيل بأن يقطع كل صلة تربطه بعادات وسبل عيشهم القديمة، ثم أعلن عمر أن الوقت كان قد حان لخروج الرجال. نهض كل من ابن داوود ويزيد وزهير واقفين واستأذنوا فى الانصراف. غادروا الغرفة ليستعدوا للركوب حتى الجامع من أجل صلاة الجمعة.

غسلت زهرة وميجيل أيديهما وانتقلا إلى الفناء، حيث كانت قد أعدت لهما دكة خشبية مغطاة بالسجاد فى موضع يتمتعان منه بشمس الشتاء. أحضرت "آمه" صينية مقسمة إلى أقسام مختلفة، بكل منها اللوز والجوز والتمر والزبيب، ووضعتها بينهما.

«لله الحمد والشكر. كم يسر قلبى أن أراكما بالدار».

وهو يقوم بنزع نواة تمرة ليضع محلها ثمرة لوز، قال ميجيل: «إذا سمحت يا أميرة اطلبى من زوجة ابن أخى الانضمام إلينا لبضع دقائق».

عادت "آمه" بخطوتها الثقيلة للمنزل عندما كررت زهرة سؤالها:

«لماذا يا ميجيل؟ لماذا؟».

بدأ قلب ميجيل يخفق بقوة، كان وجهه قد اعتاد إخفاء كل العواطف، لكنه اكتسى فجأة بالغم والكرب.

«ألا تعرفين حقا؟».

هزت زهرة رأسها نفيًا. رأيا زبيدة تقترب، وبقى ما كان ميجيل على وشك أن يبوح أو لا يبوح به لها دفينًا فى قلبه.

قال ميجيل: «اجلسى يا ابنتى، عندى أمر مهم أريد أن أخبرك به، ومن الأفضل أن يقال والرجال بالخارج».

جلست زبيدة إلى جواره.

«أثرت اهتمامى أيها العم ميجيل. كلى آذان صاغية».

«إنه عقلك الذى أريد أن أخاطبه لا أذناك. إن شطرنج يزيد هو أخطر سلاح يمكن أن يكون فى هذا المنزل. إذا وصل الأمر لرئيس

الأساقفة فى غرناطة فسوف يبلغ محكمة التفتيش، وبخاصة إن كا
القطع قد صنعت فى إشبيلية».
«ومن أخبرك بأنها صنعت فى إشبيلية؟».
«يزيد وهند».
تأثرت زبيدة أمام رغبة أطفالها فى حماية خوان النجار. كان الع
فى القرية قد جعلها مطمئنة هانئة، وكادت للوهلة الأولى أن تخبر ميج
بالحقيقة، ولكنها توقفت، متروية فى الأمر وقررت أن تتبع الخط ال
مده ابنها يزيد.
«إنهما يعرفان بالطبع».
«أنت ساذجة يا زبيدة. لم آت إلى هنا لكى أتجسس على عائل
أريدكم أن تحرقوا قطع الشطرنج تلك، فقد تكلف الصبى حياته. فى ه
القرية الجميلة يحملنا خرير المياه العذب مهدهدًا إلى عالم من الأ
من السهل، من السهل للغاية، الشعور بالاطمئنان الزائف والرضا
النفس. كنت أظن أننا سنكون هنا فى مأمن للأبد، ولكننى كنت
العالم الذى ولدت فيه قد ذهب يا صغيرتى، وعاجلاً أو آجلاً س
الرياح حاملة بذور دمارنا، سوف تخترق الجبال وتصل حتى هذا الم
لابد من أن يتم تحذير الصغار. إنهم ضيقوا الصدر عنيدون. فى
ذلك الصبى الصغير رأيت ما كنت أتصف به قبل زمن طويل من
واستخفاف، وهند فتاة فى غاية الذكاء، وأدرك سبب عدم رغبتك
تزويجها لابنى خوان. لا تعترضى يا زبيدة. قد أكون متقدمًا فى ال
ولكننى لست خرفًا بعد. لو كنت فى مكانك لفعلت الأمر نفسه. لم
دوافعى هى ترقية حال ابنى بمصاهرتكم، ولكن أن يتحقق الأ
لأبنائكم. كما أنها دوافع عاطفية أيضًا، أن يتزوج خوان من العائلة»
على الرغم منها، ومع شعورها بالنفور والمقت نحو ميجيل، لم
زبيدة حديثه بعدم اكتراث أو استهانة. كانت تعرف أنه ينطق بالحقيقة

«لِمَ لا تتحدث إليهم جميعًا الليلة يا عم ميجيل؟ ربما يكون لذلك الـ اْ...ق من أى شىء قد أقوله أنا، وعندئذ يمكننا أن نناقش ما يجب ...له بشأن شطرنج يزيد. سوف ينفطر قلب الولد».

«يسعدنى أن أتحدث إليكم جميعًا الليلة، فهذا هو الغرض من ...ارى على كل حال».

اقتحمت زهرة حديثهما ضاحكة: «لقد ظننت أن نيافتكم قد جئتم ...ا ..ى، أيها الغربال القديم الممزق!».

وهى تنظر إليهما تذكرت زبيدة شيئًا كانت أمها قد علمتها إياه وهى طفلة، مما جعلها تضحك.

تطلع نحوها الاثنان بنظرات متفرسة.

طالبتها زهرة قائلة: «أضحكينا معك فورًا».

«لا أستطيع يا عمتى. لا ترغمينى، إنها أشياء طفولية للغاية لا يصح أن تقال».

قال ميجيل: «دعى الحكم على هذا لنا، إننا مصران».

نظرت زبيدة نحوهما وراحت تضحك من جديد لسخافة الأمر ...له، غير أنها أدركت أنه لا مفر أمامها من أن تتحدث.

«عندما ذكرت عمة الأولاد الكبيرة الغربال القديم تذكرت ا...ة هزلية للأطفال تقول:

دبت مشاجرة كبيرة بين الإبرة والغربال؛

قالت الإبرة: «إنك ممتلئ بالثقوب - كيف ما زلت حيًا؟».

أجابها الغربال بابتسامة ماكرة: «إن الخيط الملون الذى أراه ليس ...يه للتزين، إنه يمر من رأسك!».

رأت زبيدة نظراتها القاسية تتحول إلى ضحكات.

تساءلت زهرة: «أكان هو الغربال؟».

فأومأت زبيدة بالإيجاب.

وتساءل ميجيل: «وهى الإبرة؟».

أومأت زبيدة من جديد بالإيجاب، وللحظات استعادوا [illegible]
وتبادلوا النظرات فى صمت. ارتفعت موجة من الضحك بداخل
منهم ثم طفت على السطح فى اللحظة نفسها.

وبينما هدأت الضحكات، شعرت "آمه" الجالسة تحت [illegible]
الرمان بدموع تنثال على وجهها. كانت تلك هى المرة الأولى التى [illegible]
فيها ميجيل فى هذا المنزل منذ وفاة أمه.

ذلك الجو المطمئن فى فناء منزل عائلة بنى هذيل القديم لا [illegible]
أن يكون أشد اختلافًا عن جو التوتر الذى خيم على جامع القرية [illegible]
الجمعة. مرت الصلاة دون أى حدث غير عادى، رغم استياء عمر [illegible]
وصوله عندما لاحظ بضعة مواضع خالية فى الصف الأول [illegible]
لعائلته احترامًا لمكانتهم، على الرغم من تعليماته بخلاف ذلك. فى [illegible]
القديمة كان الناس يقفون ويصلون حيثما وجدوا موضعا، فالدين [illegible]
لا يفرق بين عباد الله بسبب مكانتهم الاجتماعية، الجميع سواسية أمام [illegible]
فى بيته.

كان ابن فريد هو الذى أصر على تخصيص الصف الأول [illegible]
عندما أعجبه ما يفعله النبلاء المسيحيون بحجز المقصورة [illegible]
خصيصًا لهم فى الكنيسة. كان يعرف أن مثل تلك العادات مكروهة [illegible]
الإسلام، ولكنه أصر بالرغم من ذلك على تقديم قدر من التميز [illegible]
الأرستقراطية من المسلمين فى الجامع.

وقف عمر فى تحفظ بالصفوف الخلفية ومعه القزم و[illegible]
آخران من خدم المنزل، ولكن زهير ويزيد امتدت نحوهما [illegible]
المعاونة وقدمتهما نحو الصدارة، وقد شُدَّ معهما ابن داوود.

انقضت الصلاة، ونهض الإمام الشاب بنى العينين، [illegible]
حديثًا إلى القرية، وبدأ يتأهب لخطبة الجمعة. كان سلفه الشيخ [illegible]

من المتبحرين فى اللاهوت. ويجل الجميع شخصه كل الإجلال. كان ابنًا لفلاح فقير، تعلم فى مدرسة غرناطة، واكتسب قدرًا كبيرًا من المعرفة، دون أن يجعله ذلك يتنكر لأصوله أبدًا. أما خلفه هذا فكان فى أواخر الثلاثينيات من عمره. تبرز لحيته البنية الكثيفة بياض عمامته، وكذلك بياض بشرته. كان متوترًا قليلاً وهو ينتظر حتى يتم جلوس المصلين وينضم لهم من أتوا متأخرين من غير المسلمين. كان مسموحا لليهود والمسيحيين من أبناء القرية الصغيرة بحضور اجتماع ما بعد صلاة الجمعة. سُر يزيد لرؤية خوان النجار وابن حصد يدخلان إلى صحن الجامع، وكان بصحبتهما شيخ يرتدى عباءة داكنة الحمرة. تساءل يزيد من قد يكون هذا الشخص فلكز أخاه بمرفقه. تعرف زهير على وجيد الزنديق وسرت فيه رعشة طفيفة، غير أنه لم يقل شيئا.

قطب يزيد جبينه فجأة، فقد نهض عبيد الله، الوكيل المدبر لجميع ضياع وممتلكات الهذيل، الذى يرهبه الجميع، وجلس وراء زهير مباشرة. كانت "آمه" قد روت ليزيد الكثير من الحكايات المشينة عن فساد هذا الرجل وفسقه، مما زرع فى نفس الولد كراهية عمياء له. ابتسم الوكيل لزهير وهما يتبادلان التحية. حملق يزيد بسخط. كان متلهفًا للحديث مع خوان ليبلغه بأن العم الكبير ميجيل راح يطرح الأسئلة حول قطع الشطرنج، ولكن زهير قطب جبينه نحوه ووضع ذراعه الثقيلة على كتف الصبى ليمنعه من التملص والتسلل.

همس بغضب فى أذن يزيد: «فلتتصرف بوقار ولا تنس أبدًا أننا فى أنظار العامة والناس، إن شرف بنى هذيل على المحك، وربما نضطر لقيادة هؤلاء الناس إلى الحرب. لابد من ألا يفقدوا احترامهم لنا».

«هُراء»، هكذا غمغم يزيد بصوت مهموس، ولكن قبل أن يتمكن أخوه من الرد بالمثل، سمعوا الإمام يتنحنح يجلو صوته ثم بدأ الحديث.

«بسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليكم يا إخوانى...».

أخذ يكرر فى رتابة الحديث حول أمجاد الأندلس وحكامها المسلمين. كان يريد ألا يدع مجالاً للشك فى أن الإسلام الذى انطلق من المغرب هو الإسلام الوحيد الحق، وأن الخلافة الأموية فى قرطبة وخلفاءها الأمويين قد دافعوا عن صحيح الدين كما وضع أسسه نبينا الكريم وصحابته، أما الخلافة العباسية فى بغداد فقد آلت إلى الفساد والانحطاط.

كان يزيد يسمع مثل هذا الحديث فى الجامع منذ أن بدأ يحضر صلاة الجمعة. يذكره كل أولئك الأئمة بالمربية "آمه"، عدا أنه يمكنه أن يستوقف "آمه" ويطرح عليها سؤالا ويحيد بالحديث عن كل هذه الأمور السامية، أما فعل ذلك فى الجامع فكان ضربًا من المستحيل.

لم يكن يزيد هو الشخص الوحيد فى جمع المصلين الذى غفل عن الانتباه لحديث الإمام، ففى نهاية المسجد كان بعض المعتادين على تلك الخطب قد بدأوا يتهامسون فيما بينهم. كان من العسير ألا يشعر المرء بالأسف نحو الشاب الذى يجاهد من أجل فرض إرادته على جمع من الناس لا يتعاطفون مع الوافدين أو المبتدئين، ولهذا السبب وضع عمر بن عبد الله أصبعه على فمه وحدج المتهامسين بنظرة صارمة. كان هذا التشجيع كافيًا لإراحة الرجل ذى اللحية البنية، الذى اشتعل بموجة جديدة من الحماسة وخرج عن النص الذى أعده بكل دقة واعتناء، وتخلى عن الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم بعد أن أمضى نصف ليلته يتأملها ويحفظها. بدلاً من ذلك أعرب عن أفكاره الحقيقية.

«من بعيد يمكننا أن نسمع الأجراس الكئيبة لكنائسهم تدق دقات منذرة بالشؤم بحيث تأكل أصواتها أحشاءنا. لقد أعدوا بالفعل لنا الأكفان. ولهذا السبب فإن قلبى مثقل ونفسى مغتمة وعقلى فى عناء دائم. لم تمض إلا ثمان سنوات منذ أن استولوا على غرناطة، ولكن عددا كبيرا من أبناء الإسلام يشعرون بالشلل والخرس. هل حلت نهاية عالمنا؟ كل ما يقال عن مامر

الله صحيح، ولكن ما نفعه الآن لنا؟ كيف حدث لنا نحن من امتلكنا شبه الجزيرة فى راحة يدنا إن تركناها تتسرب من بين أصابعنا؟

«كثيرًا ما أسمع كبارنا يتحدثون عن نوائب أشد سوءًا نزلت بنبينا صلى الله عليه وسلم، وكيف تغلب عليها كلها. هذا كله صحيح بغير شك، ولكن فى ذلك الزمان لم يكن أعداؤه يفهمون قوة الكلمة الصادقة كما يجب. إننا الآن ندفع ثمن خروج ديننا إلى بقية العالم. إن الملوك المسيحيين لا يخشوننا وحدنا، ولكنهم يرتجفون رعبًا حين يسمعون إن سلطان تركيا يفكر فى إرسال أسطوله لمساعدتنا. هنا يكمن الخطر، ولهذا يا إخوانى أخشى أن يقع ما هو أسوأ. لقد صرح خيمنيث لخاصته بأن السبيل الوحيد لهزيمتنا هو تدمير كل شىء...».

كان الجمع يستمع فى صمت لكل كلمة يقولها الإمام الشاب. عمى يزيد، المنتقد القاسى لهذه الشعائر الدينية، كان منبهرًا بما أظهره الإمام من أمانة وصراحة. كان جليًا أنه يتحدث بما فى قلبه. أما شقيقه ماهر فكان أقل تأثرًا، شعر بالحنق من الملاحظة المتشائمة التى سمعها. هل سيقدم الرجل أى حل للمعضلة أم أنه سيكتفى بإضعاف معنويات عامة المصلين؟

«إننى أتذكر ماضينا، ورايتنا ترفرف خفاقة، وفرساننا ينتظرون بلهفة صدور الأوامر بخروجهم إلى القتال. أتذكر القصص التى سمعناها صغارًا عن أشجع فرساننا: ابن فريد -رحمة الله على روحه- عندما تحدى عشرة بيهم وقتلهم جميعا خلال نهار يوم واحد. أتذكر هذا كله وأسأل العلى القدير غوثه وعونه. لو أننى على ثقة من أن سلطان تركيا سوف يرسل لنا سفنه وجنده لكنت على أتم الاستعداد للتضحية بكل جزء من جسدى لإنقاذ مستقبلنا. ولكننى أخشى يا إخوانى أن تكون تلك كلها أمانى باطلة، وقد سبق السيف العذل. ليس بأيدينا إلا حل واحد، أن نسلم أمرنا كله لله!».

كان زهير مقطب الجبين. إن إنهاء الخطبة دون موعظة ودعاء كان
تماما طريقة خارجة عن الأعراف والتقاليد في الأزمنة الأفضل، أما ..
أخذ الموقف الراهن في الاعتبار فقد كان تخليًا غير مسبوق عن واجـ
رجل الدين. لعله توقف للتفكير، ولكن كلا! لقد أنهى خطبته. انه
مجلسه في الصف الأول على مبعدة ثلاثة أشخاص من يزيد.

عادة ما يتفرق جمع المصلين بعد انتهاء الخطبة الثانية، ولكن هذا ل
يحدث في هذه الجمعة بالذات، كما لو كان المشهد كله قد تجمد. لم يتحرك
أحد. ولا يمكن تخمين كم من الوقت سوف يبقون ساكنين وصامتين
ولكن عمر بن عبد الله كان يدرك أنه لابد من القيام بفعل ما، فنهض
واقفًا مثل حارس متوحد على قمة أحد الجبال، يسرح بصره في المشهد
المتسع من حوله. لم يحذ أحد حذوه، ولكنهم تحركوا جميعًا في انسجام، كـ
لو كانوا قد تدربوا على ذلك، ليفسحوا له مجالاً للمرور بينهم. سار ببطء
بين الصفوف. تطلع يزيد نحو أبيه، وتلألأت عيناه بالتوقع والفخـ
كانت ملامح وجه زهير جامدة كالقناع، ولكن بداخله راحت ضربات
قلبه تتسارع.

بقي عمر بن عبد الله نحو دقيقة غارقًا في أفكاره. كان يعرف أ
في مثل تلك اللحظات، حين تتجمع نذر الكارثة الوشيكة فوق رؤوس
الناس، فإن كل كلمة وكل عبارة تكتسب أهمية مضاعفة. لهذا السـ
لابد من اختيار كل شيء بأشد الحرص، ولابد من توافق النبرة والإيـ
مع الألفاظ. للبلاغة قواعدها وللبيان سحره. أما هذا الرجل الذي
في أحضان الطمأنينة المزخرفة لممتلكات العائلة، الذي استحم في المـ
المعطر بزيت زهر البرتقال، والذي كان على الدوام محاطًا بالشذى الر
للأعشاب الجبلية، وتلقى منذ نعومة أظفاره فن إدارة حياة الآخـ
رجالًا ونساءً، فإنه كان يعرف ما ينتظرونه منه.

راحت أقبية ذاكرته تفيض وتتدفق محتوياتها، غير أنه لم يجد من

تلك الذكريات أى شىء يمكنه أن يتشبث به، ليقدم لأولئك الجالسين أمامه ولو قدرا قليلا من راحة البال.

بدأ عمر يتحدث. أعاد على مسامعهم كل ما جرى فى غرناطة تحت احتلال المسيحيين. وصف لهم جدار النيران بصورة واضحة مفصلة. كان يتحدث والدموع تملأ عينيه، وتجاوب جمع المصلين مع أحزانه ودموعه تلك؛ تحدث عن الخوف الذى استبد بكل أهل دار مسلمة؛ وأثار الظنون والمخاوف التى تحوم فوق سماء المدينة مثل سحابة سوداء. ذكَّرهم أن السحاب لا ينقشع نتيجة لنباح الكلاب، وأن مسلمى الأندلس مثلهم كمثل نهر راح يتحول عن مجراه تحت وطأة النظرة القاسية لمحكمة التفتيش.

ظل عمر يتحدث مدة ساعة وهم منصتون لكل كلمة. لا يمكن اعتباره، بأية حال، خطيبًا من المفوهين. فكم كان يتناقض صوته الرقيق وأسلوبه المتواضع مع ما يثيره أئمة المساجد من ضجيج وعجيج، ممن يبدون مثل الطبول الجوفاء، ولا يتوقفون عن ترديد النصوص المقدسة مصحوبة ببلاغة شديدة التكلف. هكذا كانوا يفقدون انتباه مستمعيهم بعد دقائق معدودة، ليس هذا وحسب، بل ويكون لهم تأثير عكسى إذ يصبحون عناصر للدعابة، فينتفع بها يزيد ورفاقه.

أدرك عمر أنه لا يمكنه المضى أكثر من ذلك فى ابتهالاته وتفجعه على ما حل بهم من نوائب. كان عليه أن يقترح طريقة للتصرف. هذا واجبه، بصفته سيد القرية ورأسها، ومع ذلك فقد بقى مترددًا. وإذا توخينا الصدق، فإن عمر بن عبد الله كان ما زال غير واثق من الاتجاه المحدد الذى يريد أن يأخذ قومه إليه. توقف عن الحديث، وراح ينقل بصره مفتشًا بين كبار السن فى القرية. لم يجد أى عون ينبعث عن هذا الاتجاه، وهكذا قرر أنه لا سبيل إلا الصراحة التامة. سوف يفضى إليهم بما لديه من شكوك ومخاوف.

«إخوانى. أود أن أعترف لكم بشىء. إننى لا يوحى إلىَّ من السماء ولا يُطلعنى الله على الغيب. إننى تائه مثلكم جميعًا، وهكذا على أن أصارحكم بأنه ما من حل يسير لكل مشكلاتنا. لقد حذرنا واحد من أعظم مفكرينا، المعلم ابن خلدون، قبل سنوات عديدة من أن الشعب الذى ينهزم ويخضع سرعان ما يُمحَى وجوده. حتى بعد سقوط قرطبة وإشبيلية لم نتعلم أى شىء. لا عذر لنا فى أن نلدغ من الجحر نفسه ثلاث مرات. هؤلاء الذين سعوا للاحتماء بظلال السلطان ثبتت حماقتهم؛ لأن ظلاله سرعان ما تبددت.

«هناك ثلاثة سبل للخروج من المتاهة. الأول هو أن نفعل كما فعل الكثيرون من أشقائنا فى أماكن أخرى. أن نقول لأنفسنا: إن عدوا عاقلًا خير من صديق جاهل وأن نتحول، وفى الآنِ نفسه نتمسك بداخل أفئدتنا بما نريد أن نؤمن به. ما رأيكم فى هذا الحل؟».

لثوان معدودة أخرستهم الصدمة. كانت فكرة مارقة إلى درجة خطيرة، والقرية معزولة تمامًا عن غرناطة، ناهيك عما تبقى من شبه الجزيرة، بحيث لم يكن بوسعهم تصور مثل هذه الطريقة فى التفكير، وسرعان ما ثابوا إلى أنفسهم، وصعدت من مجالسهم على الأرض صيحة موحدة قوية بلغت عنان السماء.

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

اخضلت عينا عمر. أومأ برأسه وخاطبهم من جديد بابتسامة حزينة

«كنت أعرف أن هذا سيكون جوابكم، ولكننى أحسست أن من واجبى أن أحذركم من أن الملوك المسيحيين الذين يحكموننا الآن قد لا يتركون لنا حرية أن نعبد الله بعد ذلك. على أية حال الخيار لابد من أن يكون لكم.

«الاحتمال الثانى هو أن نقاوم أى اعتداء على أراضينا، وأن نقاتل حتى الموت. موتكم، وموتنا جميعا، واستباحة أمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا

بناتنا. إنه خيار مشرف، وإذا اخترتموه فلسوف أحارب معكم جنبًا إلى جنب، وعلى الرغم من ذلك على أن أكون أمينًا معكم، فسوف أرسل نساء وأطفال أسرتى إلى ملجأ آمن قبل المعركة وأنصحكم أن تفعلوا الأمر نفسه. فما شعوركم حيال هذا الأمر؟ كم منكم يرغب فى الموت وسيفه فى يده؟».

لَفَّهم الصمت من جديد، ولكن دون غضب هذه المرة. تبادل كبار السن من الرجال النظرات فيما بينهم. وعندئذ، من مكان ما فى قلب الحشد، نهض خمسة شباب. من الصف الأول وثب زهير الفحل واقفًا. رؤية الناس لسيدهم الصغير يقدم حياته فداءً أحدثت موجة حماسة خافتة، ونهض بعض شباب آخرين واقفين، ولكن ابن داوود لم ينهض. كانت أفكاره هائمة مع هند، التى كانت أصداء ضحكتها تتردد فى رأسه. كان يزيد ممزقًا بين أبيه وأخيه، تألم للحظات ثم نهض وقبض على يد زهير. هذه الإيماءة على وجه الخصوص نجحت فى التأثير فى كل الحاضرين، ولكن لم ينهض فى النهاية إلاالقليلون. أشار عمر نحو ولديه أن يجلسا وتبعهم رفاقهم فجلسوا هم أيضا، ثم تنحنح منظفًا حلقه.

«الخيار الأخير هو أن نغادر أراضينا ومنازلنا فى هذه القرية التى بناها أجدادنا حين لم يكن بها شىء سوى الصخور الضخمة تغطى سطح الأرض. كانوا هم الذين مهدوا أرضها وأخلوها من الشوائب، وهم من عثروا على المياه وبذروا البذور. وهم من رأوا الأرض تهبهم ثمارًا وفيرة. قلبى يحدثنى بأن هذا هو أسوأ الخيارات كلها، ولكن فكرى يساورنى بأنه قد يكون السبيل الوحيد للحفاظ على بقائنا. قد لا يقع ذلك، ولكننا لابد من أن نكون مهيئين عقليًا لمغادرة الهذيل».

قاطع حديث عمر نصف صرخة بصوت مختنق:

«وأين نذهب؟ أين؟ أين؟».

تنهد عمر، وتابع قائلا:

«من الأمان أن نصعد السلم درجة درجة، لا أعرف إجابة ..
سؤالك بعد. كل ما أريد القيام به هو أن أوضح لكم أن ثمن التمسك
بما نؤمن به يتطلب تضحيات بالغة. السؤال الذى علينا أن نطرحه على
أنفسنا هو، هل نعيش هنا كفارًا أم نجد مكانًا نستطيع فيه أن نعبد الله في
أمان. ليس لدى ما أضيفه، ولكن إن كان أى منكم يود التحدث ليقدم
لنا خيارًا أفضل فليتحدث الآن. تحدثوا قبل أن تكمم أفواهنا».

بعد أن نطق عمر بتلك الكلمات، عاد للجلوس إلى جوار يزيد
ضم ولده الصغير إليه وطبع قبلة على رأسه. قبض يزيد على يد أبيه
وتشبث بها تمامًا كما يتشبث الغريق بأى جسم طاف.

تركت كلمات عمر انطباعا عميقًا، ولوهلة لم يتحدث أحد. ثم
نهض ابن زيدون، الذى يدعو نفسه الزنديق، وقف فى مكانه وتساءل
إن كان بوسعه أن يفضى بما يدور فى عقله. التفت عمر نحوه وأومأ بقوة
قطب كبار السن جباههم ومسدوا لحاهم. كانوا يعرفون أن ابن زيدون
رجل مشكك، سمم عددا كبيرا من عقول الشباب. ولكنهم سوّغوا
الأمر لأنفسهم بأنه فى وقت الأزمات، حتى المارقين والخارجين عن
الدين قد يكون لهم الحق فى عرض آرائهم. كان الصوت المألوف لأذن
زهير الفحل قد بدأ الآن يقرقع بالسخط والنقمة.

«ظللت لعشرين عامًا أحاول أن أخبركم أنه لابد من اتخاذ
الاحتياطات الضرورية. الإيمان الأعمى وحده غير كافٍ للوصول إلى
غاية، كنتم تظنون أن سلاطينكم باقون على عروشهم إلى يوم الدين،
وحينما كنت أقول لكم إن من يشرب حساء السلاطين لا ينال إلا اكتواء
شفتيه، هزأتم بى وسخرتم منى، وأعلنتم أننى مارق، ومرتد، وكافر فقد
زمام عقله.

«الآن فات الأوان. تسممت كل العيون والآبار. لم يعد هناك
قطرة ماء عذبة فى شبه الجزيرة بكاملها، وهذا ما حاول عمر بن عبد

الله أن يخبركم به خلال الساعة الماضية. نحن المسلمين ندير أعناقنا على الدوام نحو الماضى، بدلا من التطلع للمستقبل. ما زلنا ننشد الأناشيد التى تتغنَّى بأول لحظة ضربنا فيها خيامنا فى هذه الوديان، وبالزمن الذى الما فيه فى رباط متين دفاعًا عن عقيدتنا، حين كانت راياتنا البيض ترجع من ساحة القتال، وقد تغيرت ألوانها بعد أن نقعت بدماء العدو. وكم من أقداح النبيذ شُربت فى هذه القرية وحدها احتفالا بانتصاراتنا.

«بعد سبعين عاما سئمت العيش. وعندما يعترض الموت طريقى، يخبط تخبط الناقة العشواء، فلن أتنحى جانبًا، من الأفضل لى أن أموت وأنا مالك زمام حواسى على أن أُسحق بعد أن يتوقف عقلى عن العمل. وما يصح للفرد يصح بدرجة مساوية على المجتمع...».

صاح به زهير مكروبًا: «أيها الشيخ! من قال لك إننا مستعدون لأن نستسلم للفناء؟».

أجابه الزنديق بصوت ثابت: «يا زهير بن عمر، لقد كان حديثًا مازيًا. السبيل الوحيد أمامكم، أنتم وأبناؤكم وأبناؤهم، من أجل البقاء ا، بلاد استولى عليها القشتاليون هو أن تسلموا بأن دين آبائكم وآبائهم بو شك على الزوال. لقد أعدوا لنا الأكفان بالفعل».

آلمت هذه الملاحظة المؤمنين، وظهرت بعض الوجوه المحتقنة بالغضب حين تردد التهليل المألوف، يرمونه فى وجه الزنديق.

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

أجابهم الشيخ: «نعم! هذا ما كنا نردده على مدى قرون، غير أن الملكة إيزابيلا وكاهن اعترافها سوف يطعنان قلوبكم برماح مستقيمة ومسنونة».

صاح ابن حصد من نهاية المسجد: «أيها الزنديق، لعل ما تقوله صحيحٌ، ولكننا عشنا خمسمائة عام فى أمان بهذه القرية، وفى كل مكان آخر كان اليهود يقاسون الويلات، إلا هنا. يستحم المسيحيون فى الحمامات

ذاتها التى يستحم فيها اليهود والمسلمون، قد لا يتركنا القشتاليون
حالنا حتى وإن لم نتعرض لهم بأذى».
أجابه الشيخ الحكيم: «هذا من غير المحتمل يا صديقى، وما يد
الكبد قد يضر الطحال. سوف يزعم رئيس أساقفتهم أنهم لو سمح
بالبقاء لشخص واحد فسوف يشجع هذا الآخرين. وفى نهاية الأمر، إ
سمحوا لنا بمتابعة تصرفنا فى هذه الممتلكات والضياع كسابق عهد
فآجلا أو عاجلا سوف يتغير من يستوون على عروشهم من ملو
وملكات، ويأتى آخرون أقل ميلاً للعنف، وربما شجعهم وجودنا عل
إرخاء قبضاتهم عن كل من أتباع نبى الله موسى، وأتباع نبينا محمد، عل
الصلاة والسلام. يودون لو لم يتركوا شيئا منا. هذا كل ما وددت قوله
وأشكر عمر بن عبد الله على السماح لى بالإفصاح عما بداخلى».
بدأ الزنديق يسير مبتعدًا، وضع عمر ابنه يزيد فى حجره وأشار إل
الشيخ ليجلس إلى جواره، وحين استقر على سجادة الصلاة، همس فى أذنه
«تعال وتناول الطعام معنا الليلة يا ابن زيدون. عمتى ترجو ذلك أيضًا»
لوهلة أجفل الزنديق من المفاجأة، ولكنه كبح عواطفه وأو
موافقًا فى صمت. ثم نهض عمر مرة أخرى.
«إن لم يكن هناك شخص آخر يود أن يتحدث فلنتفرق، ولكن
تذكروا أن الخيار لكم. إنكم أحرار فى فعل ما تشاؤون وسوف أقدم لكم
العون على أى نحو أقدر عليه. السلام عليكم».
ردوا: «وعليكم السلام».
عندئذ نهض الإمام الشاب وراح يتلو سورة «الكافرون» ورددها
وراءه الحاضرون، حتى المسيحيين واليهود. الكل عدا الزنديق.
«قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما
أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم
ولى دين».

بعد أن تفرق الجمع، كان يقول: «لابد من أنه كان يشعر بعسر هضم عندما أملى هذه السطور، فالوزن مكسور».

سمعه ابن داوود ولم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام: «حد الردة القتل».

أجابه الزنديق وهو ينظر مباشرة فى عينى الشاب الخضراوين: «نعم، ولكن لا يوجد قاضٍ واحد ما زال حيًا حتى يحكم على بإقامة الحد إلى يومنا هذا. هل أنت من يزعم أنه أحد أحفاد ابن خلدون».

أجاب ابن داوود وهم خارجون من الجامع: «نعم، أنا».

أجاب الزنديق متفكرًا: «غريب! فقد هلكت أسرته بكاملها فى البحر».

«فى الأعوام التالية اتخذ زوجًا أخرى، هى جدتى».

«أمر مشوق. لعلنا نستطيع أن نناقش أعماله الليلة، بعد وجبة العشاء».

«أخبرنى زهير بأنك قد درست أعماله إضافة إلى كثير غيرها. ليس بى أى رغبة للجدال معك أو منافسة معارفك. أعتبر نفسى ما زلت فى رحلة تحصيل العلم».

قدم ابن داوود التحية لمحادثه متوجهًا إلى البقعة التى رُبط فيها الخيل. لم يكن يريد أن ينتظره مضيفه طويلاً، وحين وصل لم ير إلا يزيدًا وزهيرًا. كان الصبى يبتسم، أما زهير فارتسمت على وجهه نظرة عابسة وقطب فى وجه ابن داوود. كان ساخطًا على صديقه الجديد. أمام غرناطة، ألهب ابن داوود مخيلاتهم بحديثه عن الثورة المسلحة ضد المحتلين، وهنا راح يتمايل مع الريح. حدق زهير ببرود فى القاهرى وتساءل إن كان يؤمن بأى شىء حقًا.

تساءل الضيف مستشعرًا شيئًا من الضيق: «أين والدكم الموقر؟».

أجابه زهير باقتضاب: «يقضى بعض شئونه، هل أنت مستعد؟».

كان عمر محاطًا برجال القرية من كبار السن، كانوا متلهفين على مناقشة المستقبل بقدر أكبر من التفصيل والخصوصية فى منزل مألوف

لهم، ولذا توجهوا جميعًا إلى منزل ابن حصد الإسكافى، حيث قدم ا
واجب الضيافة: كعك اللوز والقهوة المحوجة بحب الهال المـ
بالعسل.

كان زهير مضطربا بعد ما جرى فى الجامع، وكان غضبه مو
نحو نفسه. للمرة الأولى يدرك مدى تأزم الموقف حقًا، وبدا أنه لا منا
ولا مهرب. هو الآن يعرف أن أى عصيان أو تمرد فى غرناطة محكوم
بالفشل. تعلم من نظرات الهزيمة واليأس على وجوه المصلين بالجا
أكثر مما تعلمه من كل أحاديث عمه الكبير ميجيل وعمه هشام، و
ذلك... ومع ذلك فقد تم التخطيط لكل شيء. فات أوان التراجع.

بدا وكأن زهيرًا قد نسى وجود ضيف يركب إلى جواره، ولـ
بطن جواده برفق فاستجاب له الجواد بنوبة سرعة مفاجئة، باغتت يز
للوهلة الأولى ظن أن أخاه كان يسابقه فى رحلة العودة للمنزل.

صاح: «أيها الفحل! انتظرنى أيها الفحل!» كشر وكان على وشـ
أن يعدو فى إثر أخيه ليسابقه، ولكن داوود استوقفه.

«لا يمكننى أن أسرع بالحصان مثل أخيك، كما أننى محتاج لدليل»

تنهد يزيد وكبح جماح حصانه. أدرك عندئذ أن زهيرًا كان يريد أ
ينفرد بنفسه. لعله رتب أن يلتقى بأحد الشباب الراغبين فى القتال، وفهـ
يزيد أن عليه أن يحل محل أخيه، وإلا ظن ابن داوود أنهم كانوا يتعمدو
أن يتعاملوا معه بفظاظة وجفاء.

«أعتقد أنه من الأفضل أن أصحبك إلى المنزل؛ لأنك إذا ضللـ
الطريق وأنت بمفردك، فلن تسامحنى أختى هند على الإطلاق!».

«أختك هند؟».

«نعم! إنها تحبك».



الفصل السابع

باسم سيدنا يسوع المسيح.

ملكى وملكتى، الأكثر سموًا وتقوى وشجاعة من بين ملوك إسبانيا كلها. انقضت الآن ثمانية أعوام كاملة منذ أن أزلنا الهلال عن قصور الحمراء، ومنذ أن سقطت آخر حصون أتباع محمد لصالح أبينا المقدس. لقد أمرنى كل من سمو الملك وسمو الملكة أن ألتزم بنود معاهدة التسليم التى وقع عليها سلطانهم بعد أن خضع لقوة أخلاقية أرفع مقامًا. وسوف تتذكر جلالة الملكة ووصيتها لخادمها المخلص، [حين قالت]: «بصفتك الأسقف الموثوق به أكثر ممن سواه فإننا لا نعتبرك خادمًا للكنيسة وحسب، بل نعتبرك عينى الملك وأذنيه فى غرناطة. ولن تسلك أى مسلك قد يلطخ اسمنا بالعار».

وفهمت من حديث جلالتها أن أتباع محمد لابد من أن يعاملوا معاملة طيبة، وأن يُسمح لهم بحرية العبادة كما اعتادوا. لم يسبق لى أن أخفيت الحقيقة عن مولاتى الملكة، إننى أعتقد أن ما أبداه سلفى فى هذا المنصب من طيبة قد أساء الموريسكيون فهمها. إنهم لا يظهرون أى ميل للتحول إلى عقيدتنا المقدسة، ولهذا السبب قررت أنهم لابد من أن يعرفوا بانتهاء عهد الوثنية والهرطقة. وسوف تتذكر سمو الملكة أحاديثنا فى مليطلة، عندما شرحت لها طبيعة القرآن، وأكدت أن كتب هذه الطائفة وطقوسها وخرافاتها بحر لا قرار له. إنهم يعلقون فى كل منزل، بل وفى كل غرفة، أوامر نبيهم فى عبارات مسجوعة، وكانت مولاتى هى من أعربت أولا عن اعتقادها بوجوب إحراق تلك الكتب الخبيثة وما تحتويه

من عقائد مسمومة. لا أعتقد أن أى شخص آخر فى غرناطة كلها
بوسعه أن يعد إحراقًا علنيًا لجميع المصاحف، وكل شىء آخر
لكتابهم بأى صلة.

لا أفترض بهذا أنه لم يكن هناك أى شخص آخر غيرى يمكنه إ
هذه المهمة التى كلفتنى بها مولاتى وكنيستنا المقدسة، إذ كيف يمكن لأ
شخص بمفرده أن يكون لا غنى عنه لكنيسة مثل كنيستنا؟ ومع ذا
فقد أخذتُ على نفسى عهدًا حين توليت أسقفية طليطلة،بأن أحول
أتباع محمد إلى الإيمان. وتوسلت إليك بتقديم العون لكى أحقق عهد
ومنحى السلطات لتنفيذ مهمتى.

أما القائد العام، كونت تنديلا الأكثر نبالة، الذى أنجبت عائا
كاردينال مندوثا الفطن، سلفى الموقر، فإنه يزعم باستمرار أنه ما دا
جلالة الملكة قد انتصرت فى الحرب، فما هى إلا مسألة وقت حتى ي
الموريسكيون لغتنا وعاداتنا وديننا. وعندما لفتُ انتباهه أن أحد قساو
شاهد ثلاث نساء موريسكيات يتبولن على صليبٍ منزوع من إحد
الكنائس، أجابنى قائلا: «وما الذى تتوقعه غير ذلك يا رئيس الأساقفة؟
فعلى أى حال أنتم قررتم إحراق كتبهم، وهذا هو انتقامهم، انتها
المقدسات. ولكن هذا أفضل من أن يقوموا بإخصائك فى ساحة السوق»

يمكن سماع مثل تلك الآراء والمواقف حتى فى صفوفنا. فى بلا
الكونت لا يوجد إلا عدد قليل من المسيحيين، أما من يقومون على خ
فإنهم يهزأون جهارًا بكنيستنا، ويتهمونها بالفساد، ويتمازحون حول
الأساقفة والآباء الذين يرتكبون الخطيئة فينجبون، ومن ثم يع
أبناءهم فى المناصب الكنسية. وحتى دون بدرو جونزاليس دى مند
الكاردينال الذى أوصى جلالتكم من فوق فراش موته بأن أشغل منص
من بعده، الرجل الذى ناصر قضيتكم قبل اعتلاء العرش، والجد ال
لقائدنا العام الشجاع؛ حتى هذا الشخص المبارك قد أنجب سبعة أ

من سيدتين مختلفتين من علية القوم. إن دون بدرو -كما تعلم جلالتها-
الان يشار إليه عموما باعتباره «العاهل الثالث» ولا يمكنه أن يرتكب
أى خطأ فى نظر من يقوم على خدمتهم. قبل يوم أو يومين اقترب منى
أحد الموريسكيين فى الرياض القريبة من القصر، وسألنى بنبرة فى غاية
اللطف: «كيف حال أبناء نيافتكم؟ عساهم فى تمام الصحة والعافية. كم
عددهم؟» ربما كان قصده طيبًا، ولكننى شعرت برغبة فى اقتلاع لسانه
المجدف، والإلقاء به وقودا للجحيم.

إننى أدرك بكل تأكيد أن هذا داء قديم، شجعه فيما مضى واحد من
أبه الأساقفة، جريجورى الطورسى الذى سيطرت أسرته على الكنيسة
فى قلب فرنسا سنوات عديدة، بعد ميلاد سيدنا المسيح بستمائة عام.

إن رؤوس كنيستنا من كرادلة وأساقفة، وكذلك من يقومون
على خدمتهم، ظلوا على مدى تلك القرون الستة المنصرمة، يسبحون
فى بحر من الخطيئة. وحتى بعد أن استرددنا معظم أرضنا، أصبحت
غرناطة أشبه بواحة لأتباع محمد، حيث ينغمسون ليل نهار فى النهل من
النعم والفواحش، ويتجاهرون بذلك فى تباهٍ مثل حيوانات المزرعة. هذا
النموذج للإثم الذى لا نهاية له هو ما أصاب كنيستنا بعدواه، وسبَّبَ
أعظم الضرر لقضيتنا. وذلك سبب آخر لكيلا نسمح لتلك النماذج
الشريرة بالبقاء فى بلادنا. إننى ألتمس إذن جلالة الملكة بفرض أوامر
منا فى هذه المملكة، وتعيين أحد مفتشى المروق والهرطقة ليبدأ عمله
بين أولئك الناس، بحيث يمكن لأى شخص أن يتقدم إلينا ويبلغنا إذا
ما سمع أو رأى أى شخص آخر، حيًا كان أو ميتًا، حاضرًا كان أو غائبًا،
يتحدث أو يتصرف بأسلوب ينم عن الهرطقة أو الطيش أو الفحش أو
الافتراء أو التجديف.

وفى حال عدم حدوث ذلك، يتوجب على أن أبلغ بأنه من
الضرورى هدم جميع الحمامات العامة فى المدينة، فيكفى من شرها أن

هؤلاء المسلمين يتباهون بأوكار الشهوات تلك فى وجوهنا كل
وسوف تتذكرين أن جنودنا، حين اكتشفوا أن مدينة «الهامة» بها
الحمامات أكثر من أى مدينة أخرى فى شبه الجزيرة هذه، قرروا أن ال
الأمثل لحفظ المدينة هو تدمير تلك الحمامات، هكذا فعلوا بينما
تتردد كلمات مخلصنا على شفاههم. وقد أضافت البذاءات التى وجد
منقوشة على جدران الحمامات لهيبًا إلى عزمهم القوى بالفعل. فى
الظروف اجتث خدم الصليب هؤلاء كل أثر لبقايا الخطيئة.

ولكن الأحوال فى غرناطة أكثر خطورة، وليس على الصعيد
الروحى فحسب. فإن تلك الحمامات الملعونة تعد أيضا من الأماكن
المعتادة للقاءاتهم؛ لكى يتحدثوا إلى بعضهم بعضًا دون رقيب، حيث
ينخرطون فى حبك مؤامرات التحريض والعصيان. ويسود المدينة
عظيم من الاضطراب والبلبلة. فى كل يوم ينقل إلىَّ أشخاص مخلصون
ممن تحولوا أحاديثا تَجرى فى البيازين وفى القرى الموريسكية،
الأحاديث التى تسرى سريان الطاعون فى البوجارا.

إننى أميل لوضع حد لحالة السخط بالقبض على رؤوس
وإحراقهم على الخازوق. أى مأساة لحقت بكنيستنا بوفاة توماس
توركمادا! أما الكونت النبيل، الذى لديه نزوع مختلف تمامًا رغم
فإنه لا يرى فى توركمادا سوى يهودىٍّ يحاول باستماتة أن يثبت ولاءه
الجديد. إن الكونت يعارض أية تدابير صارمة ضد الوثنيين المقيمين
ويتخيل أنه بتحدثه لغتهم، وبلبسه كما يلبسون سوف يجتذبهم إلى
وطرقنا. لعل مولاتى سوف تتفهم سبب عدم استيعابى ولا
للمنطق الخفى وراء مثل ذلك المسلك، كثير من فرساننا ممن قاتلوا
الأسود حين استولينا على «الهامة» مستغرقون فى غرناطة فى لهو
وعربدة مرحة، دونما توقف أو انقطاع. يعتقدون أن حربهم قد
ولا يفهمون أن المرحلة الأكثر حرجًا وحسمًا من حربنا لم تبدأ بعد.

التمس من جلالتها أن تصدق على التدابير الواردة أدناه، وأن تتعطف بإبلاغ القائد العام لغرناطة دون إنيجو لوبيز دى مندوثا، بألا يعرقل أى عمل أو نشاط تتخذه الكنيسة.

-لابد من أن نأمر الموريسكيين بالتوقف عن التحدث باللغة العربية، سواء مع بعضهم بعضًا فى خلواتهم أو لأغراض البيع والشراء فى الأسواق. إن تدمير كتب علومهم ومعارفهم سوف يسهل من تنفيذ وسريان هذا المرسوم.

-لابد من منعهم من امتلاك عبيدٍ ممن ولدوا فى أغلال الرق.

-لابد من منعهم من ارتداء العباءات الموريسكية، وبدلاً من ذلك عليهم أن يتبعوا أساليب القشتاليين فى اللباس والسلوك.

-يحظر على نسائهم تغطية وجوههن تحت أية ظروف.

-يحظر عليهم إغلاق الأبواب الأمامية لدورهم.

-لابد من هدم حماماتهم العامة.

-يحظر عليهم الاحتفال بأعيادهم العامة وحفلات زفافهم، كما تحظر أغانيهم وموسيقاهم الخليعة.

-أى أسرة تنجب أكثر من ثلاثة أطفال لابد من أن يتم تحذيرها بأن أية أطفال زائدين سيتم وضعهم فى رعاية الكنيسة فى قشتالة وأراجون بحيث يمكن تنشئتهم مسيحيين صالحين.

- اللواط متفشٍ فى تلك البلاد، لدرجة أن استئصال شأفته يتطلب استخدام أقصى درجات الشدة، ويجب معاقبته فى الأحوال العادية بالإعدام. أما إذا تم ارتكاب الجرم مع الحيوانات، فإن العقوبة الملائمة هى قضاء مدة خمس سنوات من العمل الشاق على سفننا دون أجر.

قد تبدو تلك التدابير مناقضة لبنود اتفاقية الاستسلام التى وقعنا عليها، ولكنها الحل الوحيد الدائم لذلك الداء الذى راح يتغذى على أرواحنا منذ عهد بعيد. إذا ما وافقت جلالة الملكة الكريمة على

مقترحاتى، فسوف أضيف أيضًا أن محكمة التفتيش المقدسة لابد من أن
تتخذ مقرًا لها فى غرناطة دون مزيد من الإبطاء، وأن ترسل مفوضيها
إلى هذه المدينة الآثمة فورًا لجمع الأدلة. فإذا رأى هؤلاء الناس مرة، أو
مرتين على أقصى تقدير، تنفيذ الإحراق على الخازوق بأمر من محكمة
التفتيش، فسوف يفهمون أنه لم يعد بمقدورهم الاستخفاف بالقوة التى
شاء الرب أن تحكمهم.

أنتظر ردًا عاجلاً وسأبقى خادم جلالتكِ المخلص

(فرانسيسكو دى سيسنيروس)

طوى خيمينث الورقة وختم بخاتمه الرق، ثم استدعى الأخ
الأكثر إخلاصًا له، ريكاردو دى كوردوفا، وهو مسلم تحول مع سيده،
ميجيل، فى الوقت نفسه، وأهداه ميجيل إلى الكنيسة المقدسة. أسلمه
الرسالة، قائلا:

«لا تقع عليها عين إلا عين الملكة أو الملك، ولا أحد سواهما، أهذا واضح؟»

ابتسم ريكاردو وأومأ برأسه، ثم غادر الغرفة.

استغرق خيمنيث فى الأفكار. فيم كان يفكر؟ كان عقله مشغولا
بنقاط ضعفه. كان يعرف أنه ليس بارعا فى الحديث أو تدبيج الرسائل. لم يكن
أبدا خبيرًا فى مزج النار بالماء. كان ما درسه وهو صبى يافع فى مدينة القالة من
قواعد النحو لا يتعدى الحدود البدائية للغاية. وفيما بعد، حين التحق بجامعة
سالامانكا كَرَّسَ جهوده لدراسة القانون المدنى والقانون الكنسى. ولم يطور
هناك، ولا حتى فى روما، ذوقا مرهفًا تجاه الأدب أو التصوير.

لم تحرك بداخله جداريات مايكل أنجلو أى إعجاب أو أثر، وعلى
الرغم منه وجد نفسه معجبًا للغاية بالزخارف الهندسية التجريدية على
الملاط الذى رآه فى سالامانكا، ثم بعد ذلك فى طليطلة. وكلما كانت
تشغله مثل تلك الأمور، وهو ما لم يكن يحدث كثيرًا، كان يعترف لنفسه
أن عبادة الرب، باعتباره مفهومًا مجردًا، أكثر توافقًا مع الطبيعة بكثير. لم

لكن تروق له كثيرًا مجموعات الصور والأيقونات المتوارثة عن الديانات الوثنية، التى اصطبغت بألوانها الديانة المسيحية.

لو أنه فقط كان يمتلك مهارات تدبيج الرسائل التى امتلكها سلفه اللامع، كاردينال مندوثا، لكانت رسالته إلى إيزابيلا وفردناند قد كتبت بلغة لا مثيل لبلاغتها وأناقتها، ولكان الملوك قد أعجبوا بالجودة الأدبية فى الصياغة، فتقبلوا عن طيب خاطر الخنجر المخفى وراء الإسهاب والحشو، وكأن تلك الزوائد إضافات لا غنى عنها، غير أنه هو «خيمنيث» لا يستطيع ولا يود أن يخدع ملكته.

لقد تم تنصيبه كاهن الاعتراف الخاص بإيزابيلا حين أرسل تالافيرا ليُرسم رئيسًا لأساقفة جرانادا، وما أثار سرورها ودهشتها أنه لم يبد أى شعور بالضيق أو القلق من الانقياد لها، كما أنها لم تلمس فى تعبيرات وجهه، أو فى أسلوب تعامله معها، أى أثر للخضوع والإذعان. كان إحساسه بالشرف والتقوى الذى ينضح من كل مسام جسده إحساسًا أصيلاً لا لبس فيه.

كانت إيزابيلا تدرك أنها امتلكت قسًا متوقد الحماسة، طبيعته الصارمة توافق طبيعتها. كان تالافيرا يعاملها بالاحترام اللائق، غير أنه لم يستطع أن يكتم قنوطه مما كان يعتبره فيها مزيجًا من الجشع والإجحاف. كان دائمًا يحاول أن يلقى عليها المحاضرات حول فضائل التسامح وضرورة التعايش مع الرعايا المسلمين. أما خيمنيث فقد كان معدنه أشد صلابة. قسٌ ذو روح حديدية، وعلاوة على ذلك، ذو عقلية تماثل عقليتها. دعته إيزابيلا ليتحمل مسؤولية ضميرها، وراحت تُفضى إليه بمكنون صدرها. خيانات فردناند، والإغواءات التى تتعرض لها، ومخاوفها تجاه ابنتها التى بدا أن عقلها قد ذهب دون إنذار. كان القس يستمع إلى ذلك بوجه تكسوه أمارات التعاطف. فى مناسبة واحدة فقط صدم صدمة كبيرة حيال اعترافها بأن أهواءها قد غلبت رشاد عقلها

فاكتسى وجهه قناع رعب. اعترفت له إيزابيلا حينها بأن رغبة شهوا...
عارمة، لم تستسلم لها، قد استحوذت عليها قبل نحو ثلاثة أعوام ...
استرداد غرناطة، أمام سيد من نبلاء المسلمين فى قرطبة.

يتذكر خيمنيث تلك اللحظة فيقشعر بدنه، ويقدم شكر...
صامتًا لسيده يسوع المسيح، لأنه جنب إسبانيا مذلة تلك الكارثة عل...
الخصوص. فلو أن موريسكيًا ولج إلى فراش الملكة، فمن كان بوسعه
أن يتنبأ بأى منعطف قد يتخذه ذلك التاريخ؟ هز رأسه فى عنف كما لو
أن الفكرة نفسها كانت ضربًا من الهرطقة. لم يكن من المحتمل أن يمضى
التاريخ فى أى اتجاه آخر، ولو أن قدرات إيزابيلا قد وهنت لوجد التاريخ
أداة أخرى أكثر حدة ليمضى فى سبيله المرسوم.

كان خيمنيث يعد أول رئيس أساقفة عفيف لإسبانيا حقًا. ذا...
ليلة فى سالامانكا، خلال سنوات دراسته الجامعية، سمع الأصوا...
التى غالبًا ما كانت تنبعث من مهجع الذكور فى تلك الأوقات المثير...
فأدرك أن اثنين من رفاقه الطلاب كانا قد انغمسا فى محاكاة مسلا...
الحيوانات المحمومة بالغرائز فالمتعة التى كان يمنحها الطلاب من رفاق...
المهجع لبعضهم بعضًا كانت واضحة ومسموعة لمن له أذن يسمع...
أحس خيمنيث بوخزة من الإثارة تحت خصره، وكانت الصدمة كاف...
لأن تسلمه للنوم، ولكنه عندما استيقظ فى النهار التالى تملكه الذعر ...
اكتشف أن قميص نومه قد ابتل بسائل لا يمكن أن يكون غير منيه ه...
وما زاد الأمر سوءا -وكانت مصادفة مخزية- أن بقعة السائل كانت ...
تشابهًا خارقًا لخارطة كل من قشتالة وأراجون.

ظلت حالة من الروع والقلق تغشاه على مدى يومين كاملين، و...
الكنيسة، فى وقت تالٍ من الأسبوع نفسه وصف المشهد لكاهن الاعترا...
الخاص به، وما أثار اشمئزاز رئيس الأساقفة المستقبلى من كاهن اعترا...
أنه انطلق ضاحكا مقهقهًا، وأجابه بصوت عال جعل خيمنيث يرتع...

من الحرج، قائلا:

«لو أننى...» هكذا شرع الراهب يتحدث ضاحكًا، ولكن حين رأى الوجه الشاحب المرتجف الماثل أمامه، تردد باحثًا عن استدراك أكثر مادية لعبارته، «لو أن الكنيسة عاملت اللواط باعتباره خطيئة لا يمكن غفرانها، لكان الجحيم هو مصير كل قساوسة إسبانيا».

دفعت تلك المقابلة فى مقصورة الاعتراف خيمنيث، أكثر من أحداث المهجع، إلى أن يأخذ عهدًا على نفسه بالتزام العفة الجنسية. حتى حين كان خيمنيث يعمل فى سيجونزا، فى ممتلكات وضياع كاردينال مندوثا، فى وقت كان من المتوقع أن يلتقط فيه أى قس أى فلاحة أو صبى انسياقا وراء رغبتة، فإنه كان يقاوم الإغواء. وعلى خلاف الخصيان، لم يتمكن حتى من التفاخر بأنه تلقى شرفًا من قضيب سيده. مقابل ذلك كله انغمس فى حياة الرهبان معتنقًا نظام الرهبنة الفرانسيسكانى، حرصًا على التزامه النابع من داخله بأن يعيش حياة التقشف والورع.

عندما بلغ سمع كاردينال مندوثا كيف يأخذ قسه المحبب له نفسه بصرامة استثنائية، أعلن عدم رضاه عن وضعه قائلا: «إن المواهب الخارقة» – كان من المفترض عمومًا أنها إشارة إلى الملكات العقلية التى يتحلى بها خيمنيث – «يجب ألا تظل دفينة فى ظلال أحد الأديرة».

راح خيمنيث يسير جيئة وذهابًا فى غرفته. من نافذته ذات الأقواس كان يرى الكاتدرائية التى يشيدها البناؤون على أطلال جامع قديم كان يشرف على القصر. كان غارقا فى أفكار سامية، غير أن صورًا ماجنة مكروهة تقتحم صميم عقله أحيانًا، فتشوش عليه حتى أنبل التأملات وأرفعها مقامًا. لقد بلغ خيمنيث ما جرى فى طليطلة من إساءة بالغة وتدنيس للمقدسات قبل شهر، حين أمسكوا برجل يغمس قضيبه العارى فى جرن المعمودية المقدس. وعندما قبض عليه اثنان من الرهبان اليقظين، لم يبذل أى جهد لإنكار ما ارتكب. لم يحاول التماس الرحمة، لم

يبد أسفه ولا ندمه العميق على فعلته الطائشة بدلاً من ذلك كله،
أنه كان قد تحول حديثًا، وأن صديقا مسيحيا نصحه بأن يقوم بهذا
من التطهر قبل أن يؤدى صلاته فى الكاتدرائية.

لم يفصح المتهم عن اسم ذلك الصديق. تعرض للتعذيب، و
شفتاه مغلقتين بإحكام. رأت محكمة التفتيش أن قصته غير
وأسلمته للسلطات المدنية لتوقيع العقوبة القصوى عليه، وتم إع
حرقًا على الخازوق قبل بضعة أيام. ظلت صورة الفعلة المسيئة تلح
عقل خيمنيث. ذكر نفسه بأن يرسل فى طلب وثائق محكمة التف
الخاصة بتلك القضية على الخصوص.

لم يكن خيمنيث معدوم الضمير. الرجل الذى يقدم نفسه باع
منفذ حكم الإعدام فى غرناطة المسلمة كان هو نفسه ذات يوم ضحية.
أمضى بعض الوقت فى السجن الكنسى بأوامر من الكاردينال الر
كاريللو. ذلك الكاردينال الذى سرعان ما خلفه رئيس أساقفة من
طلب من خيمنيث أن يتنازل عن منصب ثانوى فى الكنيسة الإسب
كانت قد عينته فيه إياه كنيسة روما، لصالح واحد من حلقة المتملقين
تحيط بالكاردينال كاريللو. رفض خيمنيث، فعوقب بالسجن الانفر
لمدة ستة أشهر. خلفت تلك التجربة فى نفس القس حساسية نحو مس
من قبيل الفرق ما بين الإدانة والبراءة، وكان هذا ما دفعه ليتأمل إع
ذلك الرجل من طليطلة الذى غسل عورته فى الماء المقدس. لعله بر
حقًا، ولكن لا يوجد كاثوليكى حقيقى يجرؤ على إرسال هذا الرجل
الكاتدرائية بمثل تلك التوصيات. لابد أنه واحد من أولئك المهرطق
الفرنسيين الذين أفلتوا من العقاب. بدأت عينا المطران تلمعان عن
شعر بأنه اكتشف الحقيقة، سوف يدرس وثائق تلك القضية باهتمام.

طرقة على الباب.

«ادخل».

دخل جندى وهمس فى أذنه بشىء.

«أدخله».

دخل ابن هشام الغرفة. توجه مباشرة نحو رئيس الأساقفة الذى مد نحوه يده، فركع ابن هشام على إحدى ركبتيه وقبل الخاتم. أنهضه خيمنيث وأشار له نحو أحد المقاعد.

«وجه لى عمى ميجيل أوامر صارمة بوجوب زيارة نيافتكم وإبداء كامل احتراماتى».

نظر خيمنيث إلى المتحول الجديد من صفوف نبلاء غرناطة واصطنع ابتسامة.

«بأى اسم عمدك أسقف قرطبة؟».

«پدرو دى غرناطة».

«تقصد بالطبع بدرو دى جرانادا».

أومأ پدرو، قد وشت عيناه بما يشعر به تجاه نفسه من حزن وخزى. رأى نظرة تجمع بين النصر والإزدراء على وجه الرجل الذى قبل يده قبل قليل رغم أنه يتمنى هلاكه، وبدلًا من أن يفصح، ابتسم ابتسامة هشة، وهو يلعن نفسه على خضوعه وذله.

رنا خيمنيث إليه وأومأ.

«لم يكن هناك داع لزيارتك. فقد أفضيت من قبل إلى عمك بأننا سوف نسمح لك بمزاولة تجارتك، وأنا رجل يحفظ عهوده. أخبرنى شىء يا پدرو، هل تحولت ابنتك إلى ديننا هى الأخرى؟».

بدأ پدرو دى جرانادا يعرق، فهذا الشيطان مطلعٌ على كل شىء.

«ستفعل بمجرد عودتها من إشبيـ... أقصد من سيڤيا، نيافتك. إننا بانتظار عودتها».

«بوركت يا بُنى. والآن اسمح لى فقد حان وقت صلاة المساء، وبعد ذلك لدىَّ بعض الشئون التى لابد من أن أشرف عليها. هناك أمر

واحد آخر. لعلك تعلم، فقد تربص بعضهم بسبعة من قساوستنا كا،
فى طريقهم لتناول العشاء الربانى الأسبوع الماضى. أُفرغت على رؤوسهم
دلاءٌ خشبية ممتلئة عن آخرها ببراز بشرى، فهل هناك أى احتمال بأنا
تعرف أسماء الشباب الذين اقترفوا هذه الفعلة؟».

هز پدرو رأسه نفيًا.

«كلا، لا أعتقد. لو أنك تعرف لكنت أبلغت عن الأمر بالفعل
حاول واكتشف الأمر إذا استطعت، مثل تلك الانتهاكات لا يمكن أن
تبقى دون عقاب».

أبدى پدرو دى جرانادا المعمد حديثًا موافقته على تلك العبارات
بهمة شديدة.

«حين يرغب الرب فى هلاك نملة، نيافتكم، يمنحها جناحين».

بعد أن انحنى پدرو وانصرف، اعترت خيمنيث موجة غثيان فقال
لنفسه: «حقراء، حمقى، مضطربون، ضعاف النفوس ومنفرون. كل يوم يأتون
لرؤيتى. بعضهم يأتى بدافع الخوف، وآخرون طمعًا فى حماية مستقبلهم
مستعدون لبيع أمهاتهم لو أن... لو أن... لو أن... هناك دائمًا طلب ما
هكذا... لو أن الكنيسة سوف تضمن لهم ممتلكاتهم؛ لو أن الكنيسة لن تعوق
تجارتهم؛ لو أن الكنيسة أبعدت محكمة التفتيش عن غرناطة، عندئذ فقط سوف
يتحولون عن طيب خاطر إلى ديننا، جالبين معهم أطماعهم التى لا تهدأ. لعنة
الرب عليهم جميعًا! إن كنيستنا فى غنى عن هؤلاء المحطمين المثيرين للشفقة
سوف يبقى پدرو دى جرانادا على دين محمد حتى يوم موته، فلتحل به لعنة
الرب هو والآخرين من أمثاله.



الفصل الثامن

عند منحدرات الجبل، لا يمكن رؤية بيوت القرية البيضاء،من مسافة بعيدة، غير أن ضوء المصابيح الزيتية المعلقة خارجها كان يومض وميضًا سحريًا من مكان جلوس يزيد، الذى كان يعرف أن تلك المصابيح لن تنطفئ حتى يعود هؤلاء الرجال والنساء المتحلقون حوله إلى بيوتهم.

كان فناء الدار الخارجى مزدحما بالزوار الجالسين فى دائرة كبيرة على أبسطة سميكة مفروشة على العشب؛ وبين الحين والآخر يضىء لماع لهب وجه الزنديق أو ميجيل، اللذين كانا يجلسان فى مركز الدائرة. كان الجميع يستدفئون بالجمرات المتوهجة فى المواقد. فى تلك الليلة كان هناك أكثر من مئتى شخص من أهل القرية حين بدأت «المناظرة».

هذه العائلة التى ظلت على مدى قرون لا تكترث بشىء أكثر من مواسم الصيد والقنص، أو نوع مرق التتبيل الذى استخدمه الطباخون فى إعداد لحم الضأن المشوى لهذا اليوم أو ذاك، أو أنواع الحرير الجديدة التى وصلت إلى غرناطة من الصين، هذه العائلة تجد نفسها الليلة فى مواجهة مباشرة مع التاريخ.

هيمن ميجيل على السهرة، فى بداية الأمر اصطبغ كلامه بالمرارة والتشاؤم. زعم أن نجاح الكنيسة الكاثوليكية، وتفوقها العملى، يعودان إلى أنها لم تحاول حتى أن تلطف المذاق المُر لدوائها. لم تهتم بأن تخدع الآخرين أو تسعى لأن تكتسب شعبية؛ لم تحاول أن تتقنع أو تتخفى لإرضاء أتباعها، بل كانت صريحة صراحة منفرة وبغيضة. وراحت تهز الإنسان من كتفيه وتصرخ فى أذنيه.

«لقد وُلدتَ فى الوحل وسوف تعيش فيه بقية حياتك، لكننا لن نغفر لك فساد نفسك ودناءتك وطيشك، إذا ما ركعت وصليت كل يوم طلبًا للغفران. عليك أن تتحمل وجودك الحقير المثير للشفقة والرثاء في حالة من الخضوع المثالى. الحياة كربٌ وعناء، وسوف تظل كذلك. كل ما يمكنك القيام به هو تخليص روحك، وإذا قمت بذلك وأحسنت إخفاء سخطك واستيائك، فقد تكون من المفتدين الذين غُفرت خطاياهم. وقد يجعل هذا، هذا فقط، حياتك على الأرض أقل قذارة وخسة بمقدار قليل عما كانت عليه يوم مولدك. الملعونون فقط هم من يسعون لتحقيق السعادة فى هذا العالم».

توقف ميجيل عن حديثه قليلاً عند هذه النقطة، وتفحص بعينيه جمهور مستمعيه. بدوا وكأنهم قد غشيتهم نوبة تنويم، وردوا له تحديقه فيهم بدهشة وعجب. وبصوت رقيق هادئ، أخذهم فى جولة إلى ماضيهم، فذكّرهم ليس بأمجاد الإسلام فحسب، وإنما بالهزائم أيضًا، وبالفوضى وبطغيان واستبداد القصور، وبالحروب الداخلية الطاحنة والتدمير المحتوم للذات.

«إذا كانت رغبة سلاطيننا وخلفائنا هى أن تبقى الأمور على ما كانت عليه، فكان ينبغى عليهم تغيير النهج الذى يحكمون به بلادنا. أتعتقدون أنه يسرنى تغيير دينى؟ حتى فى ليلتنا هذه، أثرت غضب بعض أفراد أسرتى، كما لاحظتم، ولكننى بلغت مرحلة من حياتى لا يمكننى فيها أن أتغافل عن الحقيقة أو أن أخفيها.

«إننى أحب هذا المنزل وهذه القرية، ولأننى أريد لهما البقاء وأريد لكلٍ منكم الرخاء والازدهار، أطلب منكم مرة أخرى أن تفكروا فى الأمر بكل جدية. لقد داهمنا الوقت بالفعل، ولكن إذا فعلتم ما أقترحه عليكم فما زال بوسعنا إنقاذكم. سوف تتحولون فى نهاية المطاف، ولكن عندئذ ستكون محكمة التفتيش قد أتت إلى هنا، وسوف يستجوبون كل

واحد منكم؛ ليميزوا من كان تحوله حقيقيا، ومن كان تحوله زائفًا. وبما أن أحد أهدافهم هو مصادرة أراضيكم لصالح الكنيسة والعرش، فسوف يمنحون أنفسهم ميزة التشكك فيما تقولون. لا يمكنني إرغامكم على شيء، لكن الذين سيأتون من بعدى لن يكونوا بنفس طيبتى».

على الرغم من أن ما كان يقوله لم يلق ترحيبًا فى النفوس، فقد شعر أغلب الحاضرين بأنه أقرب إلى الحقيقة من المفعمين بالحمية والحماسة، الذين يرغبون فى إشعال حرب، ولذا فقد كان هناك قَدر كبير من التوتر، تحت سطح الهدوء الذى كان يُرخى سدوله على دار سيد القرية.

كان بين الحاضرين صبيان صغار شردت أذهانهم بعد العبارات الافتتاحية للحديث، ولكن يزيد كان ما زال منتبهًا تمامًا مستمتعًا بكل لحظة. كان جالسًا بالقرب من أمه، يقاسمها بُردتها الصوفية الواسعة، وبجواره كانت أخته هند، وقد أبدت حيوية ومرحًا أدهشت الجميع عدا أخيها يزيد، وقد أثبتت بذلك وفاءها لخصال قبائل البربر التى ورثتها من ناحية أمها. قاطعت العم الكبير ميجيل عدة مرات، وضحكت ساخرة من محاولاته أن يكون طريفًا، وتحدثت هامسة ببذاءات عجيبة؛ غير أن هواء الليل حمل صوتها إلى نسوة القرية فأطربنها. لم يغضب ميجيل، غير أنه كان معجبا بشجاعة هند فى داخله، وعلى الملأ أعلن أنه يحبها كل الحب. كان ردها على هذا الإفصاح عن الحب من جهة عمها مميزًا، غير أنها تمادت هذه المرة ولم يتعاطف معها أحد.

«لو أن ثعبانًا صارحنى بحبه لعلقته قلادة فى عنقى».

ضحكت "آمه" بصوت عالٍ، مما أدهش يزيد لمعرفته رفض "آمه" القاطع لمسلك هند. لكن "آمه" ضحكت وحدها، فحتى لو كان ميجيل غير محبوب على نطاق واسع، فإن هذا المسلك الوقح لم يرق للقرويين، الذين اعتبروه انتهاكًا لكرم الضيافة الواجب تجاه أحد أبناء ابن فريد. تضايق العم الكبير ميجيل من مقارنته بالثعبان. تأذت أذناه بها فى العبارة

من سُم وغل، ولم يستطع أن يمنع عينيه من الدموع التى تشى بشعوره

استاء عمر حين رأى عمه وقد غلبته الدموع، فنظر مقطبًا نحو زوجته من الطرف الآخر لموقد النار، فنقلت زبيدة الإشارة بكل دقة همست لهند أن تلزم الأدب، وهددتها بتزويجها من ابن ميجيل: «خوان الساذج» إن هى لم تمسك لسانها فورًا. فعل التهديد فعله على خير ما يكون، فنهضت وتوجهت إلى ميجيل واعتذرت له فى أذنه. ابتسم ومسد رأسها. عاد السلام للجو، وتم تقديم القهوة.

لم يخامر هند أى ضيق، ما دامت قد أوضحت آراءها للضيوف المجتمعين، وعلى وجه الخصوص للغريب الجالس بينهم، ابن داوود، الجوهرة القاهرية بعينيه الخضراوين، وهدف عواطفها المشتعلة، الذى كان مستغرقًا الآن فى أفكاره. كان ابن داوود مغرمًا بهند حتى قبل أن يشى يزيد بسر أخته. فتنه لسانها اللاذع وخصالها الحادة. ولكنه الليلة كان مشتت الذهن بسبب هذه المناظرة. ابتسم حين سمع إساءة هند الوقحة لعمها الكبير، ولكن أفكار الزنديق السديدة كانت هى ما شغل انتباهه فى ذلك المساء.

على الطرف النقيض من ميجيل، شن الزنديق هجومًا شرسًا على معتقدات المسيحيين وخرافاتهم. استهزأ بالكنيسة المتهالكة لعجزها عن مقاومة الضغوط الوثنية، وإلا فلماذا اتخذوا من عيسى الرسول إلهًا ومن أمه رمزًا للعبادة؟ لقد رفض النبى محمد، على عكسهم، تلك الضغوط رفضًا قاطعًا، وقاوم الإغراء وتبرأ من عبادة ثلاث ربات. كانت تلك هى أبعد نقطة يمضى فيها الزنديق على هوى أبناء دينه فى تلك الليلة. لم يدافع عن الإسلام بقدر ما اشتهر به من انتقاد فكرى، وهو ما كان منتظرًا منه فى هذه الليلة. كان رجلاً نزيهًا للغاية فلم يعارض ما أكده ميجيل، بل أقر بأنه لا خلاف عليها. بدلاً من ذلك حاول إثارة حماسة مستمعيه بتذكيرهم أن النجم الذى يأفل فى برج من أبراج السماء قد يبزغ ويتألق

ل برج آخر، وقدم لهم وصفًا نابضًا بالحياة لانتصارات المسلمين فى اسطنبول بحيث سرت فى الحضور قشعريرة فخر جماعية. أما بخصوص انهيار الأندلس، فلم يعول كثيرًا على بعض التفسيرات الأكثر شيوعا.

سألهم: «أتذكرون الحكاية التى تُحكى عن سلطان تلمسان مع الولى الصالح؟ كان السلطان يرتدى أفخر ثيابه عندما استقبل أبا عبد الله التونسى. فسأل زائره العارف: «أيجوز لى أن أصلى بهذه الثياب الفاخرة؟»» فضحك أبو عبد الله من سؤاله، ثم فسر ضحكه قائلاً: «أيها السلطان المغرور، إننى أضحك من ضعف عقلك، ومن جهلك بنفسك، وبالحال المؤسفة لروحك. أنت عندى مثل الكلب الذى يتشمم دم الجيف، ويأكل الخبث، ولكنه حين يبول يرفع ساقه خشية أن يلوث بوله جسمه. إنك تسألنى عن ثيابك بينما معاناة الناس فى رعيتك تثقل كاهلك. «أخذ السلطان يبكى، وتنازل عن سلطانه وصار من أتباع ذلك الولى الصالح».

أنهى الزنديق حكايته وسط صيحات «سبحان الله» ووسط إعراب عن العواطف دعمّ الرأى القائل بأنه لو أن كل ملوك الأندلس المسلمين تصرفوا على هذا النحو لما كان أهل الإسلام على حالهم المحزن هذا الآن. كان ذلك هو رد الفعل الذى توقعه الزنديق، فراح يواجههم مباشرة.

«يبدو ذلك أمرًا طيبًا، ولكن هل كان بوسعه إنقاذنا؟ لا أعتقد. مهما بلغ الملوك من التقوى والورع، فلن يغير هذا من سلوكهم إذا لم يعتمدوا على شىء أكبر، شىء أسماه معلمنا الكبير ابن خلدون بالتماسك. هزائمنا لم تكن إلا محصلة فشلنا فى الحفاظ على وحدة الأندلس. تركنا الخلافة تنهار، وفى مكانها سمحنا للبذور السامة بأن تنمو حتى غطت كل شبر فى بستاننا. وثب السادة الكبار فوق جسد الأندلس واقتسموه فيما بينهم، وأصبح كل منهم مثل حوت كبير فى بحيرة صغيرة، فى الوقت

الذى كانت تجرى فيه عملية تشكل معاكسة تمامًا فى مملكة المسيحيين. لقد أسسنا العديد من الأسر الحاكمة، وأخفقنا فى أن نتبين طريقة لحكم شعوبنا تقوم على ما يمليه العقل السديد. فشلنا فى ترسيخ قواعد سياسية قادرة على حماية جميع مواطنينا ضد نزوات الحكام. نحن من أرشد بقية العالم فى ميادين العلوم والعمارة، والطب والموسيقى، والأدب والفلك، نحن من كنا أصحاب الفضل والسبق والامتياز، لم نستطع أن نتلمس الطريق نحو الاستقرار وحكم ينهض على العقل. كانت تلك هى نقطة ضعفنا، وقد وعى مسيحيو أوروبا الدرس من خطئنا هذا. كان ذلك هو بلاء الإسلام على هذه الأرض، وليس ما يلبسه ملوكنا من ثياب. أعرف أن بعضًا منكم يظنون أن العون قادم من سلطان اسطنبول، لكننى لا أظن ذلك يا أصدقائى، أعتقد أن الأتراك سوف يستولون على الشرق ويتركوننا لمصيرنا لكى يفترسنا المسيحيون».

أُعجِبَ عمر كل الإعجاب بحديث كل من ميجيل والزنديق، غير أنه كان مرهقًا. كانت تستحوذ على خواطره شؤون أكثر إلحاحًا تتعلق بأسرته، منعته من التركيز الكامل على مجريات الأمسية. كان يريد لهذه المناسبة أن تنفض، ولكن هناك بعض التقاليد التى تكاد تنزل منزلة العبادات الواجبة، وصارت جزءًا من قواعد أى مناظرة كتلك. سأل عمر الحاضرين، بنبرة صوت تنم عن العكس، إن كان هناك أى شخص آخر يود أن يتحدث. فنهض نساج عجوز واقفًا وهو ما أثار ضيقه الشديد.

بدأ النساج حديثه قائلاً: «السلام عليكم جميعًا وليحفظك الله أنت وأهل بيتك يا عمر بن عبد الله. لقد أنصتُ بانتباه شديد لكل من حضرة أسقف قرطبة وابن زيدون الذى يدعى بالزنديق. ليس لدى علمهما، ولكننى أحب أن أوضح نقطة واحدة. أظن أنَّ أُولَى بُذور هزيمتنا قد ألقيت خلال المئة عام الأولى التالية على نزول طارق بن زياد إلى الصخرة التى تحمل اسمه. عندما بلغ اثنان من قادتنا جبال الفرنجة المعروفة

بجبال البرانس، فوقفا هناك على القمة ونظرا من تحتهما إلى بلاد الغال، لم ننظر كلاهما نحو صاحبه. لم ينطقا بكلمة، غير أن كل واحد منهما كان يفكر بالأمر نفسه. إذا كانا يريدان حماية الأندلس فلابد من الاستيلاء على بلاد الفرنجة. لقد حاولنا، نعم، حاولنا. وسقط بين أيدينا كثير من مدنهم، ولكن الصراع الحاسم فى تاريخنا كان المواجهة بين جيوشنا وبين جيوش شارل مارتل على أبواب المدينة التى يسمونها پواتييه. خسرنا فرصتنا فى الاستيلاء على مملكة الفرنجة فى ذلك اليوم، ولكننا خسرنا الأندلس كذلك، على الرغم من أن هذه الحقيقة لا يدركها سوى القليل منا. كان السبيل الوحيد لحفظ هذه البلاد بين أيدى المسلمين هو بناء مسجد فى نوتردام. هذا كل ما أردت قوله».

قدم له عمر جزيل الشكر للفت أنظارهم إلى فهم أكثر سموًا لمأزقهم الراهن، وتمنى لجميع الحاضرين ليلة طيبة.

بينما كان الجمع يتفرق، تناولت "آمه" يد يزيد وقادته إلى داخل المنزل، ولكن ليس قبل أن تلاحظ أن عددًا كبيرًا، إلى حد غريب، من الرجال كانوا يصافحون ميجيل بحفاوة غير عادية. كان من بين هؤلاء شقيقه بالدم ابن حصد، وعندما وقف الرجلان متجاورين، تعجبت هند مرة أخرى من درجة التشابه الكبيرة بين جانبى وجهيهما. وقفت زبيدة إلى جوار زوجها تتبادل التحيات مع رجال القرية ونسائها، وهم يلقون تحية الوداع.

على خلاف أبيه وجده، كانت علاقات عمر بالفلاحين والنساجين ممن تُشرف أسرهم على شؤون قرية الهذيل علاقات ودية، بل وأخوية حميمة. كان يحرص على حضور أعراسهم ومآتمهم، ويبدى معرفة بأسمائهم وعدد الأطفال فى كل أسرة، مما كان يدهشهم ويسعدهم. يقول أحد النساجين لزوجته: «إنه سيد من السادة، لا شك فى هذا، ينتفع من كدحنا تمامًا كما انتفع آباؤه، ولكنه سيد كريم جليل».

لم يكن ثمة وقت الليلة لمثل تلك المجاملات. كان عمر ضيق الصدر، لم يكثر الحديث خلال المناقشة، وكان متلهفًا لأن يعود كل منهم إلى داره. خلال تناولهم للعشاء الذى قدموه مبكرًا تلك الليلة من أجل الاستعداد للمناظرة، أخبرته زبيدة أن ابنه البكر كان متورطًا فى اتفاق ينم عن الطيش بقدر ما ينم عن الحماقة، وأنها تخشى على حياته. أبلغتها خادمة من القرية أن زهيرًا كان يجند الشباب من أجل «المعركة». لم يحضر زهير المناظرة، وعندما ثارت التساؤلات حول مكانه، قال سائس الخيل إنه أسرج لسيده الصغير جواده المفضل، دون أن يعرف شيئا عن وجهته. كل ما كان يعرفه هو أن زهيرًا الفحل أخذ معه عباءتين. ما أن غادر السائس الغرفة لم تستطع هند أن تخفى ابتسامة غلبتها. لم يكن عمر بحاجة إلى معلومات أخرى ليستنتج الأمر.

«كلبٌ وقح! سوف يتناظر عمه الكبير وابن زيدون صاحبه العظيم فى مسائل مصيرية بالنسبة لعائلته ودينه ومستقبله، وأين فارسنا الهمام؟ منشغل عند منحدر أحد التلال بمضاجعة إحدى الخادمات».

كان زهير يراقب المغادرين من داخل المنزل نادمًا؛ لأنه تغيب عن هذه المناسبة المهمة. كان يشعر بأنه قد روى ظمأه، وبشىء من الضيق لافتقاره لضبط النفس؛ ولاتباعه غريزته مثل البهائم، ولكن... ولكنه شعر حين استعاد التجربة بأن أميمة مختلفة تمامًا عن عاهرات غرناطة ملونات الوجوه، اللاتى يستعمل الرجال لحمهن فى كل ساعة من الليل والنهار. أفقدته أميمة إحساسه بالمسئولية، وأشعلت حواسه. لم تتوقع منه أو تطلب أى شىء أكثر من ذلك. لو لم يذهب للقائها الليلة فلربما لما يكن يتمكن من رؤيتها بعد ذلك أبدًا. خلال ثلاثة أشهر سوف تتزوج من سليمان، الأصلع الأحول، النساج المعروف بأفخر حرير تنتجه القرية، ولكنه مع ذلك لا يكاد يُقارن بزهير الفحل فى مهارات الفرسان الحقيقية.

قال عمر، محدجًا ابنه: «حسنٌ، أين كنت؟ أن تغيب عن طعام

العشاء فلا أهمية لذلك، ولكن أتتغيب عن مناظرة فى أوقات كهذه؟ لقد لوحظ غيابك، وسأل كلٌ من ابن حصد وسليمان النساج عن صحتك!».

غمغم زهير، محاولاً كل جهده إخفاء اضطرابه: «السلام عليك يا أبى، كنت بالخارج بصحبة أصدقاء. أمسية بريئة، أؤكد لك».

رنا عمر نحو ابنه ولم يتمكن من مقاومة الابتسام. لم يكن الفتى يتقن الكذب. كانت له عينا أمه، بلونهما البنى الفاتح، وإذ يقف هناك مواجهًا له، شعر عُمر بشحنة عاطفية شديدة الوطأة. فى وقت مضى كانا قريبين للغاية من بعضهما بعضًا، كان عمر هو الذى علم زهير ركوب الخيل والقنص، وعمر هو الذى كان يصطحبه معه للسباحة فى النهر. وكثيرًا ما رافق الصبى أباه إلى بلاط قصر الحمراء. كان يشعر الآن بأنه قد انشغل عن الصبى لمدة أطول من اللازم، وخصوصًا منذ أن وُلد يزيد. كم يختلف ولداه، وكم يحبهما بالقدر نفسه.

ضرب بيده على وسادة كبيرة، قائلاً: «اجلس يا زهير. تقول أمك إنك قد أعددت بعض الخطط، فما هى؟».

اكتسى وجه زهير بسيماء جدية بالغة، وبدا فجأة أكبر من عمره.

«سأرحل يا أبى، غدًا فى الصباح الباكر. أردت أن أودعكم جميعًا هذه الليلة، ولكن يزيد غلبه النوم ولا يمكننى أن أرحل دون معانقته. راحل إلى غرناطة. لا يمكننا أن نسمح لرهبانهم بأن يدفوننا أحياء، لابد من أن نتحرك الآن قبل فوات الأوان. هناك خطط من أجل ثورة وشيكة. إنها مبارزة المسيحية يا أبى. أن نموت ونحن نقاتل خير من أن نحيا حياة العبيد».

بدأ قلب عمر يخفق بقوة، ولاحت له رؤيا خاطفة. اشتباك مع جنود القائد العام. فوضى. سيوف تشهر، وأصوات طلقات، وابنه زهير طريح على العشب وفى رأسه ثقب.

«إنها خطة طائشة يا صغيرى. أغلب هؤلاء الشبان الصغار الذين

يتشدقون بالحديث فى حمامات غرناطة سوف يلوذون بالفرار ما أن يروا القشتاليين. دعنى أنهى كلامى. لا أشك فى أنك سوف تجد بضع مئات من الصبيان يقاتلون إلى جانبك. التاريخ مليىء بالحمقى من الشباب الذين يثملون بالكلمات المقدسة، ويندفعون لخوض معركة مع الكفار، والأسهل من ذلك كثيرًا تناول سمٍ فى ظل شجرة على ضفتى نهر، والموت فى سلام. ولكن يبقى الأفضل من هذا وذاك أن نعيش يا بُنى».

لم يكن عقل زهير خاليًا من الشكوك، ولكنه كان أذكى من أن يُطلع أباه على شكوكه تلك. لم يكن يرغب بالمرة أن يتم إقناعه بالحيد عن المسعى الذى ظل يخطط له هو وأصدقاؤه منذ محرقة باب الرملة.

بقى وجهه صارما جادا.

«على عكس ما تظنه يا أبى، فإننى لا أعقد آمالًا كبيرة على نجاح ثورتنا، ولكنها تظل ضرورة لا غنى عنها».

«لماذا؟».

«لكى تبقى الأمور على ما عهدنا فى مملكتنا غرناطة. الأحوال سيئة ولكن أن تبقى على ما هى عليه خير من تسليم المقاليد لوحوش توركمادا، الذين يسمون أنفسهم قساوسة ومفوضين. لو أن آخر سلاطيننا، عليه لعنة الله، لم يُسلم بدون قتال، فلربما اختلفت الأمور. الملكة إيزابيلا تعاملنا وكأننا كلاب تُجلد بالسياط. وسوف يثبت لهم تحدينا، هم والآخرون من أبناء ديننا فى شبه الجزيرة كلها، إننا لن نموت راكعين، بل سنموت واقفين شأن الرجال؛ وأنه ما زالت هناك حياة ما بين أطلال حضارتنا».

«أحمق، صبى أحمق!».

«سل ابن داوود عما رآه فى كل من «سرقسطة» و»بالنسيه» وهو فى طريقه إلى غرناطة. كل مسلم نجح فى الفرار من المسيحيين، نقل الأمور ذاتها».

على الرغم منه، كان لدَى عمر شعور قوى بالفخر بابنه. لقد استهان بشأن ابنه زهير.

«عم تتحدث أيها الصبى؟ ليس من طبيعتك التحدث بالألغاز».

«أتحدث عن النظرات على وجوه قساوستهم وهم ذاهبون للإشراف على تعذيب الأبرياء، وتيتيم الأولاد فى زنازين محكمة التفتيش! إن لم نقاتل الآن فسوف يهلك كل شىء يا أبى! كل شىء».

«قد يهلك كل شىء على أى حال، سواء أقاتلتم أو لم تقاتلوا».

«ربما».

أدرك عمر أن زهيرًا، فى صميم أعماقه تكاد تفتك به الشكوك والظنون، لكنه كان متعاطفا مع مأزقه. بعد أن جهر فى الجامع باستعداده للقتال، وبعد أن تفاخر بانتصارات ما زالت فى علم الغيب بصحبة أصدقائه، كان الفتى يشعر بالتورط. قرر عُمر أن يمنع ابنه من الرحيل.

«ما زلت شابًا يا زهير، وفى مثل عمرك يلوح الموت مثل الوهم. لن أسمح لك بأن تلقى بنفسك إلى التهلكة. قد يحدث لى أى شىء الآن بعد أن قررت أن تحولنا مسألة مستحيلة، فمن سوف يرعى أمك وأختيك؟ يزيد؟ لقد انتزعوا منا السلطة والنفوذ، ولكن أملاكنا ما زالت سالمة لم تُمس. يمكننا التمتع بخيراتنا فى أمان وشرف. لماذا تزعج قرية مثل الهذيل القشتاليين؟ إنهم يضعون أعينهم على عالم جديد جباله من فضة وذهب. لقد هزمونا ولا طائل من المقاومة. إننى أمنعك من الرحيل!».

لم يسبق لزهير أن خاض معركة حقيقية. كانت تجربته مقصورة على التدريب الشاق الذى تلقاه على فنون القتال وهو صبى. كان خبيرًا فى استخدام السيف، ومآثره الطائشة على صهوة الجواد كانت معروفة لكل من حضروا مسابقات غرناطة أيام الاحتفال بمولد النبى. لكنه لا يستطيع أن ينسى أنه لم يغمد سيفه فى صدر عدو حقيقى.

أدرك زهير وهو يرنو إلى وجه أبيه المتجهم، أن تلك كانت فرصته

الأخيرة لأن يغير رأيه. يمكنه ببساطة أن يُبلغ رفاقه المشاركين فى الخطة أن أباه قد منعه من مغادرة المنزل. كان عمر يحظى باحترام واسع النطاق، وسوف يتفهمون كلهم الموقف، ربما؟ لم يستطع زهير أن يتقبل فكرة أن يتهمه أحد أصحابه بالتخاذل. ولكن ذلك لم يكن قلقه الوحيد، فهو لا يصدق أن الهذيل قد تكون بمأمن طالما بقى خيمنيث مسيطرًا على غرناطة، وهذا ما جعله يشعر أن أباه غافل عما يحدث حولهم إلى درجة خطيرة.

شرع زهير يتحدث وهو حزين: «أبى، لا يوجد ما هو أهم عندى من أمان منزلنا وممتلكاتنا؛ لذا لابد من أن أذهب. لقد اتخذت قرارى. إذا ما أمرتنى بأن أبقى هنا رغمًا عن إرادتى وعن رأيى، فلن أعصى أمرك بالطبع، ولكننى سأكون بائسًا، وحين أعيش بائسًا يا أبى لن أرى عزاءً لى إلا فى الموت.

«ألا ترى يا أبى أن الرهبان يدمرون كل شىء؟ عاجلا أو آجلا لابد من أن يصلوا إلى الهذيل. يريدون إعادة الأندلس صحراء جرداء، يريدون إحراق ذاكرتنا. كيف يسمحون عندئذ لواحة واحدة أن تبقى؟ لا ترغمنى على البقاء، ولتدرك أن ما أريد القيام به هو السبيل الوحيد الذى قد يحفظ لنا وطننا وديننا».

لم يقتنع عُمر، وتواصل الجدال، وزهير يزداد عنادًا وتعنتًا مع كل ساعة تمر. أدرك عُمر فى النهاية أنه لا يمكنه احتجاز ابنه فى المنزل رغم إرادته. رقت قسمات وجهه، فأدرك زهير على الفور أنه انتصر فى أولى معاركه. كان يعرف طبيعة أبيه، فما أن يوافق عمر على شىء حتى يرتد بظهره للوراء فى مجلسه، ولا يكترث بالجدال.

نهض الرجلان واقفين. احتضن عمر ابنه وقبل وجنتيه، ثم توجه إلى خزانة كبيرة وأخرج منها سيف ابن فريد من غمده المنقوش بالفضة نقشًا بديعًا. أخرج السيف وحمله بكلتى يديه ورفعه نحو رأس زهير، ثم أسلمه إياه.

«إذا كان لا مناص من أن تقاتل، فمن الأفضل لك أن تقاتل بسيف مجرب مختبر فى معارك عديدة».

تخضلت عينا زهير.

قال عمر بن عبد الله: «فلنذهب ونخبر أمك بالأخبار».

تبع زهير أباه فى الفناء الداخلى، وهو يحمل سيف جده الكبير بكل فخر، فمرا بميجيل وزهرة، ورددت أربعة أصوات مختلفة التحية. «السلام عليكم».

رأى كلٌ من ميجيل وزهرة سيف أبيهما وفهما كل شىء.

قالت زهرة: «ليحفظك الله يا صغيرى»، وقبلت وجنتيه.

لم يجبها زهير، ولكنه حدق فى هذين الشخصين العجيبين، أقلقه لقاؤه بهما. عندئذ ربت أبوه على كتفه برفق فسار معه. لم يستمر الأمر أكثر من ثوان معدودة. اعتبره زهير فألا سيئا.

«هل تعتقد أن عمى ميجيل سوف...» راح يسأل والده، غير أن عمر هز رأسه نافيًا، وهمس له:

«أمر غير وارد، عمك الكبير ميجيل لن يقدم الكنيسة أبدًا على عائلته».

لبرهة من الوقت وقف كلٌ من ميجيل وزهرة صامتين مثل جنديين فى نوبة حراسة. شاهدان على جيلٍ اندثر كل أثر له. كانت السماء من فوقهما مرصعة بالنجوم، غير أنها لم تقدم قدرًا كبيرًا من الضوء، ولا المصباح الوحيد المعلق على الجدار فوق مدخل الحمام مباشرة. بديا فى ظلام الليل، وكلاهما ملتف، بظهره المحنى، بداخل شاله الصوفى، أقرب إلى شجرتى صنوبر توقفتا عن النمو، وتعرت فروعهما وجارت عليهما تقلبات الطقس. كان الأسقف أول مَنْ كسر الصمت المخيم عليهما، حين همس:

«أخشى الأسوأ!».

كانت زهرة على وشك أن تقول شيئا حين رأيا هند وابن داوود

يدخلان الفناء وفى أثرهما ثلاث جوارٍ. انحنى الشاب وما كاد يسير متجهًا نحو غرفته حتى سمع صوتًا يناديه.

«يا ابن داوود!».

كانت هند هى من رد.

«يا الله! لقد أفزعتنى يا عماه. السلام عليك يا عمتى الكبيرة».

قال ميجيل لابن داوود: «تعال، يمكنك أن تصحبنى إلى غرفتى المجاورة لمكان نومك. لم أتخيل أبدًا أنه سيأتى على يوم أبيت فيه بالغرف المخصصة للضيوف فى هذا المنزل».

قالت زهرة: «كلام فارغ، وفى أى مكان آخر يمكنهم أن يضعوك؟ فى الاسطبلات؟ هند، أريدك أن تدلكينى الليلة. البرد ينخر عظامى، وأشعر بآلام فى صدرى وكتفى».

قالت هند: «كما تشاءين يا عمتى الكبيرة»، وصرفت الجوارى بإيماءة، وتطلعت بشوق نحو ظهر الشاب صاحب العينين الخضراوين.

كان ابن داوود يصحب الأسقف عبر ردهة تربط بين الفناء ومجموعة من الغرف، كان ابن فريد قد أضافها للمنزل، وهناك كان زوارهم من فرسان المسيحيين يقبلون على الولائم والمتع الليلية.

راحت زهرة تفكر كم كان غريبًا أن صبية لا تكاد تعرفها، بلغت للتو عامها الثامن عشر، تذكرها بصباها إلى حد بعيد. ما زال والدها يراها وردة لم تتفتح بعد. ما أبعده عن الحقيقة، وما أبعد كل أب مضى أو لم يأت بعد عن الحقيقة. إنها وردة يانعة تمامًا، مثل أزهار البرتقال فى الربيع، تلك الأزهار التى يثير عبقها الحواس. وكأنها لتؤكد أفكارها، نهضت زهرة فى فراشها بمعاونة وسادة، ونظرت نحو ابنة ابن أخيها، التى كانت منهمكة فى تدليك أصابع قدمها اليسرى بعناية ورقة. كانت بشرة هند، حتى على شعاع نور المصباح الواهن، التى لها فى النور الكامل لون العسل البرى، نَضِرة ومفعمة بالحيوية. كانت عيناها تلمعان وعقلها

شاردا، إنها الأعراض المألوفة.

«وهل يحبك هو بنفس القدر؟».

جفلت الفتاة لمفاجأة السؤال.

«عمن تتحدثين يا عمتى الكبيرة؟».

«هونى عليك يا طفلتى، فالحشمة لا تليق بك. كل شىء مسطور على وجهك. كنت أظنك منشغلة بما جرى فى السهرة، لقد أخبرنى ميجيل بأنك صرخت فيه. إنه ليس مستاءً جدًا - بل معجب بك - ولكنك قد نسيت هذا كله، أليس كذلك؟ إلى أين ذهبتما؟».

على عكس شقيقتها الكبرى كلثوم الهادئة القانعة، كانت هند بفطرتها غير قادرة على المواراة والخداع. عندما كانت فى التاسعة من عمرها، صدمت رجل دين من إشبيلية، وهو أكبر أبناء عمومة أمها، بتحديها لتفسيره للقرآن. كان رجل الدين يدين كل تسليات أوقات الفراغ التى ينغمس فيها طبقة النبلاء من المسلمين باعتبارها محرمة، ومضى بحديثه مبرهنًا على أن كل ذلك الاستهتار والفسوق هو ما أدى إلى انهيار الأندلس. فقاطعته هند وهو مندمج تمامًا باعتراض لا يُنسى، ما زال القزم وأصدقاؤه فى القرية يستعيدونه بسرور.

«عماه» هكذا حدثته الفتاة الصغيرة بابتسامة حلوة، وهو ما كان مخالفًا لطبيعتها تمامًا، «ألم يقل نبينا عليه الصلاة والسلام فى حديث متفق عليه أن الملائكة يحبون ثلاثة أنواع من الرياضة؟».

الشيخ الذى خدعته ابتسامتها، وسره أن تكون فتاة غضة مثلها مطلعة على كتب الحكمة، مسد لحيته وأجابها بدفء:

«وما هى يا أميرتى الصغيرة؟».

«الرماية وركوب الخيل والجماع بالطبع!».

اختنق العم الوافد من إشبيلية بقطعة من اللحم الذى كان يتناوله فى خير حال حتى تلك اللحظة. استأذن زهير وانهار ضحكًا فى المطبخ. لم

تتمكن زبيدة من التحكم بابتسامتها، وأسرع عمر لتغيير مجرى الحديث، وهو ما أفلح فيه بشيء من الدهاء.

كانت كلثوم الوحيدة التى لزمت الصمت، وناولت عمها كوب ماء. ولسبب ما تركت هذه اللفتة أثرًا عميقًا فى هذا العالم. كان ابنه هو من يفترض أن تقترن به كلثوم فى الشهر التالى.

روت زبيدة هذه القصة لزهرة، مما أضحك السيدة العجوز. كانت تلك الذكرى وراء ابتسامتها الآن وهى تتطلع نحو الشابة ابنة ابن أخيها.

«أذناى متشوقتان يا طفلتى».

لم تكن هند حتى ذلك الحين قد أفضت بسرها إلى أى شخص عدا وصيفتها المفضلة، وكانت متلهفة على البوح بمكنون نفسها إلى فرد ما من العائلة. وهكذا قررت أن تحكى لزهرة الحكاية كلها، راحت عيناها تبتسمان من جديد.

«منذ اليوم الأول يا عمتى الكبيرة. منذ أول يوم رأيته عرفت أننى لا أريد رجلا سواه».

ابتسمت زهرة وأومأت متأملة: «قد لا يكون الحب الأول هو الأفضل دائما، لكنه غالبًا ما يكون الأعمق».

«الأعمق والأفضل! لابد من أن يكون الأفضل!».

كانت عينا هند تتوهجان مثل قنديلين. وصفت وصول ابن داوود إلى الهذيل، والانطباع الذى تركه فى الأسرة كلها. مالت نفس أبيها على الفور نحو طالب العلم الشاب، وسرعان ما عرض عليه أن يعينه معلمًا خاصًا للأسرة. حضروا كلهم درسه الأول. شرح لهم ابن داوود فلسفة ابن خلدون كما يفهمونها فى القاهرة. سألته زبيدة عن بعض التفاصيل، وكيف يمكن لنظريات ابن خلدون أن تفسر مأساة الأندلس، وأجابها قائلا: «إن أحجار البناء المفككة لا تصلح لبناء سور قوى لحماية مدينة».

قالت زهرة متوسلة: «هند، لقد بلغت من السن ما يسمح لى

بالتغاضى عن كثير من التفاصيل. إننى أُسلم بلا جدال بأن الشاب ذكى وجذاب، ولكن إن واصلت الحديث على هذا النحو فقد لا أعيش حتى أسمع نهاية حكايتك! ماذا حدث الليلة؟ بعد الاجتماع؟».

«كان أبى قلقا على زهير، وقبل أن أنتبه اختفت الأسرة بكاملها بداخل المنزل. فتوجهت أنا نحو ابن داوود، وقلت له إننى بحاجة لبعض الهواء الطلق، وطلبت منه أن يسير معى قليلًا».

«طلبت منه ذلك؟».

«نعم، طلبت منه ذلك».

ألقت زهرة برأسها للوراء واستغرقت فى الضحك، ثم أحاطت وجه هند بيديها الذابلتين، وراحت تمسد وجهها براحتها قائلة:

«قد يكون الحب ثعبانًا متنكرًا فى صورة قلادة، أو كروان، لا يريد أن يتوقف عن غنائه. أكملى أرجوكِ».

روت هند كيف قادت إحدى الجوارى طريقهما حاملة مصباحًا، بينما تبعتهما جاريتان أخريان بمسافة واضحة، إلى أن وصلوا بستان الرمان.

تساءلت زهرة بصوت ضعيف، وهى تجاهد للسيطرة على خفقان قلبها: «بستان الرمان؟ هل هى أجمة الأشجار التى تسبق رؤية المنزل أثناء الرجوع من القرية؟ وعندما تستلقين على ظهرك هناك على الأرض أما زلت تشعرين وكأنك محاطة بخيمة من ثمار الرمان، وفى رأس الخيمة نافذة مستديرة مشرعة على السماء؟ وعندما تفتحين عينيك وتنظرين من تلك النافذة، أما زالت النجوم تتراقص فى السماء؟».

«لا أدرى يا عمتى الكبيرة، فلم تسنح لى فرصة الاستلقاء على ظهرى هناك».

نظرت إحداهما للأخرى وضحكتا.

واصلت هند قائلة: «تحدثنا، تحدثنا عن منزلنا، والقرية، والثلج على رؤوس الجبال، والربيع الوشيك، وبعد أن أرهقتنا كل تلك

الشكليات والمجاملات الممكنة، لزمنا الصمت وتبادلنا النظرات. بدا وكأن عامًا كاملاً مضى قبل أن يتحدث هو من جديد. تناول يدى وهمس بأنه يحبنى. عند هذا الحد بدأت الوصيفات يسعلن بصوت مسموع فحذرتهن إذا فعلنها من جديد، فسوف أرسلهن لمحكمة التفتيش ليتم شوائهن أحياءً، ويكون بوسعهن أن يسعلن طوال طريقهن لجهنم تطلعت فى عينيه مباشرة واعترفت له بأننى أحبه. أخذت وجهه بين يدى وقبلت شفتيه. قال: إنه سوف يطلب يدى من أبى للزواج صباح الغد، فنصحته بالتروى، وبأنه من الأفضل أن يتركنى أمهد له السبيل، وفى طريق عودتنا كنت أشعر بجسدى يتوق إليه توقًا موجعًا، وأدركت أن بى رغبة فيه. عرضت عليه أن أتسلل إلى غرفته الليلة، ولكنه كاد أن يغمى عليه لمجرد الفكرة. قال لى: «إننى ضيف أبيك، أرجوكِ لا تفترضى حتى أننى قد أسىء لكرم ضيافته وأخون ثقته. إنه خزى لا يُمحى «الحمد لله على وجودك هنا يا عمتى الكبيرة زهرة. لم أكن أستطيع أن أخفى الأمر بداخلى لوقت أطول».

نهضت زهرة جالسة فى فراشها واحتضنت هند. مرت حياتها كلها كالبرق أمامها فاقشعر بدنها. لم تكن راغبة فى أن تقع هذه الفتاة، وهى ما زالت فى مقتبل العمر، فى الأخطاء نفسها، وأن تحمل ندوب الجراح العاطفية ذاتها. سوف تتحدث إلى عمر وزبيدة نيابة عن الشابين. من الواضح أن الفتى رقيق الحال، ولكن الزمن قد تغير. أما بالنسبة لابنة أخيها فلم تكن تملك لها إلا عبارات التشجيع.

«إذا كنت واثقة منه فإياك والتخلى عنه، لا أريد أن تروى القصص بعد نحو مئة عام من الآن عن الفتى أخضر العينين الذى هام على وجهه بين الجبال، وحيدا مكسور الفؤاد، يبث النهر أشواقه لامرأة كان اسمها هند.

«انظرى إلىَّ يا صغيرتى. ما زال قلبى يعتصره الألم. لقد اكتويت بنيران الغرام، فنهشت جوفى، ولم تترك بداخلى شيئا وبدأت أفتح ساقى

لأى كابلليرو(*) يرغب فى الولوج، غير مكترثة إن كنت أستمتع بها يحدث أم كارهة له. كانت تلك طريقتى للقضاء على كل شىء حساس بداخلى، وعندما وجدونى عارية على الطرقات خارج قرطبة قرروا وضعى فى مارستان غرناطة. إياكِ وأن ترتكبى نفس أخطائى. فأن تهربى مع هذا الفتى لتكتشفى بعد ستة أشهر أن كل ما كان يريده هو أن يأكل من ثمرتى الخوخ الناضجتين هاتين، خيرٌ لكِ من أن تقبلى أن ينبذك والداك. سوف يصيبك الخيار الأول بالبؤس على مدى شهور ربما، أو حتى سنة. أما الخيار الثانى فسوف يدفعك لليأس، واليأس ينخر نَفس المرء. إنه أسوأ ما فى الدنيا. سوف أتحدث إلى أمك وأبيك. لقد تغير الزمن على أية حال، وصاحبك ابن داوود ليس ابن خادمة تعمل فى هذا المنزل. والآن اذهبى لغرفتك واحلمى بالمستقبل».

«سأفعل يا عمتى الكبيرة، ولكن اسمحى لى أن أسألك سؤالاً».

«سلى».

«هناك حكاية فى القرية عن العم الكبير ميجيل...».

«نعم! حكايته القديمة مع ابنة النساج. إنها ليست سرًا. ماذا عنها؟».

«لا شىء، إنها لم تكن أبدًا سرًا من الأصل. ما أقصد السؤال عنه هو هل صحيح ما يقولونه عن ميجيل وأمه، السيدة أسماء؟».

أغمضت زهرة عينيها بشدة، آملة أن يحجب الظلام ذكرى ذلك الألم التى تريدها هند أن تستعيده. استرد وجهها استرخاءه ببطء، وارتفع جفناها:

«لا أعرف الإجابة. كنت قد طردت من هذا المنزل وعِشْتُ فى قرطبة آنذاك. كنا ندعو أسماء «الأم الصغيرة»، وهو ما كان يُضحكنا جميعًا، حتى ابن فريد. حزنت بشدة عندما علمت أن السيدة أسماء قد ماتت. ميكال؟ أو ميجيل». رفعت زهرة منكبيها دون اكتراث.

بدأت هند تقول: «ولكن يا عمتى الكبيرة...».

(*) فارس إسبانى

أسكتتها العجوز بإشارة من يدها. «استمعى إلىَّ وانتبهى يا هنا يا بنت زبيدة. لم أرغب أبدًا فى أن أعرف، لم تكن التفاصيل تهمنى. كنت أحب أسماء حُب الأخت لأختها، والآن لم يعد من الممكن إعادتها من جديد، ولا استعادة والدة ابن زيدون. ربما يكون كل ما تقولونه صحيحًا، ولكن الظروف الفعلية لما حدث لم يكن يعرفها إلا ثلاثة أشخاص. اثنتان توفاهما الله ولا أظن أن أى شخص قد طرح السؤال على ميجيل نفسه. ربما يكون قد أفضى بالحقيقة كاملة فى مقصورة الاعتراف عندما تحول، فى هذه الحالة سيكون هناك طرف ثالث اطلع على السر. ولكن أى فرق يصنعه ذلك الآن؟ عندما تكبرين سوف تسمعين ولا شك مآسٍ مماثلة نزلت بعائلات أخرى، أو بفروع أخرى من عائلتنا نفسها. هل تذكرين ابن عم أمك الإشبيلى؟».

أعرب وجه هند عن تركيزها.

«لابد أنك تذكرين! عالم الدين الإشبيلى الذى صدمته معرفتك بالأحاديث النبوية وأنت طفلة؟».

«هو؟» قالت هند بابتسامة واسعة. «ابن حنيف. إنه عمد كلثوم، المستقبلى! ماذا عنه؟».

«إذا خطر لهم ذات يوم إثارة حكاية المسكينة أسماء لإذلال كلثوم يمكنك أن تسأليهم عن اسم الأب الحقيقى لابن حنيف، فمن المؤكد أن اسمه لم يكن حنيفًا».

استيقظت كل ذرة مكر فى جسم هند. هذا الكشف المفاجئ أبعد عن ذهنها ابن داوود لدقائق معدودة.

«اِحْكِ لى يا عمة! أرجوك!».

«سأحكى، ولكن إياكِ أن تخبرى كلثوم بأى شىء، إلا إذا شعرت بأنها بحاجة لهذه المعلومة. أتعديننى؟».

أومأت هند بكل همة.

«والد ابن حنيف الحقيقى كان هو نفسه والد أمه، ولم يشعر أى شخص فى تلك العائلة بضرورة وضع حد لحياتهما. لا أظن أن ابن حنيف نفسه يعرف هذه الحقيقة. وكيف له أن يعرف؟ دُفن السر مع أمه وأبيه فى قبرهما. لكن الخدم العجائز فى الدار كانوا يعرفون. الخدم يعرفون كل شىء، وهكذا تسربت الحكاية من هذا المنزل».

ارتجفت هند أمام هذه المعلومات، ففى حالة أسماء محا الموت ما سُطر على لوح الإردواز، ولكن فى الدار الإشبيلية.... قالت زهرة وهى تومئ لها بالانصراف من غرفتها: «إننى متعبة يا طفلتى، وأنت بحاجة للنوم».

أدركت هند أنه لا جدوى من الإلحاح على هذا الموضوع، فنهضت عن الفراش، وانحنت وقبلت زهرة على وجنتيها الذابلتين.

«السلام عليك يا عمتى الكبيرة. أتمنى لك نومًا هادئًا».

بعد أن انصرفت الفتاة، وجدت زهرة نفسها تحت رحمة ذكريات شبابها. لا يكاد يمر بها الآن يوم واحد دون استعادة أحد أحداث ماضيها. فى ذلك الهدوء المخيف لمارستان غرناطة لم تكن تركز إلا على الأعوام الثلاثة أو الأربعة التى حظيت فيها بالسعادة خلال حياتها. كانت تستعيد تلك الأعوام حية، بل وتسجلها على الورق. ولكن قبل عودتها إلى قرية العذيل بثلاثة أيام، أحرقت كل شىء فى نسخة منمنمة من محرقة خيمنيث فى السوق. فعلت ذلك إيمانًا منها بأن حياتها لم تعد ذات أهمية كبرى لأى شخص عداها، وهى توشك أن تموت. لم يدُر بخلدها أنها بمحوها لما تعتبره ذكريات مُخنطة من تاريخها، كانت تصدر حكمًا بأن تسلم لمحاة اللهب سجلاً فريدًا دونت به طريقة كاملة لحياة تبددت.

كانت سعادتها خالصة وصادقة بعودتها إلى منزلها القديم؛ لتجده مأهولا بعُمر وأسرته. ظلت مسيطرة على عواطفها على مدى عشرات السنين، متعمدة حرمان نفسها من التواصل مع كل عائلتها، لدرجة أنها الآن تجد نفسها تنوء بتخمة من العاطفة والحنان. عندما تكون بمفردها

فقط تقع أسيرة للجوانب الأليمة من قصة حياتها.

على سبيل المثال، لقاؤها بابن زيدون على وجبة العشاء الليلة. رغمًا عنها وجدت قلبها يرفرف مثل طير حبيس، تمامًا مثلما رأته أول مرة قبل كل تلك السنوات. وحين تركهما أفراد العائلة فى لمحة لياقة بمفردهما يحتسيان الشاى بالنعناع، كانت تشعر بأنها غير قادرة على التواصل معه. حتى عندما أخبرها بذلك الصوت القديم نفسه، الذى لم تتوقف عن سماعه بداخلها كما أنه لم يتغير بالمرة، بأنه ظل يكتب لها رسالة طويلة كل أسبوع منذ أن افترقا، لم يتحرك لها ساكن على نحو غريب. أكان ذلك هو الرجل الذى أفسدت حياتها كلها من أجله؟

شعر هو بأن عاطفتها نحوه تتبدد فى داخلها، فجثا على ركبتيه معلنا أنه لم يكف عن حبها، وأنه لم يتطلع بشغف نحو امرأة أخرى سواها، وأنه لا يمر به يوم واحد دون أن يختبر خلاله ساعة ألم وكرب. لم تتأثر زهرة أدنى تأثر. أدركت أنها لم تتخلص يومًا من شعورها بالمرارة والغضب بسبب تخاذله قبل كل تلك السنين، عندما أذعن لوضعه الاجتماعى كابن خادمة، وتخلى عنها لطبقتها الاجتماعية. وأثناء احتجازها فى المارستان، حلت محل نقمتها تلك صورٌ سعيدة من أيام غرامياتهما السرية الطائشة، غير أن النقمة لم تتوقف عن النمو، بحيث إنها الآن لم تكن تشعر نحوه بأى شىء، وسرها هذا الإدراك. بعد أن استعبدها أكسير الحب السام لسنوات بلا عدد، تتحرر الآن من جديد. فكرت فى نفسها: «تُرى ماذا كان يمكن أن يحدث لو أننا التقينا مرة أخرى قبل عشرين عامًا. هل كنت سأتحرر منه بهذه السهولة؟».

أدرك ابن زيدون أن شبح هذه العلاقة كان يتبدد الآن وإلى الأبد.. فتمنى لها كل خير وانصرف، رأى فى عينيها برودة أشعرته بالخواء وفساد الحال، أكثر من أى وقت مضى. فكر قائلاً لنفسه: «فى هذا المنزل الملعون عدتُ من جديد، لا شىء أكثر من أمى التى خدمتهم طوال حياتها، ثم

قتلوها شر قتلة». كانت تلك هى المرة الأولى التى يستولى عليه فيها هذا الإحساس بحضور زهرة.

فكتْ زهرة المشابك التى تجمع شعرها الأبيض مثل الثلج، فتمدد مثل أفعى من حولها ليبلغ منتصف ظهرها. بذلت جهدا حقيقيًا لكى تظهر فى أفضل صورة هذه الليلة، وقد أذهلهم جميعًا مرآها. ضحكت عند تذكرها ذلك، ونزعت دبوس الزينة الماسى الذى يجمع طرفى الشال على صدرها. كانت الماسة هدية من أسماء، بعد أن نصحها بعض الحمقى بأن وضع الماس قريبًا من البشرة يشفى كل ضروب الجنون.

أسماء الحبيبة، سيئة الطالع! تذكرت زهرة اليوم الذى عادت فيه جماعة أبيها من رحلة قرطبة. بينما كانت هى وعبد الله يجهلان ما يتوقعانه ويقفان قريبًا من مدخل الدار عند الفناء الخارجى، وكلاهما متشبث بيد من يدى شقيقة أمهما، الزوجة البديلة التى اعتقدا أنها جُرحت جرحًا بليغًا من اتخاذ أبيهما خليلة إفرنجية. كان انطباعهما الأول نحو أسماء هو الذهول التام، فقد بدت صغيرة السن شديدة البراءة. كانت متوسطة الطول، ولكن لها جسدا قويا متناسق التكوين. وجه عفيف فاضل يعلو جسدًا مثيرًا لمكامن الشهوات. كانت بشرتها بنعومة الحليب، ولكن بلون الخوخ، وفمها يبدو وكأنه قد طُلى بعناية بعصير الرمان، وتحت كتلة من شعر فاحم السواد عينان بنيتان خجولتان، وربما مذعورتان. كان واضحًا للجميع إلى أى حدٍ خلبت لب ابن فريد.

«كيف أمكنك أن تحبى أبى؟» هكذا سألتها زهرة بعد بضع سنين، قبيل مولد ميكال، وبعد أن صارتا صديقتين حميمتين. ابتسمت العجوز وهى تستعيد جلجلة الضحك الرنان التى استقبلت بها سؤالها. استعاد وجه أسماء، بعد أن ظهرت غمازاتها، طبيعته دون أن تشوبه شائبة. سألتها: «أتريدين معرفة كيف كان ذلك؟».

صاحت زهرة: «نعم! نعم!» وهى تتخيل وصفًا شهوانيًا جامح

الخيال. قالت أسماء: «كان ذلك عندما يضرط. ذكرنى ضراطه بالمطبخ حيث كانت تعمل أمى. شعرت بأننى عدت لموطنى من جديد وأحببته لذلك السبب». صُدمت زهرة، وسرعان ما تبدلت الصدمة بضحكات غير مصدقة. دون أن تدرك أسماء ذلك، حولت الصورة المخيفة والهائلة لابن فريد إلى شىء أقرب إلى البشر.

شدت زهرة على جسمها اللحاف المحشو بصوف الغنم والمغطّى بنوع الحرير المفضل لديها. لكن النوم راوغها. بدا لها وكأن المشهد الأخير من محو ابن زيدون من ذاكرتها قد أوجد متسعًا لكل شخص آخر. ظهر أبوها أمام عينيها الآن، ولكن ليس فى صورة السيد المتجبر بطبيعته المستبدة، يأمرها أن تذعن لإرادته وتتخلى عن حبيبها وإلا تلقى عقابه، وإنما فى صورة عملاق أليف مفعم بالمرح، يعلمها ركوب الخيل بحيث يمكنها أن تسابق عبد الله. كم كان صبورًا معها لدرجة أنها كانت تعشقه. فى الأسبوع نفسه علمها الرماية، ظل كتفاها يؤلمانها لأسبوع كامل بعد ذلك، مما كان يثير ضحكه، ثم وُلد ميجيل، وسعد قلب ابن فريد بوليد حبه، وترك عبد الله وزهرة يلهوان بألعابهما. فكرت زهرة: من يدرى لو أنه لم يتجاهلنا تمام التجاهل فلربما ما كنت قد وقعت ضحية تعويذة ابن زيدون، ولربما ما كان عبد الله قد أصبح مهووسًا بسباق الخيل.

تجلت لعقلها فجأة صورة امرأة شابة، لا تتذكرها زهرة على الإطلاق، ولكنها بدت لها مألوفة للغاية. كان لها جبين عبد الله وعيناها هى. لابد أنها أمها. صرخت زهرة فى وجه الموت: «لقد طال انتظارى لك، ولسوف تدركنى عما قريب، فلمَ لا يكون الآن؟ لا يمكننى احتمال عذاب الانتظار أطول من ذلك».

«عمتى زهرة! عمتى زهرة!».

فتحت عينيها فرأت زبيدة وعلى وجهها أمارات القلق.

«هل أحضر لك شيئًا؟».

ابتسمت زهرة ابتسامة واهنة وهزت رأسها نفيًا، ثم تذكرت شيئًا ما، نزعت دبوس الزينة الماسى وناولته لزبيدة.

«إننى أموت. هذا من أجل ابنتك هند. تأكدى من حب الفتى القاهرى لها ثم زوجيهما. أخبرى عمر أنها كانت الرغبة الأخيرة لعمته وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة».

تساءلت زبيدة والدموع تنهمر على وجهها: «هل أستدعى العم ميجيل؟».

«دعيه نائمًا فى سلام، كل ما سيفعله أنه سيحاول معى وسيلقننى الشعائر الأخيرة، وأنا مصرة على أن أموت مسلمة. أخبرى أميرة أن تهتم بغُسلى كما اعتادت أن تفعل فى الزمن القديم».

راحت زبيدة تدلك ساقى زهرة وقدميها.

«أنت لا تحتضرين يا عمة زهرة. قدماك دافئتان مثل جمرتين مشتعلتين. لم يسبق أن سمعنا بموت أحد وقدماه دافئتان».

أجابتها عمتها بصوت واهن: «يا لك من طفلة يا زبيدة، ألم تسمعى من قبل بأولئك الأبرياء المساكين الذين يحرقونهم أحياء على الخوازيق؟».

الصدمة التى ارتسمت على وجه زبيدة أضحكت زهرة، وانتقل مرحها بالعدوى إلى زبيدة التى ضحكت معها، ودون تمهيد انقطع الضحك فجأة وفارقتها الحياة. ضمت زبيدة السيدة العجوز إلى صدرها بشدة، وهى تقول:

«لا ترحلى الآن يا عمة زهرة. لا تتركينا بهذه السرعة».

لم تتلق جوابا.



الفصل التاسع

تم دفن زهرة فى اليوم التالى. أشرفت "آمه" بكل حرص وحب على غُسلها قبل شروق الشمس بوقتٍ طويل. وأتمت مهمتها بينما كان الصبح يتنفس مرحبا بأولى أشعة الشمس.

«لماذا أردت لى أن أقوم بهذه المهمة يا زهرة؟ أهو عقابى الأخير؟ أم أنها إشارة أخيرة للصداقة؟ لولاك يا سيدتى، لتزوجت ذلك الرجل المعتزل بالجبل، المغتر الآن بنفسه ويدعى بالزنديق، ولكنت أنجبت له ثلاثة أطفال، وربما أربعة! ولأسعدت حياته. إننى أتحدث مثل عجوز حمقاء، سامحينى، ظنى أن الله أراد لنا أن نعيش مفترقتين. والآن، ها أنت مهيأة لرحلتك الأخيرة. إننى مسرورة للغاية لأنك عدت إلينا. لو كنت فى غرناطة لوضعوكِ فى صندوق من الخشب وغرسوا صليبًا فوق قبرك. ماذا قال لك ابن فريد عندما التقيت به فى السماء الأولى؟ هه؟».

سُجِّى جسد زهرة فى النعش، ملفوفًا فى كفن خالص البياض بانتظار دفنه. سرعان ما انتقل نبأ رحيلها إلى القرية، ولموقعها المتميز فى نفوس النساجين والفلاحين ممن يعتبرونها سيدة نبيلة، كانت راغبة فى الزواج بواحد منهم لأنها أحبته، هرعوا إلى المنزل، قبل أن يبدأ عمل يومهم، لتقديم احتراماتهم الأخيرة، وللمساعدة فى مواراة جسد السيدة العجوز مثواها الأخير.

ببطء شديد، رفعت أربع أياد النعش ووضعته برفق فوق أربع أكتاف متينة. عمر وزهير يحملانها من ناحية الرأس، ومن ناحية القدمين ابن داوود وابن القزم البالغ العشرين عامًا، وكان طويلاً عريضًا. بقى

كل من الزنديق وميجيل فى الوسط، كانا أكبر عمرًا من أن يقدما أكتافهما لحمل النعش، ولكن أقرب إلى المتوفاة من أن يتركاها تمامًا للجيل الأصغر. تبعهم يزيد خلف أبيه. كان قد أحب السيدة العجوز، ولكنه لم يكن قريبا منها مثل هند التى كان حزنها عليها شديدا.

فرغت النساء من حدادهن فى وقت سابق.وفى وقت باكر من الصباح نفسه راحت "آمه" تردد أناشيد الرثاء والمديح لزهرة، فأيقظت بنواحها كل النائمين من أهل الدار. انصبت دموع الأسف صبًا من عينى هند وهى تلتمس العزاء فى حضن أمها زبيدة. تحدثوا جميعًا عن محاسن المتوفاة وخصالها الحميدة. كيف كانت وهى طفلة، ثم وهى شابة، ثم آثروا الصمت بعد ذلك. لم يرغب أحد أن يناقش ما حل بها فى قرطبة، كما لم يرغب أحد أن يذكر أنها قضت الجزء الأكبر من حياتها فى مارستان غرناطة.

كانت الجنازة تتحرك ببطء بالغ عمدًا، فلم تكن مقبرة العائلة تبعد كثيرًا عن المحيط الخارجى للأسوار التى تحمى منزلهم. سوف تدفن زهرة مع أسرتها، خصصوا لها موضعًا إلى جوار أمها «السيدة نجمة»، التى توفيت قبل تسعة وستين عامًا، أى بعد مولد زهرة بأيام معدودة. كانت مدفونة فى ظل نخلة، وعلى الناحية الأخرى دفن ابن فريد، الأب الذى أحبته كثيرًا كما كرهته كثيرًا. تأمر أحاديث الرسول المسلمين بضرورة الدفن دون تمييز للقبور التى يدفنون بها، وبالاتباع الصارم لتلك السنن، لم يتم تمييز أى من القبور. يزعم بنى هذيل انتماءهم إلى واحد من صحابة النبى، وبصرف النظر عما إذا كان ذلك صحيحا أم تلفيقًا محضًا، فحتى أشد أفراد السلالة تراخيًا فى أمور الدين كانوا ملتزمين باتباع تلك السنة فى الاكتفاء بكومة من التراب فوق قبورهم، ولا شىء أكثر. تلك الرابية الصغيرة من الطين المصنوعة بالأيدى كانت تغطَّى بعشب معتنى به، وصفوف مبهرة من الزهور البرية.

رُفعت زهرة عن النعش وأرقدوها فى قبر كان قد حُفر للتو.

عندئذ اختلط الأمر على ميجيل، وعاد إلى ميكال، وحفن حفنة من تراب الأرض وألقى بها على جثمان شقيقته، وضم يديه وراح يتلو بعض الأدعية، وتبعه جميع الحاضرين فحذوا حذوه. بعدها توجه كل من المعزين إلى عمر بن عبد الله وعانقه، ثم انصرفوا واحدا تلو الآخر. حين رأى ميجيل خوان النجار يرسم علامة الصليب على صدره تذكر أخيرًا هويته الكنسية، فركع مذعنًا للواجب، وشرع يتلو صلواته.

لابد من أن يكون أسقف قرطبة قد ظل على هذا الوضع لدقائق عديدة، لأنه حين فتح عينيه وجد نفسه بمفرده أمام الرابية التى تكونت قبل وقت قصير. فى تلك اللحظة بَدَتْ قدرته على التحكم بالنفس قد خذلته. ثار بداخله طويلاً ألمٌ ما كبحه، وانهمر من عينيه نبعا ماء صغيرين، وبللت الدموع وجنتيه، ولاذت بلحيته حيث غرقت. يعرف ميجيل تماما أن الموت مصير كل حى، وأن زهرة كانت قد بلغت عامها التاسع والستين، فليس من المقبول إذن أية شكوى من المشيئة الإلهية.

كانت المفاجأة هى ما هزه حقًا فى رحيل شقيقته، تمامًا مثلما اضطرت لمغادرة المنزل، قبل كل تلك السنوات، دون أن تودعه. كان يريد بشدة أن يخبرها بكل ما جرى له بعد يوم العار المشئوم ذاك؛ وأن يصف لها تفجر الأهواء والعواطف الذى دفع به دفعًا نحو فضاء مجهول، وجعله يخرق أول المحارم ويرتكب أعظم الكبائر، وما تبع ذلك من عواقب وخيمة؛ وأن يصف لأول مرة موت أسماء، موتها الذى حرمه شخصا واحدا يحمّله ذنب ما يعتمل بداخله من عذاب وبؤس؛ وطبقات الذنب التى لا تزال متحجرة فى موضع ما من عقله؛ رحيل أهل الدار القدامى ومولد جيل جديد يخلفهم. خلال الأيام الثلاثة الماضية لم يكن يفكر فى شىء آخر. الآن فقط يدرك ميجيل أنه سيموت دون حديث أخير مع فرد العائلة الوحيد الذى ينتمى مثله للعالم الضائع نفسه. كانت فكرة لا تحتمل.

أخذ ميجيل ينوح بصوت خافت: «كل ذلك جرى بعد أن تركتينا للعار يا زهرة. لو أنك بقيت فلربما اختلف كل شيء. لقد أخذت معك الحقيقة والمروءة. لم يبق لنا إلا الخوف والأسف والحقد. شوهنا كلنا غيابك. أظن أن أبانا مات حزنًا ومرارة. لقد افتقدك أكثر مما أقر هو لنفسه. لقد مر الآن نصف القرن تقريبًا وما زلت غير قادر على التحدث حول ذلك كله مع إنسان واحد. كان قلبى الواهن هذا يتأهب لأن يفضى لك بما يثقله من هموم. وفى اليوم الذى تهيأت فيه لأن أتكلم، تموتين أنت، يا أختاه. عليك رحمة الله».

حين نهض ونظر نظرة أخيرة نحو تلك البقعة من الأرض التى كانت تغطى أخته المتوفاة، قطع عزلته صوت مألوف فجفل منه.

«لقد تحدثت إليها يا مولاى الأسقف!».

«ابن زيدون!».

كنت أبكيها على الناحية الأخرى من القبر، فلم تلحظنى».

تعانق الرجلان. حكى الزنديق لميجيل كيف صدته زهرة أخيرًا؛ وكيف انتصر بداخلها، متأخرًا للغاية، كبرياء بنى هذيل واستعاد الابنة المسرفة، وكيف كان الجوهر الحقيقى مموها ومختفيا تمامًا؛ وكيف تعذبت فى الأسابيع التى سبقت وفاتها من ذكرى حبها؛ وكيف توصلت إلى أن أسوأ جراحها كانت تلك التى سببتها هى لنفسها، وكيف كانت قد بدأت تندم على انفصالها عن أبيها ابن فريد وعن عائلتها، وهو ما تتحمل عنه المسئولية كاملة.

عقب ميجيل قائلاً: «لطالما عرفت أن أبانا كان هو أهم شىء فى حياتها».

كانت السعادة التى شعر بها ميجيل لدى سماعه هذه الأنباء هائلة بنفس قدر الحزن الذى سببته للزنديق. بقى كل من الأسقف والشكاك نحو دقيقة بلا حراك، كلاهما فى مواجهة الآخر. كانا ذات يوم ينتميان إلى الحضارة الغارقة نفسها، غير أن بحرًا خفيًا يفصل الآن بين العالم

الذى يقطنه كل واحد منهما؛ أما المرأة التى حاولت أن ترأب الصدع بين عالميهما، وعوقبت رغم آلامها، فترقد الآن مدفونة على بعد خطوات من حيث يقفان.

حقيقة أنها خلال الأيام الأخيرة لها على هذه الأرض، كانت قد عادت إلى عائلتها من صميم قلبها، هذه الحقيقة حملت لأخيها العزاء. أما بالنسبة للزنديق، الزنديق الغارق فى بحر الحزن والمرارة، فلم يكن ذلك سوى مثال آخر على الانقسامات عميقة الجذور بالأندلس، الانقسامات التى مزقت أبناء الإسلام وفرقتهم، لقد أخفقوا فى إقامة صرح دائم لانجازاتهم الباكرة.

همس الزنديق لنفسه: «كل ما تبقى لنا هو أن نخضع للاستجواب والتحقيق! نعم! أن يتم استجوابنا وتفتيشنا حتى نخاع عظامنا المثيرة للشفقة!».

سمعه ميجيل، ولكنه بقى صامتًا.

بعد أن عاد الرجلان إلى المنزل، أحدهما لينضم إلى عائلته، والآخر ليتناول الإفطار فى المطبخ، كان زهير فى طريقه إلى غرناطة. كان يعدو بجواده بسرعة معقولة، ولكن أفكاره كانت مع من خَلَّفهم وراءه. كان أكثر ما أزعجه هو الافتراق عن شقيقه الأصغر. كان يزيد يشعر وكأنما قد أرشدته غريزة غامضة، أنه لن يرى أخاه الأكبر مرة أخرى. مشهد افتراقهما شهده كل أهل الدار وأثار الدمع فى مقلهم جميعًا، بمن فيهم القزم، مما أدهش يزيد، وساعد فى تشتيت انتباهه عن المصدر الأساسى لضيقه.

قال زهير، محدثًا نفسه وهو يربت عُرف جواده خالد، الذى كان يخب مبتعدًا عن القرية: «لن أنسى هذه التربة الحمراء ما حييت». عندما بلغ قمة التل، ألجم الجواد والتفت ليلقى نظرة نحو الهذيل. كانت المنازل المبيضة بالجير تتلألأ فى الضوء، ومن ورائها الجدران السميكة للمنزل الذى وُلد فيه.

«سوف أذكرك للأبد: فى شمس الشتاء مثل يومنا هذا، وفى الربيع

عندما ينبعث عبير الأزهار مثيرًا حيويتنا ونزقنا، وفى حرارة الصيف
عندما يهدئ من خواطرنا ويرطب حواسنا الصوت الخفيض لقطرة
واحدة من المياه. ثم تسقط بضع قطرات من المطر فيهدأ الغبار، وينتشر
أريج الياسمين فى الجو».

«سوف أتذكر مذاق الماء الذى ينبع من العيون الجبلية متدفقًا حتى منزلنا، واللون الأصفر الفاقع لتيجان نبات الوزال، والريح الجبلية الطائشة تتخلل أشجار الصنوبر، وجلال النخلات وهى تتمايل متراقصة على إيقاع أنسام الجنة، والعبير اللاذع للزعتر، شذى نيران الخشب فى الشتاء، وكيف يحدث فى يوم صيف صحو أن تتلبد السماء فجأة بظلمة، ويزيد الصغير قابضا على قطعة زجاج كانت ملك جدنا الأكبر، ينتظر ملهوفًا على الشرفة خارج البرج القديم حتى تظهر النجوم من جديد، ويبقى هناك مراقبًا الأفق حتى تذهب أمنا أو "آمه" لتجره جرًا نزولاً على الدرج؛ ليخلد إلى فراشه.

حدث زهير نفسه: «كل هذا سوف يُبقى القلبَ المتوقد لحياتى».

شدّ العنان والتفت للخلف نحو الهذيل، ثم ضرب بطن جواده بعقبيه فراح يركض بسرعة على الطريق المؤدية إلى أبواب غرناطة.

نشأ زهير فى ظل ألف حكاية وحكاية عن الفروسية والمحاربين. هو الآن يحمل سيف جده المحارب ابن فريد، الذى تنوء بثقله كتفاه. كان يعرف أن ذلك الزمان قد ولَّى، لكن فى نفسه انغرست عميقًا حكاية خيالية عن معركة أخيرة، عن الخروج على صهوة الخيل نحو المجهول، ومباغتة العدو، من يدرى، ربما حتى إحراز النصر. كان هذا ما يحث سلوكه المندفع.

ومع ذلك، كما أخبر نفسه وأصدقاءه كثيرًا، لم تكن أفعاله مدفوعة بحكايات الماضى الخرافية أو الحلم بأمجاد المستقبل. قد لا يكون زهير أذكى وأفطن أبناء عمر وزبيدة، ولكنه كان الأكثر عاطفة بينهم بلا جدال.

عندما كان فى نصف عمر يزيد وصلت إلى القرية أنباء دمار «الهامة» واستيلاء المسيحيين عليها. «الهامة»، مدينة الحمامات، التى كانوا يذهبون إليها ليرى أبناء عمه كل ستة أشهر. كانت الحمامات وعيون الماء بالنسبة لهم جزءا من حياتهم اليومية، أما بالنسبة لزهير فقد كانت عيون الماء الشهيرة التى اعتاد سلطان غرناطة نفسه الاستحمام فيها، متعة شديدة الخصوصية. قُتلوا جميعًا، ذُبِحَ كل الرجال والنساء والأطفال، وأُلقيت جثثهم للكلاب خارج أبواب المدينة.

استحم القشتاليون فى الدم، وإن لم يكذب مدونو تاريخهم، فقد استطابوا التجربة. أصاب الذعر من هول المذبحة مملكة غرناطة بكاملها، بمن فى ذلك كثير من الرهبان المسيحيين. كان عويلًا مرتفعَ الصوت يتصاعد من القرية، إذ يهرع أهلها إلى الجامع لإقامة الصلاة على أرواح الموتى ويتوعدون بالثأر لهم. كل ما يمكن أن يتدكره زهير من ذلك اليوم هو أبناء عمومته الذين كان يشاركهم اللعب. ملأته ذكرى قتل ولدين في مثل عمره، وثلاث بنات أكبر سنا دون شفقة ولا رحمة. وجه أبيه المغتم وهو يعلن النبأ: «لقد دمروا «الهامة»... زهرتنا الجميلة. الآن تملك إيزابيلا وفردناند مفاتيح غرناطة. لن يمضى وقت طويل قبل أن يستولوا على مدينتنا».

ولج زهير إلى أعمق أركان ذاكرته وبدأ يسمع الأصوات القديمة. كان ابن حصد يصف رد الفعل فى غرناطة حينما وصلت أخبار مذبحة «الهامة» إلى القصر. تخيل زهير السلطان العجوز أبا الحسن، وكان قد رآه مرة واحدة، عندما كان عمره سنتين أو ثلاث، غير أنه لا يستطيع أن ينسى الوجه المسفوع المملوء بالندوب، واللحية البيضاء المشذبة. كان ما استفز رد فعل المسيحيين ضد «الهامة» هو ما قام به هذا العجوز من هجوم جسور طائش، واستيلائه على حدود الزهراء. كان قد اندفع مع جنده لإنقاذ المدينة، ولكن الوقت كان قد فات. أرغمه الفرسان

المسيحيون على التقهقر. أرسل السلطان المنادين يجوبون غرناطة
يسبقهم قارعو الطبول والدفوف، بموسيقاهم الصاخبة الكئيبة
نبهت أهل المدينة بأنه سيتم إعلان بيان من القصر. ازدحمت الـ[illegible]
بالناس، لكن المنادين لم يتفوهوا سوى بعبارة واحدة:

(واحسرتاه على «الهامة»)

أثارت ذكرى تلك الفظاعات مزاج زهير، وبدأ يغنى الأ[illegible]
الشعبية التى ألفها الناس لتسجيل المذبحة.

«سلطان العرب كان يركب
جواده فى مدينة غرناطة،
من باب آلبيرا إلى باب الرملة.
بلغته الرسائل تقول:
لقد استولوا على «الهامة».
فواحسرتاه على «الهامة»!

ألقى بالرسائل إلى النار،
وقتل الرسول،
هرش بيده فى شعره،
ونتف لحيته فى غضب.
نزل عن بغلته،
وركب حصانه؛
واتجه نحو حى الزقاطين،
وصعد نحو الحمراء؛
وأمر بإحضار أفضل مناديه وأقواهم صوتًا،
وتجهيز الأبواق الفضية فى الحال،
وهكذا سمع الموريسكيون وهم يحرثون حقولهم

من يقول:
واحسرتاه على «الهامة»!

أربعًا فأربعًا، وخمسًا فخمسًا،
تجمع حشد كبير.
وتحدث إليهم شيخ حكيم،
وقال من أعماق لحيته الشائبة:
«لماذا تنادينا أيها السلطان؟
ما الذى تعلنه أبواقك؟».
«هكذا تسمعون يا أصحاب
التفجع على الخسارة الفادحة ل «الهامة».
واحسرتاه على «الهامّة».

«هذا جزاؤك أيها السلطان الطيب،
أيها الملك الطيب، لقد نلت ما تستحق؛
لقد قتلت الأمراء
الذين كانوا زهرة غرناطة؛
واستدعيت المرتدين
من قرطبة الشهيرة.
وهكذا أيها الملك، فأنت تستحق
هذا العقاب العظيم،
دمارك ودمار مملكتك
وقريبا دمار غرناطة.
واحسرتاه على الهامة!».
ذكرته الأغنية الشعبية بأبناء عمه القتلى، كانت ضحكاتهم تتردد

فى أذنيه، غير أن الذكريات السعيدة لم تستمر طويلا. ها هو يرى الأل
أجسادهم مقطعة الأوصال، سرتْ فى بدنه قشعريرة، وعلى التعالب
حلت به نوبة هياج، ثم ازدراء ومرارة، وهو ينخس حصانه فيسرع أكثر
فأكثر. فجأة وجد نفسه ينزع سيف ابن فريد من غمده، ويشهره فوق رأسه
ويتخيل أنه على رأس كتيبة فرسان من المسلمين، قاصدين تحرير «الهامة».

صاح زهير بأعلى صوته: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله!». ما
أدهشه أنه سمع صدى يردد الشهادة، ولكن بعشرات الأصوات. شد
إليه اللجام، وظل الحصان وسيده ثابتين بلا حراك. أعاد السيف لغمده
بهدوء. كان زهير يسمع صوت حوافر خيل، ثم رأى غبارًا ثائرًا. من
عساهم يكونون؟ للحظات ظنهم فرسانًا مسيحيين استجابوا لصيحته
ورددوها بغرض الإيقاع به. كان يعرف أنه ما من جواد آخر فى المملكة
يمكنه أن يسبق جواده الأصيل، ولكن الهرب سيكون جبنًا ومخالفًا
لأصول الفروسية. انتظر حتى وصل الراكبون إلى أول الطريق ثم اتجه
لمقابلتهم. استراح حين رأى الأربعة عشر فارسًا معممين كلهم، وعلى
كل عمامة كان الهلال المألوف. كان هناك شيء آخر غريب فى مظهرهم،
ولكن قبل أن يتمكن زهير من تحديد مصدر تلك الغرابة، وجد أحد
الغرباء، الذى بدا أنه كبير هذه المجموعة الصغيرة، نظرًا لتقدمه عنهم فى
السن، يتوجه بالحديث إليه.

«السلام عليك يا أخى! من أنت وما وجهتك؟».

«أنا زهير بن عمر. أتيت من قرية الهذيل قاصدًا غرناطة، وحمدًا لله
على أنكم من المسلمين. لقد خشيت عندما رأيت أول الأمر الغبار الذى
تثيره خيولكم. ولكننى أتساءل من تكونون وما وجهتكم؟».

أجاب الغريب: «إذن فأنت آخر أحفاد نسل ابن فريد، لقد أخبرنا
الزنديق بالكثير عنك يا زهير الفحل!».

عندئذ قهقه الغريب ضاحكًا وانضم إليه أتباعه. ابتسم زهير

اب وراح يتفحصهم تباعًا، فأدرك الآن الشيء الغريب الذى صدمه أول وهلة. كان هناك قرط فضي واحد على شكل هلال، معلقا فى الأذن اليمنى لكل واحد منهم. تجمد فؤاد زهير، ومع ذلك جهد للسيطرة على مرله. كان الرجال من قطاع الطرق، وإذا أدركوا أنه يحمل نقودًا ذهبية فى سوف يريحونه من عبء حملها، ولكنهم قد يسلبونه حياته كذلك. ه يحمل كثيرًا الموت فى معركة ضد المسيحيين، كرر عليهم سؤاله.

«تقول: إنكم تعرفون معلمى الزنديق. هذا أمر يسرنى، ولكننى ما زلت أجهل من أنتم وما عملكم».

أتاه الرد المنشرح: «نحن نجوب هذه الأرض طولاً وعرضًا، طرحنا عنا الزهو والغرور، فلا تعكر صفونا هموم أو منغصات. نحن قادرون على إلجام سيل عرم، وعلى ترويض الخيول البرية الحرون. نشرب قربة نبيذ دون أن نتوقف لالتقاط الأنفاس، ونأكل حملا وهو ما زال يُشْوى على السفود، وننتف لحية شيخ واعظ ونحن نغنى لنبهج أنفسنا. نعيش غير مضطرين لحماية سُمعتنا والحفاظ عليها؛ لأننا لا نملك صيتًا ولا مكانة. كلنا نحمل اسمًا واحدًا ننتمى إليه، هو «المعرى»، الشاعر الأعمى الذى عاش بين حلب ودمشق قبل نحو أربعمائة عام. تعال تناول معنا بعض الزاد والنبيذ، وسوف تعرف عنا المزيد. هيا، يا زهير الفحل، لن نحتجزك طويلاً».

روعت زهير طبيعة هذا الجواب، ومع ذلك هدأت مخاوفه، فقد بلغ هؤلاء درجة من الغرابة تجعلهم بعيدين كل البعد عن أن يكونوا قتلة بلا قلوب. أومأ موافقًا على عرضهم فأسرعوا بجيادهم بينما انضم إلى ركبهم. وما هى إلا بضعة أميال حتى بلغوا صخورًا كبيرة، حركوها فى حرص فأغلقت السبيل إلى المدخل المستتر، وبعد مسيرة عشر دقائق بخيولهم وجد زهير نفسه فى مخيم مسلح. كان أقرب ما يكون إلى قرية من الخيام، موزعة بنظام حول نبع ماء صغير. جلس نحو حوالى اثنتى عشرة

امرأة ونصف عددهم من الأطفال خارج إحدى الخيام. كانت النساء يطحن الذرة، والأطفال يلعبون لعبة معقدة باستخدام الحجارة.

قام قائد هذه العصبة، الذى قدم نفسه الآن رسميًا باسم أبى زيد المعرى، بدعوة زهير إلى خيمته. المكان بداخل الخيمة بسيط متقشف فيما عدا بساط تتناثر حوله بضع وسائد مهلهلة، وحين جلسا دخلت عليهما شابة بقارورة نبيذ، ورغيفين صغيرين من الخبز البنى، وبعض لباب الخيار والطماطم والفجل والبصل. وضعت ذلك كله بين يدى الرجلين وأسرعت بالخروج، وسرعان ما عادت بوعاء زيت الزيتون. عندئذ قدمها أبو زيد لزهير، قائلاً:

«ابنتى فاطمة».

غمغم زهير بالتحية وقد سحره مسلك الصبية البسيط الوائق، وقال: «سلام الله عليك، ألن تتناولى معنا لقمة؟».

قالت فاطمة وهى ترمى بطرف عينيها نحو أبى زيد: «سأنضم إليكما فيما بعد، بصحبة الآخرين بعد أن نأكل. أظن أن أبى يود الحديث معك على انفراد».

استهل أبو زيد المعرى حديثه ما أن انصرفت ابنته قائلاً: «والآن يا صديقى، ليس القدر هو ما جمعنا، بل الزنديق. كما ترى، نحن قوم نعيش على ما نستطيع سرقته من الأغنياء، اتباعًا لتعاليم المعرى العظيم، ولا نُفرق بين مسلم ومسيحى أو يهودى، فالثروة لا تخص أهل دين دون آخر. أرجو ألا تخاف. لقد لمحت الذعر فى عينيك حين رأيتَ لأول وهلة الهلال الفضى الذى نعلقه قرطًا فى أذننا اليسرى، ولعلك تساءلت إن كانت نقودك الذهبية ما زالت فى أمان؟».

أقر له زهير، وهو يغمس الخبز بزيت الزيتون: «لأكن صريحًا، كنت أكثر قلقًا على حياتى».

واصل أبو زيد قائلاً: «نعم، بالتأكيد، كنت محقًا فى قلقك هذا،

.. لما شرعت أقول لك فإن ذلك الشيخ المعتزل بكهف بالجبل هو
أخبرنى أنك تنوى الانخراط فى مغامرة جامحة بغرناطة، والتمس
أحاول أن أثنيك عن هدفك، وأن أقنعك بـ: إما أن تعود إلى منزل
..، أو أن تنضم إلى عصبتنا الصغيرة. إننا نفكر فى مغادرة هذه
... والانتقال إلى البوجارا، حيث يوجد آخرون كثيرون على شاكلتنا.
... سوف ننتظر اللحظة المواتية، ثم نغتنم الوقت وننضم للمعركة».

قال زهير وهو يرشف نبيذ التمر المعتق: «فى هذا الزمان يعد
... صداقات جديدة أصعب بكثير من الإبقاء على العداوات
القديمة. سوف أُنعم التفكير فى الأمر قبل أن أقرر إذا كنت سأقبل
... الحكم الكريم أو لا».

ضحك زعيم اللصوص، وكان على وشك أن يجيبه حين قطع
... دخول ابنته، حاملة قدرًا فخاريًا ممتلئًا بالقهوة، يتبعها ثلاثة من
... الخمس. امتلأت الخيمة بشذا القهوة المختمرة والمغلية للتو مع
... الهال، مما ذكر زهير بمنزله الذى كان قد غادره قبل ساعة واحدة.
... الداخلون على البساط متربعين، وراحت فاطمة تصب لهم القهوة.

توجه أبوزيد بالحديث للرفقة المجتمعة، قائلاً: «لا أظن أن
صديقنا الشاب سوف ينضم إلى صفوفنا. إنه كابلليرو، فارس يؤمن
... اليد الفروسية وقواعدها. ألستُ على صواب؟».

شعر زهير بالحرج؛ لأنه تم اكتشافه بهذه السرعة.

«كيف تتحدث على هذا النحو يا أبا زيد المعرى؟ ألم أخبرك توًا
بأننى سوف أُنعم التفكير فى الأمر قبل أن أتخذ قرارًا؟».

تدخلت فاطمة: «يحسن أبى الحكم على الناس. تدله فطنته فى
طرفة عين ما إذا كنت من نوع الأشخاص الذين يلعبون الشطرنج مخفين
قطعة زائدة. من الواضح، حتى لى، أنك لست ذلك الرجل».

سألها زهير بنبرة استياء: «وهل على أن أكون كذلك؟».

أجابت: «ما هو مفيد للكبد كثيرًا ما يضر الطحال».

أحس شقيقها، الذى لم يكد يتجاوز الثامنة عشر من عمـ.. فاطمة تتوخى اللباقة أكثر من اللازم.

«لطالما كان والدى يقول: إن الناس معادن، منهم الـ.. والفضة، والنحاس».

ضحك أبو زيد مقهقهًا: «نعم، ذلك صحيح، ولكن الفارس.. يمتلك الأسباب الوجيهة، من منظوره الخاص، بأنه من الذهب، و قُطَّاع الطرق من النحاس، وبما أننا نتحدث عن المعادن ومحاسنها النـ.. فليسمح لى ضيفنا الهذيلى الشاب أن أشير إلى نقطة أخرى، ألا يتفق معنا ا.. لا يفل الحديد إلا الحديد؟».

قال زهير: «أتفق بالطبع، ومن غير الممكن ألا يكون كذلك.. سره أن الحديث اتخذ وجهة أخرى.

«إذا كنا متفقين على هذا يا زهير الفحل، فكيف لك أن تعار.. حجتى بشأن الحرب على غاصبى غرناطة؟ كان سلطاننا مصنوعا .. القش، بينما خيمنيث دى سيسنيروس مصنوع من الصُلب! لقد انتهى الأسلوب القديم من الحروب، انتهى ليلة أن دمر المسيحيون «الهامة». إ.. كنا نريد النصر فعلينا أن نتعلم منهم. أعرف أن الزنديق يعتقد أنه قد فا.. الأوان، ولكنه قد يكون مخطئًا. كان من الممكن إنقاذ الأندلس قبل أمد.. طويل، لو أن حكامنا التعساء كانوا قد فهموا تعاليم أبى العلاء المعرى.. كان من الممكن أن يجعلهم ذلك واثقين بأنفسهم، ولكن كلا! لقد آثر.. كتابة الرسائل إلى شمال إفريقيا يلتمسون العون».

سبق وأن أنقذنا أهل شمال إفريقيا من المسيحيين أكثر من مرة، ألم يفعلوا؟».

«صحيح! وكان السبيل الوحيد لإنقاذنا هو هدم الأسس التى أقمنا عليها بناءنا. لقد أنقذونا كما ينقذ أسدٌ ظبيا من بين مخالب نمر.

الإسلام الذى كانوا يتحدثون عنه لم يكن أفضل ولا أسوأ من المسيحية.

«فقهاؤنا زلت بهم أقدامهم، والمسيحيون ضالون، واليهود مرتبكون، والمجوس على الدرب الخطأ، والبشر منقسمون إلى فئتين لا ثالث لهما. أوغاد مستنيرون، أو حمقى متدينون».

تسائل زهير: «المعرى؟».

أومأ الجميع.

عقب زهير: «تعجبون به كما يعجب الزنديق، اغفروا لى جهلى، ولكننى لم أقرأ عمله».

وهنا غضب أبو زيد غضبة صادقة: «ألم يعلمك الزنديق؟».

بلى! فعل، ولكنه لم يعرنى ولو مرة واحدة كتابًا حقيقيا من كتب المعرى. يكتفى وحسب بتلاوة أشعاره، التى اتفق على أنها مثيرة ومنبهة أكثر من نبيذ تمركم المعتق! هل هناك احتمال بأن تكونوا من نسله؟».

أوضحت فاطمة قائلة: «قبل أن يموت، أمر بأن يكتب على ضريحه بيت شعر له يقول:

هذا ما جناه أبى علىَّ وما جنيت على أحد.

«لم يكن راضيًا عن الوضع الذى عليه العالم، بحيث كان يعتقد أن إنجاب الأولاد ليس تصرفًا حكيمًا. لم يتمكن الجنس البشرى من علاج نفسه، وهكذا كما ترى، قررنا أن نتصرف وكأننا أبناؤه، وأن نعيش وفقًا لتعاليمه فقط».

أصاب زهيرًا الارتباك، فحتى هذه اللحظة كان يعتقد أن الطريق الذى اختاره هو الطريق الوحيد المشرِّف لمُحارب مسلم، ولكن قُطَّاع الطرق الغريبين هؤلاء، والفيلسوف الذى يوجههم، أفلحوا فى زرع بذرة الشك بداخل عقله. كان نصف منصت لأبى زيد المعرى والآخرين وهم يذكرون مناقب وعظمة الفيلسوف والشاعر، متحرر العقل، الذى اختاروه لأن يكون أبًا لهم جميعًا.

كان زهير متخبطًا، ومضطرب العقل. كان يشعر بأنه على شفا هاوية، وبأنه مهدد بفقدان توازنه فى أى لحظة. شملته رغبة عارمة في العودة إلى الهذيل. ربما ذهب نبيذ البلح بعقله، وربما بضع أكواب أخرى من القهوة ثم ساعة أو ساعتين فى حمام غرناطة، ويصبح كل شيء واضحًا أمامه من جديد. لن نعرف أبدًا؛ لأن زهيرًا وهو فى قلب هذا التشتت الذى غَشِى عقله، هيأ له أنهم كانوا يسخرون من كتاب الله، وهو ما يعرف أنه لا يمكن أن يقبل به. ثارت الدماء فى رأس زهير. لعله أخطأ الفهم فيما سمعه من كلمات، فطلب من أبى زيد أن يعيد عليه ما كان يقول قبل دقائق معدودة.

هل الدين إلا كاعبًا، دون وصلها، حجاب، ومهر معوز، وحياء
وما قبلت نفسى، من الخير، لفظة وإن طال ما فاهتْ به الخطباء

صاح زهير محبطًا: «كلا! كلا! لا أقصد هذا الشعر، فقد سمعت هذه الأبيات من قبل، لكنك ذكرت القرآن، ألم تفعل؟».

نظرت فاطمة فى عينيه مباشرة.

أجابته: «بلى، ذكرته. كان أبو العلاء المعرى، أحيانًا وليس على الدوام، لا يستطيع أن يمنع نفسه من التشكك فيما إذا كان القرآن كلام الله حقًا، ولكنه كان مفتونا بالأسلوب الذى وُضع به. وذات يوم جلس وكتب نسخته الخاصة من الكتاب، التى أسماها الفصول والغايات».

زأر زهير: «كفر!».

شرح أبو زيد فى هدوء، وبابتسامة صغيرة: «لا شك أن الفقهاء يعتبرونه مروقًا وإلحادًا، ولكن ما كتبه كان محاكاة ساخرة لكتاب الله، ولكن حتى أقرب أصدقاء معلمنا الكبير أقروا بأنه كان دُون القرآن من كل الوجوه».

أكملت فاطمة تقول: «وعلى كل من كانوا يهاجمونه كان يجيب

قوله: إن كتابه على عكس القرآن، لم تصقله وتجلوه ألسنة المرتلين خلال أربعة قرون».

استقبلت هذه الدُرة من كنوز السيد بالهتاف والضحك. انزعج أبو زيد لما اعترى وجه زهير من التجهم والكدر، وقرر أن يخفض قليلاً من سخونة اللحظة.

«عندما اتهموه بالمروق والتجديف نظر ببساطة فى عينى متهمه، وقال: إننى أرفعُ صوتى بالإفك الكاذب، وأخفضه حين أنطق بالصدق حتى يكاد لا يسمعه أحد.

سأل زهير: «أخبرنى يا أبا زيد، هل تؤمن بديننا؟».

«كل الأديان متاهة مظلمة. يتخذ الناس أديانًا بحكم العادة. لا يحدث أبدًا أن يتوقفوا ليسألوا إن كان ما يؤمنون به صحيحًا. انغرس الوحى المنزل عميقًا فى عقولنا، وفى النهاية كان السابقون الأولون هم الذين اخترعوا الأساطير واتخذوا منها أديانًا لهم، أما موسى وعيسى ونبينا محمد فقد كانوا قادة عظماء لقومهم فى أزمنة شاقة، ولا أؤمن بأى شىء أكثر من هذا».

كان هذا الحوار الأخير هو ما جعل زهيرًا يثبت على المسار الذى كان قد اختاره. هؤلاء قوم فسدوا وضلوا. كيف يمكن لهم أن يأملوا فى طرد المسيحيين من غرناطة إن كانوا هم أنفسهم كافرين بالله؟ ومن جديد انتابه الغيظ من صوت أبى زيد، الذى أوضح أنه يكاد يقرأ أفكار زهير.

«إنك تتساءل كيف يمكن لأشخاص مثلنا أن يهزموا المسيحيين، ولكن سل نفسك مرة أخرى كيف حدث أن أخفق حماة الدين الأشد تقوى وغيرة عليه فى هذه المهمة ذاتها».

أجاب زهير: «لن أجادل أكثر من هذا، لقد استقر رأيى. سأغادر الآن وأنضم إلى أصدقائى الذين ينتظروننى فى غرناطة».

نهض واقفًا وتناول سيفه. تبعته فاطمة والآخرون خارج الخيمة

إلى الهواء البارد. تقدم النهار وقد عزم زهير على بلوغ مقصده • إ
غروب الشمس.

«صحبتك السلامة يا زهير بن عمر» قال أبو زيد وهو يعانق الشا،
مودعًا. «وتذكر، إذا غيرت رأيك ورغبت فى الانضمام إلينا، فلتأت إل
البوجارا حتى تصل قرية صغيرة اسمها البسيط، اذكر اسمى الأول لم
تراه هناك، وفى غضون يوم واحد سأكون بصحبتك. فى أمان الله!».

اعتلى زهير جواده، ورفع قبضته اليمنى نحو جبهته بالتحية، وما هى إلا دقائق معدودة حتى كان من جديد فى الطريق إلى غرناطة، سَره أن يكون بمفرده مرة أخرى، بعيدًا عن تلك الجماعة المنبوذة من المهرطقين واللصوص.

لقد استمتع بالتجربة، لكنه كان يشعر بأنه غير طاهر تمامًا، كما كان يشعر دائمًا بعد أن يكون مع أميمة. فرد صدره واستنشق هواء الجبال النقى ليطهر باطنه.

رأى المدينة حين بلغ قمة أحد التلال. فى الأيام الخوالى عندما كان يركب إلى البلاط بصحبة حاشية أبيه، كانوا يتوقفون قليلاً هنا ليستمتعوا بالمنظر، وغالبًا ما كان أبوه يردد إحدى الحكايات من زمن السلطان العجوز أبى الحسن، ثم يسرعون نزولا على المنحدر بلامبالاة الأطفال، وما أن يبلغوا أبواب المدينة حتى يستردوا وقارهم. للحظات كان زهير يرغب فى الاندفاع نزولا على التل، ولكنه تراجع متعقلا، فالجنود المسيحيون يتخذون مواقعهم عند كل مدخل من مداخل المدينة، وعندما اقترب من أبواب المدينة تساءل فى نفسه تُرى ماذا سيقول ابن داوود: إذا ما علم بلقائه العجيب مع قُطَّاع الطرق. دائمًا ما يبدو ابن داوود وكأنه يعرف كل شىء، ولكن هل سبق له أن سمع بالمعرى؟

حَدَّق الحرس المسيحيون بشدة فى الفارس الشاب المقترب منهم. أدركوا أنه سيد نبيل من جودة عباءته الحريرية التى تعلوه حتى

ﻫلل رأسه، لعله فارس عربى أتى هنا للقاء معشوقته. ولأنه كان يحمل سيفه مجردا علانية استنتجوا أنه لم يكن مجرمًا ينوى القتل. رآهم زهير يفحصونه فأبطأ من سرعة جواده أكثر، ولكن الحراس لم يتجشموا حتى مشقة استيقافه. أقر بحضورهم بإيماءة هينة بذقنه، وهى حركة ورثها دون وعى عن أبيه. ابتسم الجنود ملوحين له.

بعد أن دخل المدينة على جواده، استرد زهير الطمأنينة من جديد. بدا الارتباك الناجم عن لقائه غير المتوقع بالمجدفين قبل ساعات قليلة، أقرب الآن إلى حلم عجيب. فى الأيام السابقة، أو حتى قبل شهر واحد، كان بإمكانه التوجه مباشرة إلى منزل عمه ابن هشام، ولكن ذلك أصبح اليوم شيئًا لا يمكنه حتى التفكير فيه. ليس لأن ابن هشام قد أصبح پدرو الغرناطى، أحد المتحولين، ولكن لأن زهيرًا لم يشأ أن يعرض عائلة عمه للمخاطر.

وصل أصدقاؤه البالغ عددهم عشرة أو أكثر قليلا إلى غرناطة فى اليوم السابق، ونزل أولئك الذين ليس لهم أقارب أو صلات فى المدينة بغرف فى الفندق. بدا أمرًا غير واقعى لزهير أن ينزل فى أحد الفنادق بالمدينة التى يعرفها خير معرفة، ويكثر فيها أقاربه ومعارفه، ومع ذلك فإن هذا يصفى عقله للتركيز على ما يتمنى أن يحققه. لم يكن يريد أن يشعر بالألفة فى غرناطة فى هذه الزيارة تحديدًا. كان يريد أن يتذكر الأعمال الملقاة على عاتقه فى كل دقيقة يقضيها هنا من الليل أو النهار. رأى زهير نفسه بعين خياله حاملًا راية هجوم مضاد يشنه مسلمون مخلصون ضد الدولة الجديدة التى ما زالت فى طور البناء، وضد الشيطانة إيزابيلا والفاسق فرديناند، وضد الملعون خيمنيث. ضدهم جميعًا.

فى وقت تالٍ من هذا المساء جاء رفاق زهير للترحيب به فى المدينة. تم حجز واحدة من أفضل الغرف بالفندق له، يتدلى من سقفها مصباحٌ نحاسى بستة أفرع مزين بنقش معقد غريب، وقد انبعث نور ناعم من مشاعله الزيتية. فى منتصف الغرفة وُضعت مجمرة فخارية مليئة بجمر

الفحم المشتعل. فى أحد الأركان فراش لطيف، مغطى بلحاف من ...
أخضر وبنفسجى. جلس الشباب الثمانية كلهم على سجادة صلاة كب...
تغطى الأرض فى الركن المواجه للفراش.

كان زهير يعرفهم جميعًا، فقد نشأوا معًا. كان بينهم شقيقان من
عائلة ابن منصور الصائغ؛ وابن العشّاب محمد بن بسيط؛ وابن أمين
أصغر أبناء الطبيب اليهودى الذى يعمل فى خدمة القائد العام للمدينة؛
وثلاثة شبان غلاظ من الهذيل، كانوا قد وصلوا غرناطة يوم الأمس. لم
تستطع الهزيمة نفسها تغيير نمط معيشة هؤلاء الشباب، وحتى وصول
الرجل صاحب قبعة الأسقف والقلب المظلم، كانوا يعيشون حياة لا
يعكر صفوها شىء. لكن خيمنيث دى سيسنيروس اضطرهم للتفكير
بجدية لأول مرة فى حياتهم، وربما لهذا السبب وحده كان لابد من أن
يشعروا بالامتنان نحوه. غير أن الأسقف كان قد هدد أسلوبهم فى الحياة
بكامله؛ ولهذا كرهوه كل الكراهية.

لم تؤهل الطبيعة أيًا من هؤلاء الشباب لكى يكون متآمرًا. عند
وصولهم إلى غرفة زهير فى البداية غلبهم جميعًا شعور بالتوتر والارتباك،
وغطت وجوههم مسحة كآبة. رأى زهير الحالة التى كان عليها أصدقاؤه
فأشعرهم بالألفة بافتتاحه جولة منعشة من النميمة والثرثرة. وما أن
راحوا ينبشون الحياة الخاصة لبعض معارفهم حتى عاودتهم البهجة،
وكادوا يستردون طبيعتهم القديمة كما كانت.

كان ابن أمين هو الوحيد الذى امتنع عن الحديث الشائق الذى
يدور بينهم، بل إنه لم يكن ينصت إليه. كان مستغرقًا فى الأهوال التى
تنتظرهم، وتحدث بصوت يخنقه الغضب قائلاً:

«عندما ينتهون من القضاء علينا فلن يتركوا لنا عينًا تبكى أو لسانًا
يصرخ، لو اقتصر الأمر على القائد العام فسوف يتركنا لحالنا، لكن القس
هو المعضلة الحقيقية».

تلا ذلك عاصفة من الشكوى والتذمر. شوهد موفدون من محكمة التفتيش فى المدينة، وطُرحت الاستفسارات إن كان التحول الذى يجرى حقيقيًا أم زائفًا. وُضع الجواسيس أمام بيوت المتحولين، ليروا ما إذا كانوا يذهبون لأعمالهم يوم الجمعة أم لا، وكم من المرات يستحمون، وما إذا كانوا يختنون الصبيان حديثى الولادة أم لا، وهكذا. وقعت حوادث عديدة أهان فيها الجنود نساء مسلمات بل وتحرشوا بهن.

قال ابن بسيط ابن العشاب: «منذ أن دخل هذا القس الملعون مدينتنا بدأوا يجردون كل ممتلكات وثروات المسلمين واليهود، لا شك فى أنهم سوف يسلبوننا كل شىء إن لم نتحول».

تحدث سليمان بن محمد، الابن الأكبر من ولدى الصائغ: «يقول أبى إنه حتى لو تحولنا فإنهم لن يعدموا وسائل أخرى لسرقة ممتلكاتنا. انظروا ماذا فعلوا باليهود».

تمتم ابن أمين قائلاً: «إن مصاصى الدماء أولئك فى روما، الذين يدعون أنفسهم باباوات، لن يترددوا عن بيع مريم العذراء نفسها لملء جيوبهم. الكنيسة الإسبانية لا تفعل أكثر من اتباع مثال أبيها المقدس».

قال ابن بسيط: «ولكن على حسابنا نحن!».

منذ سقوط غرناطة، كان زهير شاهدًا صامتًا على الكثير من الأحاديث الشبيهة فى غرناطة والهذيل؛ وغالبًا ما كان يقوم أبوه أو عمه أو بعض كبار السن من القرويين بتوجيه دفة الحديث وجهة أخرى، من خلال اعتراض يأتى فى التوقيت المناسب. كان زهير متعبًا وضجرًا، وبدأت الريح تخترق مصراعى النافذة، وسرعان ما ستخبو النار فى المجمرة. خلد القائمون على الخدمة فى الفندق إلى النوم. هو نفسه كان يرغب فى النوم، لكنه كان يعرف أنه من الممكن أن تستمر هذه المحادثة هائمة، بلا هدف على الضوء المتذبذب للمصباح حتى الساعات الأولى من النهار، إن لم يقم هو بإثارة الشئون الأهم ويصر على اتخاذ قرارات بعينها الليلة.

«ها أنتم ترون يا أصدقائى أنه ليس من العسير علينا فهم الوضع الراهن. صحيح أن هؤلاء من بيننا الذين يعيشون فى ضياع زراعية بالقرى قد امتزجوا، على مدى قرون، بعالم يختلف تمامًا عن حياة المدن. محور حياتكم هنا هو الأسواق. غير أن ذكرياتنا وآمالنا مرتبطة كلها بالأرض وبمن يفلحونها. وكثيرًا ما توجد أشياء قد تسعدنا نحن أهل القرى ربما لا تثير اهتمام أى منكم بالمرة. إننا ننتج الطعام الذى يغذى قرطبة وإشبيلية وغرناطة، هذا ما يغذى تربة المدن. فالثقافة التى ازدهرت ونمت يمكن للمسيحيين أن يحرقوها ولكنهم لن يضارعوها أبدًا. لقد فتحنا الأبواب، والنور الذى أشرق من مدننا أضاء هذه القارة بكاملها. الآن يريدون أن يسلبونا هذا كله. لم يعد لنا أهمية حتى يسمحوا لنا بامتلاك بضع مقاطعات صغيرة يمكننا الحياة فيها بسلام. هذه هى الحقيقة التى جمعتنا معًا. فالمدن والقرى سوف تلقى المصير نفسه. تجاركم وكل صناعكم، ونساجونا وفلاحونا - كلهم يواجهون الهلاك والاندثار».

تطلع الآخرون نحوه فى دهشة، شعروا بأن زهيرًا قد نضج بحيث لم يعد هو نفسه. انتبه هو للتوقير حديث العهد فى أعينهم. لو أنه تحدث على هذا النحو ولو قبل عامين اثنين، لقهقه أحدهم ضاحكًا، واقترح عليه زيارة سريعة لبيت بغاء يُقدم الغلمان، حيث يمكن لمثل هذا السمو الفكرى أن ينمحى تمامًا بحركات رقص أكثر نشاطًا. ولكن ليس اليوم، فبوسعهم أن يلمسوا أن زهيرًا لا يؤدى دورًا تمثيليًا. يدركون كلهم تمام الإدراك ذلك التغير الذى أحدثه هذا التحول فى داخل كل منهم. ولكن لا سبيل أمامهم لأن يعرفوا، ومع ذلك فإن لقاءه الغريب بعشيرة المعرى هو ما جعل عقله أكثر حدة، وإدراكه أكثر انتباهًا بما يفوق حتى أثر مأساة الأندلس فيه. شعر زهير بأن الوقت قد حان ليميط اللثام عن خطته.

«لقد خضنا غمار العديد من المحادثات، فى قريتنا. وهناك الآن عشرون متطوعًا من الهذيل حاضرون بهذه المدينة. قد يكون العدد قليلاً،

ميعًا متفانون. أول ما يجب القيام به هو تكوين قوة منظمة، من ... أو أربعمائة فارس يتحدون المسيحيين إلى نزال مسلح فى كل ... من الأيام عند باب الرملة. سوف يثير مرأى هذا الصراع عواطف ... وتنشأ عن ذلك ثورة قبل أن يتمكنوا من إرسال تعزيزات إلى ... سوف نخوض الحرب التى أحجم عن خوضها سلطاننا».

أعلن ابن بسيط رفضه للخطة بصراحة ووضوح.

«يا زهير بن عمر، لقد أدهشتنى مرتين هذه الليلة، أولا بذكائك، ... لانيًا بغبائك. أتفق معك فى أن المسيحيين يريدون تدميرنا تمامًا. ولكنك ... يد أن تسهل عليهم هذه المهمة. تريدنا أن نرتدى أفخر ثيابنا ونمارس ... هتهم. الفروسية حكاية من الماضى هذا إن كان لها وجود فى الأصل، ولم ... ن من تلفيق المؤرخين. حتى لو تغلبنا عليهم - ولستُ واثقًا كل الثقة ... حماستنا يمكنها منافسة مهارات الجزارين التى يمتلكونها - فلن يكون ... أى تأثير من أى نوع. أملنا الوحيد هو أن نجهز رجالنا ونأخذهم ... ارج المدينة إلى البوجارا، ومن هناك لابد من أن نرسل سفراء لعقد ... الصلات مع المسلمين فى «بالنسيه» والمدن الأخرى، ونعد لثورة تندلع ... ، اللحظة ذاتها عبر شبه الجزيرة كاملة. تلك هى الإشارة التى ينتظرها ... لطان اسطنبول، وسرعان ما سوف يهب إخوتنا لنجدتنا».

تطلع زهير حوله طلبًا للدعم، ولكن لم يبد هناك دعم وشيك. ثم ... حدث ابن أمين.

«كلاهما، ابن بسيط وصديقى القديم زهير يعيشان فى عالم الأحلام. قد تكون رؤية ابن بسيط أكثر واقعية، ولكنها مع ذلك بعيدة ... كل البعد عن واقعنا. لدىَّ اقتراح بسيط للغاية. فلنقطع رأس الحية. سيحل محله آخرون، ولكنهم سوف يكونون أكثر حرصًا. لا أقترح أمرًا معقدًا بل سهل التنفيذ. أقترح أن نتربص لخيمنيث دى سيسنيروس، وأن نقتله ونعرض رأسه على أسوار المدينة. أعرف أن حوله جنودا يحرسونه،

ولكن عددهم ليس كبيرا، وسوف يكون عنصر المفاجأة فى جانبنا.

قال زهير بنبرة بالغة الكآبة: «فكرة تافهة».

قال ابن بسيط: «ولكنها تروق لى، فلها ميزة عظيمة، وهى ا نستطيع تنفيذها فعليًا بأنفسنا. أرى أن نضع خطتنا بحرص ودقة خلا الأيام القليلة المقبلة، ونلتقى مجددًا للاتفاق على التوثيق والأسلوب».

أنعش اقتراح ابن أمين الأمسية، وتحدث كل من الموجودين بحماس وشغف. تأمل زهير المستقبل وحذرهم من تكرار مأساة «الهامة» فى الحي القديم فى غرناطة. يمكنهم أن يودعوا فكرة أى انتصار، وداعًا لأى حلم بالعثور على بعض الدعم بين صفوف الدومينكان. إذا قُتل سيسنيروس فسوف يعتبر شهيدًا، وسوف تعلنه روما قديسًا، وسوف تنتقم إيزابيلا لموت كاهنها بحمام دم أين منه مجزرة «الهامة»! على الرغم من القوة الفكرية لحججه، وجد زهير نفسه معزولاً تمامًا. حتى أصحابه من الهذيل انبهروا بالبساطة الصاعقة لخطة اغتيال سيسنيروس، وعلى هذا الأساس المزعزع من الحماسة قَبِلَ زهير بالتسليم لهم. لم يكن يريد أن يكون جزءًا من جريمة قتل مخالفة لكل مبادئ الفروسية والمروءة، ولكنه لن يعوق تقدم مخططاتهم.

قال له ابن بسيط: «كم أنت شديد الحساسية والاعتزاز بنفسك. الأيام الخوالى وَلَّتْ دون عودة. لقد اعتدت أن تُغسل قمصانك بماء الورد، وأن تجفف بقطرات الخزامى. دعنى أقول لك: إن كل شىء سوف يُغسل بالدم ما لم نضرب رؤوس تلك الحيوانات التى يبتلى الله بها إرادتنا».

بعد أن انصرفوا، اغتسل زهير وآوى إلى فراشه، ولكن النوم راوغه. وافترسته مجددًا الشكوك والهواجس. ربما كان عليه أن يركب جواده إلى خارج المدينة، ثم يربط مصيره بمصير أولئك المعريين. ربما ليس عليه إلا أن يعود للمنزل ويحذر أباه من النكبة التى تهددهم جميعًا. أم تراه، وقد هزت كيانه كله هذه الفكرة، سيكون عليه أن يفر إلى قرطبة، ويطلب من عمه الكبير ميجيل أن يقوم بتعميده؟

الفصل العاشر

«لا يمكننى أن أتقبل أى شرف أو نبل غير ذلك الذى تمنحه الموهبة لصاحبها. الجهل هو أسوأ شرور هذا العالم. أما الشيوخ الذين يبدو أنك تكن لهم احترامًا كبيرًا فيقولون: إن جهل المرأة هو جواز مرورها للفردوس. إننى أفضل أن يُلقَى بى فى نار جهنم على أن أنعم بالجهل».

كانت هند فى قلب مجادلة ملتهبة مع من سيكون حبيبها، وقد بدأت تغيظها فجأة نبرته العاطفية الهازئة. كان ابن داوود يتلذذ بإغاظتها. كان قد بدأ الحديثَ بتكلفِ مَظْهَرِ طالبٍ تقليدىٍّ مِنْ طلاب العلم فى الأزهر، وراح يدافع عن الرؤية الدينية السائدة، وخصوصًا فيما يتعلق بالآراء حول واجبات المرأة المسلمة.

ما كان يسعى إلى أن يسمعه حقًا هو رفض هند المتحمس للفردوس مع الجهل. تضرج وجهها بدماء الحماسة الهذيلية، وهى تحدجه بعينين غاضبتين. كانت تصبح رائعة الجمال حين تغضب. شعر ابن داوود بقوتها للمرة الأولى. تناول يدها وأمطرها بالقبلات. هذا التعبير العفوى عن العاطفة أسعد هندًا وأثارها، ولكنهما لم يكونا وحدهما فى بستان الرمان.

تسببت جرأة ابن داوود فى انفجار سعال انبعث من وراء شجيرات قريبة، حيث كانت ثلاث جوارٍ شابات. كانت هند تعرفهن خير معرفة.

«لتذهبن فى تمشية جميعكن. أتعتقدن أننى أنخدع بكل هذا الهراء؟ إننى أعرف تمامًا ما يحدث، لكن عندما تقع أعينكن أول مرة على النخلة الطالعة بين ساقى عاشقكن، حيث تتصرفن عندها مثل سرب جائع من العصافير النقارة. والآن اذهبن وتمشين بضع دقائق ولا تعدن حتى

تسمعونى أناديكن. هل هذا واضح؟».

أجابتها أميمة: «نعم يا سيدتى هند، ولكن السيدة زبيدة...».

«هل أخبرتِ سيدتك زبيدة أن أخى يمتطيك مثل الكلب؟».

حسم هذا الرد الوقح من هند الموقف تمامًا، ولم يكن هناك رد على هذا التساؤل غير انفجارات متفرقة من الضحك صدرت عن رفيقة أميمة. ابتعدت الجوارى عن الأنظار، خشية إثارة أية حماقات أخرى على مرأى من الضيف. حتى تلك اللحظة كان دورهن هو أن يحرسن عفة هند وعذريتها، وأن يحمين شرفها. أما الآن فقد استرددن الدور الأقرب إلى مزاجهن، وأصبحن مرة أخرى متواطئات مع سيدتهن الصغيرة، يراقبن الجو ويحرصن على ألا يفاجئ أحدٌ العاشقين.

فى غفلة منهن، كان يزيد كامنًا فى مكان قريب. بعد وصول ابن داوود إلى المنزل بمدة قصيرة، شعر يزيد بأن أخته انصرفت عنه، كما أنه استشعر السبب، وعليه بدأ يزجر الوافد الجديد بقسوة لا يستطيع حشدها إلا طفل. كان يكره الغريب القاهرى كراهية غير عقلانية، ولكن عميقة.

فى البداية كان يزيد مسحورا أمام قصص ابن داوود عن العالم القديم، وكان متلهفًا على المعرفة، لا يطيق صبرًا للتعرف على الحياة فى القاهرة ودمشق؛ متشوقًا وفضوليًا للاطلاع على الاختلافات فى نطق وفَهْم كلمات عربية بعينها كما ينطقونها ويفهمونها فى الأندلس، وفى مسقط رأس النبى.

استطاع ابن داوود بدوره أن يحفز تعطش الصبى للمعرفة، فقد دفعه لأن يُعمل عقله ليتوصل إلى تفسير بعض الحقائق التى كان يعتبرها حتى ذلك الحين من البديهيات. بالرغم من ذلك بدأ يزيد يلاحظ أن هندًا يتغير لونها وتشيح بعينيها كلما كان ابن داوود حاضرًا، وتتصرف باحتشام زائد. وما أن أدرك يزيد أن مسئولية تغير أخته تقع على عاتق ابن داوود حتى بدأ يتجنب دروسه، ولا يبذل جهدا لإخفاء ضيقه منه،

كما لو كان ضجرًا باستمرار.

توقف عن طرح الأسئلة على ابن داوود. وحين كان المعلم الشاب يوجه إليه سؤالاً كان يلزم الصمت، أو يكتفى بإجابات مقتضبة. توقف عن لعب الشطرنج معه، وكانت تلك تضحية هائلة منه، بما أن ابن داوود كان مستجدًا فى اللعبة، ولم يكن بمقدوره التغلب على تلميذه ولو مرة واحدة، وبلغت الأمور الحد الذى قطع عنده يزيد كل تواصل شخصى معه نهائيًا.

وعندما طلبت منه هند أن يفسر مسلكه هذا، تنهد يزيد بنفاد صبره، وقال بأبرد نبرة صوت يتقنها: إنه لا يرى أن سلوكه تجاه معلمهم الخاص قد اعتراه أى شذوذ أو غرابة. ضايق ذلك أخته وزاد من درجة التوتر الذى نشأ بينهما. أما هند، التى كانت فى الأحوال العادية شديدة الحساسية فيما يتعلق بأمور يزيد، فقد عصب حبها لابن داوود عينيها تمامًا، وهكذا كان أخوها هو الأكثر معاناة. كانت زبيدة تلاحظ البؤس الذى اكتسى به وجه أصغر أبنائها، وفهمت السبب بكل وضوح، وعزمت أن تتم مسألة زواج هند فى أسرع وقت ممكن، وقررت أن ترجئ أى حديث حول الأمر مع يزيد حتى ذلك الوقت.

دون أن يدرك كلٌ من هند وابن داوود بأنهما مراقبان، كانا قد وصلا لمرحلة يتوجب فيها اتخاذ قرارات محددة شديدة الحرج، وأن يتصرفا على أساسها. جالت يداه تحت سترتها ومستا نهديها، لكنه سحبهما على الفور.

غمغم قائلاً بصوت تخيلته مختنقًا بالرغبة: «بدران طالعان على عود بان».

لم تبق هند سلبية بلا استجابة، فقد وجدت يداها سبيلا تحت خصره لاستكشاف المناطق السفلية المغطاة بسرواله الحريرى الواسع. مسته من تحت الحرير، وبدأت تمسد فخذيه. «ناعمان مثل كثبان الرمل، ولكن أين النخلة؟» هكذا همست بينما أصابعها تمس البلحتين مسًا رقيقًا،

وتحس بجريان النسغ فى العروق.
لو تماديا أكثر من ذلك، فلا شك أنهما سوف يؤديا طقو..
ليلة الدخلة قبل أوانها. حدثت هند نفسها قائلة: إننا لو توقفنا الآ
سيجعل الإحباط حياتى غير محتملة، ناهيك عن مرارة الانتظار الطويل
حتى نشفى غليلنا فى نهاية الأمر. كانت تريد أن تمارس الحب مع ها ا
الرجل بكل كيانها. لقد شبعت من الاستمتاع بالنيابة عن الآخرين،
أمام حكايات وأوصاف لا تنتهى، تزودها بها الجوارى وبنات أعمامها
المرحات فى غرناطة وإشبيلية. ولكنها كانت تريد الآن أن تتذوق بنفسها
الشىء الحقيقى.
حين أدرك ابن داوود ذلك كان هو الذى نظم تراجعًا سريعًا،
سحب يديه بعيدًا عن جسدها وأبعد يديها برفق من داخل سرواله.
سألته بصوت مبحوح: «لماذا؟».
أجابها بصوت مذعن خال من أى عاطفة: «إننى ضيف على
والدك، سوف أطلب غدًا لقاءه منفردًا، وأطلب منه الإذن فى اتخاذك
زوجا لى، أى فعل آخر غير هذا سيكون مشينًا».
شعرت هند بشغفها يغيض فى داخلها.
«لقد شعرتُ بأنى على شفا شىء ما، شىء أكثر من مجرد المتعة.
شىء نقى نقاءً يصعب تعريفه، والآن أشعر بأننى على أعتاب اليأس
والقنوط. لعلنى أسأت الحكم عليك».
تبع ذلك وابلٌ من الطمأنة والتأكيدات، وتصريحات متكررة عن
حبه الخالد، والاحترام الكبير الذى يكنه لذكائها، وأنه لم يسبق له أن
التقى امرأة مثلها، ولم يتوقف وهو يتكلم عن تقبيل كل إصبع من أصابع
قدميها، ويهمهم بتحبب خاص بكل واحد منها.
لم تنطق. كان صمتها أكثر تعبيرًا، والحقيقة أنه وإن كان فقدها
لوهلة قصيرة فقد عاد واستردها سريعًا، ومع ذلك فقد حدثتها نفسها

بأن إساءة فهمها له لم تكن عارية تمامًا عن الصحة، كما أوحت لها بذلك لمساته وإيماءاته.

لم يسبق لابن داوود أن عاشر امرأة قبل ذلك. كان قراره بقطع حبل الحب يرجع جزئيًا إلى وضعه بين أهل المنزل. كان مندهشًا إزاء قدرة هند على إشعاله، ولكن السبب الذى جعله يتراجع لم يكن سوى الخوف من المجهول.

حتى هذه اللحظة لم يكن فى حياة ابن داوود سوى تجربة هوى عاصف واحدة، وكان ذلك مع طالب زميل له فى القاهرة. كان منصور ابن عائلة ثرية وعريقة الأصل من تجار المجوهرات فى المدينة الساحلية الإسكندرية. كان صاحب تجربة فى السفر على نطاق واسع، إلى مدن مثيرة للغاية، بما فى ذلك رحلة بحرية إلى ميناء كوشن جنوبى الهند، وكانت حكاياته تجعل ابن داوود مسحورًا على الدوام. إضافة لما كانا يشتركان فيه من حب الشعر الجيد وعزف الناى، وأن كليهما كان يتحلى بملامح جذابة وعقل متعطش، حتى بدت الصداقة التى نشأت بينهما وكأنها أمر محتوم. عاش الرجلان ثلاثة أعوام على صلة حميمة لا يفترقان. تقاسما غرفة فى الرواق المطل على الجامع الأزهر.

سرعان ما أصبحت علاقة ثلاثية الجوانب؛ لأنها كانت تغذى عقليهما وعواطفهما الدينية فى الوقت نفسه، حيث أصبحا مريدين لشيخ صوفى واحد، وأخيرا، شهواتهما الجنسية. نظم كلاهما فى صاحبه شعرًا مقفى وموزونًا، وقد سُبكت أشعارهما بلغة لا تستتر فيها أى متعة عن عين أى قارئ. خلال شهور الصيف، عندما كانا يفترقان لضرورة قضاء الوقت بصحبة أسرتيهما، كانا يدونان يوميات، يسجلان فيها كل جزئية من حياتهما اليومية بما فى ذلك عواقب الحرمان والجوع الجنسى.

توفى منصور فى حادث تحطم سفينة، خلال مرافقة أبيه فى مهمة تجارية إلى اسطنبول. فلم يتحمل من بقى من الاثنين حيًا، فكرة العيش

فى القاهرة بعد ذلك. كان ذلك ما جاء به إلى غرناطة، أكثر من أ...
بداخله، لدراسة أعمال ابن خلدون. كان منجذبًا فكريًا إلى الر...
ولكن بعد عدة مناقشات معه شعر بأنه على الرغم من أن الثعلب الم...
الماكر مفعم بالعبقرية وواسع المعرفة، فإنه لا يتورع عن التلاعب
نوع من الخدع والأحابيل للتفوق على غريمه. وفى نهاية حوار معه ...
مرة حول شعر ابن حزم تذكر ابن داوود حديثًا مماثلاً كان قد جرى ...
منصور. غلبته الذكرى، كما غلبته عاطفة صادقة. لم يكن قد أخبر الزنـ...
بطبيعة الحال بكل شىء، غير أن الشيخ لم يكن مغفلاً، فقد خمن. ...
ذلك يثير قلق ابن داوود، فالزنديق كان صديقًا للأسرة. ماذا لو أنه أفضى
بشكوكه لوالد هند؟

وكما لو أن هندًا خمنت ما يدور فى عقله، فقد ربتت على يده وسأ...
ببراءة: «ماذا كان اسم المرأة التى أحببتها فى القاهرة؟» أريد أن أعرف ...
شىء عنك».

جفل ابن داوود للسؤال، وقبل أن يتمكن من الجواب سمـ...
صرخات وصيحات ضاحكة، إذ انقضت الجوارى على يزيد المتجـ...
ذعرًا، وجررنه جرًا إلى الخميلة بين أشجار الرمان.

قالت أميمة مبتسمة بلا حياء: «سيدتى هند، انظرى من وجدنا!»

صاح يزيد: «دعونى أذهب!» وانهمرت الدموع على وجهه.

لم تستطع هند أن تتحمل مرأى أخيها مستاءً إلى هذا الحد. جرت
نحو يزيد وضمته إليها، غير أنه احتفظ بذراعيه متصلبتين إلى جانبه.
مسحت هند دموعه بيديها وقبلت وجنتيه.

«لماذا كنت تتلصص علىَّ؟».

كان يزيد يريد أن يعانقها ويقبلها، وأن يخبرها بكل مخاوفه وهواجسه.
لقد سمع أن العمة الكبيرة زهرة قد فرت من المنزل ولم تعد إليه بعد ذلك،
لم يكن يريد أن تفعل أخته هند الأمر نفسه. لو أنهما كانا بمفرديهما لأفضى لها

بالملك كله، ولكن الابتسامة المرتسمة على وجه ابن داوود منعته. استدار وركض نحو المنزل، تاركًا خلفه أخته فى ارتباك وحيرة.

ببطء، بدأت هند تدرك أن مسلك يزيد الغريب لا تفسير له إلا بربطه بحالتها هى نفسها. سحرتها هاتان العينان الأعمق خضرة من موج البحر، بحيث أصبح كل ما سواهما على الهامش، حتى عذوبة نغم العود. كان ما أزعج شقيقها هو لا مبالاتها به. فشعرت بالذنب. ونشوة العناق لا سبيل لنسيانها.

ذكرتها رؤية يزيد مكروبًا بغيظها من ابن داوود.

قالت لنفسها: «الحق أن مسلكه الشريف ليس سوى إعراض عن إدراك جمال رغبتنا».

ضايقها ذلك بشدة فقررت أن تلقن ابن داوود بضع دروس أساسية، هى التى كادت أن تحرقه بلهبها. سيدرك عما قريب أن بوسعها أن تكون أكثر برودة من الجليد، ما زالت ترغبه، ولكن بشروطها، والآن كان كل ما يهمها هو رأب الصدع بينها وبين يزيد.

كان يزيد نفسه يرقد دافنًا رأسه فى حجر أمه، حيث اندفع يفضى لزبيدة بما لديه: «ذلك الرجل كان يعبث بصدر هند». كان يزيد يتصور أن أمه سوف تصاب بالهلع، وأنها سوف تهرع إلى مسرح الجريمة، وتأمر الخدم الرجال بالمنزل بجلد ابن داوود، وأن ذلك المدعى المغرور القادم من القاهرة سوف يرحل من حيث أتى مسربلاً بالعار، وأنه وهو فى طريقه للقرية ليجد وسيلة تحمله إلى غرناطة، قد تهاجمه الكلاب المسعورة. ولكن زبيدة ابتسمت وقالت: «لقد كبرت أختك وأصبحت امرأة ناضجة يا ابن عمر، قريبًا ستتزوج وتنجب أولادا ستكون أنت خالا لهم».

هتف يزيد دون تصديق: «تتزوج منه؟».

أومأت زبيدة وربتت على شعر الصبى البنى الخفيف.

«ولكنه، لا يملك شيئًا. إنه...».

«إنه طالب علم يا يزيد، وما يملكه يوجد فى عقله، وكان أبى يقول دائمًا: إن وزن عقل الرجل أهم بكثير من وزن كيس نقوده».

قال يزيد مقطبًا: «ولكن يا أمى»، وكانت عيناه مثل سيفين مشهرين، وذكرها صوته كثيرًا بصوت زوجها فى أشد حالاته رسمية، بحيث جاهدت للاحتفاظ بوجه حاد. «أنسيتِ أن شجر المر لا يطرح العنب؟».

«صحيح يا أخى»، قالتها هند، وقد دخلت الغرفة دون أن يلاحظها أحد فسمعت ملاحظة أخيها الأخيرة، «ولكنك تعرف مثلى أيضًا أن كل وردة تحيط بها الأشواك».

أخفى يزيد رأسه وراء ظهر أمه، ولكن هندًا جرته بعيدًا، وهى تضحك وقد استردت طبيعتها القديمة مرة أخرى، ثم طبعت عشرات القبلات على رأسه ورقبته وكتفيه ووجنتيه.

«سوف أظل أحبك دائمًا يا يزيد أكثر من أى رجل قد أتزوجه، إن من عليه أن يقلق هو زوج المستقبل، وليس أنت».

شرع يزيد يقول: «ولكن خلال الشهر الأخير...».

«أعلم، أعلم وأنا آسفة للغاية بصدق، لم أنتبه إلى أننا لم نعد نقضى وقتًا معًا، ولكن هذا كله قد انتهى الآن، لنعد صديقين من جديد».

التفت ذراعا يزيد حول عنقها، ورفعته هند عن الأرض. كانت عيناه تلمعان حين أنزلته من جديد.

أمرته هند: «اذهب واسأل القزم عما يعده للعشاء الليلة، لابد من أن أختلى بأمنا قليلاً».

وإذ انطلق يزيد خارجًا من الغرفة، ابتسمت الأم وابنتها لبعضهما بعضًا.

كانت زبيدة تفكر: «كم تشبهنى ابنتى! أنا أيضًا لم يسعد قلبى بالحب إلى أن سمحوا لى بالزواج من أبيها، فى حالتى كان سبب التأخير هو أم عمر، التى لم تكن متأكدة من نقاء الدم الذى يجرى فى عروقى.

ب ألا تتعرض هند لمثل تلك المتاعب لمجرد أن الفتى يتيم».
بدا وكأن هندًا قد تكهنت بما يدور فى عقل أمها. «لا يمكننى أن
ا نلر طويلاً كما انتظرت أنت، بينما يتناقشون حول ما يشوب دمك من
.. و ائب. هناك أمر آخر يثير قلقى، أصدقينى القول، ما رأيك فيه؟».
«فتى مليح للغاية، وصاحب عقل راجح، إنه أكثر من يناسبك
يا صغيرتى. فيمن قد ترغبين أكثر من هذا؟ ولماذا الريبة؟».

لطالما حظيت هند بعلاقة مميزة وخاصة بأمها. كانت الصداقة التى نشأت بينهما متوافقة تمامًا مع الجو المطمئن المتحرر الذى يسود المنزل. لا تستطيع هند أن تتخيل كيف كان يمكن لحياتهم أن تكون، لو أن أباها كان قد تزوج مرة ثانية، أو اتخذ خليلة فى منزل من منازلهم بالقرية. لقد زارت بنات أعمامها فى قرطبة وإشبيلية بما فيه الكفاية؛ لتعرف كيف يرزح أهل المنزل تحت وطأة جو خانق على الدوام. كانت روايات بنات أعمامها حول تعدد النساء والاختلاط والفسوق العشوائى تذكرها بأجواء بيوت البغاء؛ وملأت حكاياتهن عن الشجار الوحشى بين النساء خيالها بصور أقرب إلى ما يجرى فى مستشفى مجانين. لا يمكن أن يكون التناقض أكثر حدة مع حياتهم فى الهذيل.

كانت هند تزداد قربا من أمها كلما كبرت. لم تكن نشأة زبيدة محافظة أو متزمتة، والفضل فى ذلك يرجع لأبيها صاحب التفكير المتحرر؛ لذلك عزمت على ألا تجعل صُغرَى ابنتيها تتقيد بأية خرافات، أو تذعن لدور مرسوم بصرامة وسط أهل المنزل. كانت كلثوم منذ طفولتها، أسيرة للأصول والتقاليد باختيارها، أما هند فكانت محطمة للتقاليد بفطرتها، حتى إن والدها لاحظ ذلك عليها منذ أن كانت ابنة عامين فقط، وعلى الرغم من إنذارات "آمه" الكثيرة وتحذيراتها المتكررة، كانت زبيدة تشجع هذا الجانب لدى ابنتها.

لذلك كله لم يخالط عقل هند أى شك حول الإجابة التى سترد

بها على سؤال أمها. لم تتردد على الإطلاق، ولكن بدأت تصف كل ما جرى خلال لقاء ما بعد الظهر، حريصة على ألا تغفل أية جزئية. كانت أمها تستمع إليها بانتباه بالغ، وعندما فرغت ضحكت ببساطة، إلا أن الضحكة كانت تخفى قلقًا حقيقيًا بداخلها، ولو كان زوجها عمر حاضرًا للاحظ على الفور ذلك القلق المستتر فى ضحكة زوجته.

لم تكن زبيدة تريد أن تثير ذعر ابنتها، آثرت سبيل التهدئة والتلطيف على غير طبيعتها.

«أنت قلقة لأنه لم يرغب فى صب عصير نخلته ببستانك، هل أنا على صواب؟».

أومأت هند بأَسَى أن نعم.

«حمقاء! لقد سلك ابن داوود المسلك الصحيح، فهو ضيفنا على كل حال، والتغرير بصبية من أهل المنزل أمام أعين الخادمات ليس الطريقة المحترمة لرد جميل والدك وكرم ضيافته».

غمغمت هند، قائلة: «أعرف ذلك! أعرف ذلك! ولكن كان هناك أمر أكثر من هذا ليس بوسعى أن أصفه لكِ. حتى عندما كانت يداه تمسان جسدى كنت أشعر بأنه خالٍ من الرغبة. لم تكن به لهفة حتى لمسته أنا، حتى عندئذ أخذه الخوف، ليس من أبى ولكن منى أنا. إنه لم يعاشر امرأة من قبل، وهذا واضح وضوح الشمس. ما لا أستطيع أن أفهمه هو لماذا لم يفعل. أعنى عندما تحديتِ أنت وأبى والديه وذهبتما إلى...».

«أبوك لم يكن ابن داوود! بل كان فارسًا من بنى هذيل، وعندما ذهبنا إلى قرطبة كنا قد عقدنا قراننا قبل ساعات، اذهبى واسترخى فى المغطس ودعينى أحاول حل هذا اللغز».

كانت الشمس تميل للغروب حين خرجت هند للباحة. وقفت هناك ساكنة، وقد خدرتها الألوان التى حولها. قمم الجبال المغطاة بالجليد تشرف على قرية الهذيل التى تستحم بدرجات متفاوتة من الأرجوانى

الفاتح والبرتقالى؛ كانت البيوت الصغيرة للقرية تبدو وكأنها قد طليت للتو. كانت هند مستغرقة تمامًا فى كل ذلك الجمال المحيط بها، وغاب عن وعيها كل ما عداه. قبل دقائق معدودة كانت تشعر بالبرودة والكآبة، وهى الآن مسرورة فجأة لأنها بمفردها.

حدثت نفسها قائلة: «بالأمس فقط، لو كنت قد وجدت نفسى هكذا أمام مشهد الغروب لاشتاقت إليه نفسى، ولأردته أن يكون هنا إلى جوارى نتقاسم معًا الاستمتاع بمفاتن الطبيعة، ولكن اليوم يسرنى أن أكون بمفردى».

استغرقتها تلك الأفكار فى سيرها الوئيد نحو الحمام، فلم تسمع أصوات الطرب والمرح المنبعثة من المطبخ.

كان يزيد جالسًا على مقعد منخفض، بينما كان القزم ينقر على الدف ويغنى إحدى قصائد الزجل. كان الخدم يشربون مزيجًا قوى التأثير، قاموا بتقطيره من بقايا البراميل القريبة من كروم الهذيل. كان القزم ثملاً إلى حد ما؛ وكان مساعدوه الثلاثة، وكذلك الاثنان السفرجية التى تتمثل مسؤوليتهما الأساسية فى نقل الطعام من الأوانى إلى الأطباق ووضعها على المائدة، قد استهلكوا قدرًا كبيرًا من بول الشيطان ذاك. كانوا يرقصون فى شكل دائرة، بينما القزم جالس فى وسط منضدة يغنى أغنيته. كانت "آمه" تجلس على الدرج المؤدى للمطبخ، وعلى وجهها نظرة استهجان قاسية. حاولت أن تجذب انتباه يزيد بعيدًا عن لهوهم، وأن تستدرجه من جديد إلى المنزل، ولكنه كان مستمتعا إلى أقصى حد فرفض الإذعان لها.

توقف القزم عن العزف والغناء بعد أن أصابه التعب، ولكن المعجبين من حوله أصروا على استكمال العرض.

هتفوا به: «أغنية واحدة أخيرة، أغنية ابن قزمان. غنها من أجل سيدك الصغير».

وجد يزيد نفسه ينضم للهاتفين، فيصيح: «نعم! أرجوك أ
القزم! أغنية أخرى فقط».

اتخذ القزم سمتا جادًا للغاية.

«سأغنى لكم الأغنية العاطفية الشعبية التى وضع ابن قزمان كلماتها قبل أكثر من ثلاثمائة عام، ولكن لابد من أن أنبهكم إلى أنكم يجب أن تنصتوا لها بالاحترام الجدير بمعلم عظيم مثله. لن تشهد الأندلس منشدًا جوالاً مثله مرة أخرى، وإذا حدثت أية مقاطعة فسوف أصب النبيذ على الحاكم، وأوقد فيها النار. هل كلامى واضح، أيتها الفقاقيع المتبجحة؟».

ساد السكون فى المطبخ، بعد أن كان قبل ثوانٍ معدودة يشبه حفلة سُكْر وعربدة، ولم يعد يُسمع إلا صوت بقبقة وعاء ضخم يحتوى طبخة العشاء. أومأ القزم نحو مساعديه. تناول صبى المطبخ ذى الثانية عشر عامًا آلة العود وأخذ يضبط الأوتار، ثم أومأ نحو سيده، وشرع الطاهى ضئيل الحجم يغنى زجل ابن قزمان بصوت عميق لا سبيل لمقاومته.

«هلم املأ هذا القدح العزيز
بمياه البحر الذهبى واعطه لى!
وَليَدُر الشراب المعتق من ضيف إلى آخر،
تتلألأ الفقاقيع على حافة الكأس كأنها لآلئ على الصدر،
يبدو الليل وقد طرح عنه ظلامه.
انظر بحق الله لهذه الثمالة وهى تبتسم فى مئة كأس.
إنها معصورة من عناقيد نجوم.

مُرر المُدام على أنغام الموسيقى المنسابة،
هنا على هذا البساط المنقوش بالزهور من حولنا،

حيث ترطب الأرض قطرات الندى الرقيقة
فتغسل أطرافى بلذة كبيرة
بشذاها المعطر البارد.

وحدى فى البستان الأخضر، ومعى
فتاة مطربة تفتن الأنظار:
من ابتسامتها يطلع فجر مضىء،
نزعتُ عنى برقع الحياء،
فلا رقيب أو غريب معنا،
وهتفت: بالله عليك، دعينا نبهج قلوبنا!».

هتف الكل فى طرب، وكان صوت يزيد هو الأعلى بين الجميع. صاح بصوت يملؤه الحماس: أيها القزم، عليك أن تهجر المطبخ وتصبح مغنيًا جوالاً. صوتك جميل».

احتضن القزم الصبى وقبل رأسه.

«فات الأوان على ذلك يا يزيد بن عمر. فات الأوان على الغناء فى الطرقات، كما فات أوان كل شىء آخر. أعتقد أنه من الأفضل لك الآن أن تعود بالمعلومات التى أرسلتك السيدة زبيدة لتعود بها من المطبخ».

كان يزيد قد نسى كل شىء بخصوص طلب أمه.

«وماذا كانت أيها القزم؟».

«لقد نسيت بالفعل مكونات يخنة الغروب التى ابتكرتها؟».

قطب يزيد وجهه، وحك رأسه، ولكنه لم يستطع أن يتذكر ولو مكونًا واحدًا من مكونات اليخنة. خلبت لبه أغنية الخمر فنسى سبب مجيئه للمطبخ. بدأ القزم يذكره، ولكنه هذه المرة كان حريصًا على احتفاظ ذاكرة الصبى بالمعلومات، وهكذا راح يتلو الوصفة بإيقاع وكلام منظوم. راح القزم ينشد بصوته الطنان.

«استمعوا إلىَّ وأنصتوا جميعا يا آكلى طعامى هذا. الليلة أعدد،
يخنتى المفضلة التى لا يمكن تناولها إلا بعد غروب الشمس، وفيها
ستجدون خمسة وعشرين ثمرة كبيرة من البطاطس، مقطعة إلى مربعات
صغيرة. وعشرين لفتة مغسولة ومقطعة شرائح، وأربعة قلقاسات تم
تقشيرها حتى أضاءت وأشرقت، وعشرة من صدور الضأن أضفت
المزيد من الإشراق. وأربع دجاجات بكارى، مصفاة من دمها، وملء
ماعون صغير من الزبادى والأعشاب والتوابل، مما يعطى لون التربة
الغنية. نضيف للمزيج كوبًا صغيرًا من دبس السكر، ويكون قد تم بحمد
الله. ولكن هناك أمرًا آخر لابد من أن تتذكره يا سيدى الصغير! لابد من
أن يتم قلى الخضروات واللحم منفصلين، كلٌ على حدة، ثم نضعهما معًا
فى وعاء مملوء بالماء الذى سلقت فيه الخضروات. نترك ذلك كله على نار
هادئة، بينما نغنى أغنيات تبهج النفوس. عندما نفرغ من الطرب والمرح
تكون يخنتنا قد تمت. يكون الأرز جاهزًا، وكذلك يكون الفجل، والجزر،
والفلفل الأحمر، والطماطم، والبصل، والخيار كلها قد غسلت، وتنتظر
بنفاد صبر الانضمام لليخنة على صحون عشائكم الفضية. هل يمكنك
أن تتذكر هذا كله يا يزيد بن عمر؟».

«نعم!» هكذا صاح يزيد وهو ينطلق خارجًا من المطبخ، يحاول
جاهدًا أن يحفظ الكلمات وإيقاعها الموسيقى.

كان القزم يراقب الصبى وهو يركض عبر الحديقة نحوالمنزل،
و"آمه" تتبعه، وعلى وجهه ابتسامة حزينة.

تساءل دون أن يوجه حديثه لأحد: «ما المستقبل الذى ينتظر آخر
أحفاد ابن فريد هذا؟».

ركض يزيد مباشرة إلى غرفة والدته وكرر عليها كلمات القزم كلمة
كلمة. ابتسم أبوه قائلاً له: «لو أنك تحفظ القرآن بمثل هذه السهولة،
لأسعدت أهل القرية كلهم. اذهب واغتسل قبل أن نتناول يخنة الغروب».

التمعت عينا زبيدة إذ انطلق الصبى خارجًا من الغرفة.

«إنه مسرور من جديد».

راح عمر بن عبد الله وزوجته يناقشان مصير ابنتهما الصغيرة، قدمت زبيدة لزوجها نسخة منقحة ومخففة من الأحداث التى جرت بين أشجار الرمان؛ ولكى تتجنب غضبته، استبعدت أية إشارة إلى النخيل والتمر، وسائر أنواع الثمار الأخرى. أُعجب عمر بما سمعه من تعفف ابن داوود، وتماسكه، وإحساسه بالمروءة، وقرر لهذه الحقيقة وحدها أن يوافق على تزويج الشاب من هند. عند هذه النقطة من الحديث أفضت إليه زبيدة بمخاوفها.

«ألم يدر بخلدك من قبل أن ابن داوود قد لا يكون شغوفًا إلا بالرجال».

«ولماذا؟ ألأنه فقط رفض دعوة ابنتك ليسلبها عذريتها؟».

لم تكن زبيدة تريد أن تصرح بأكثر مما يجب، فقررت ألا تواصل فى هذا الاتجاه. قالت: «كلا! مجرد إحساس اعترانى. عندما تتحدث إليه بعد أن نفرغ من العشاء الليلة، سوف تستريح خواطرى إن سألته فى ذلك؟».

جأر عمر متسائلاً: «ماذا؟ بدلاً من أن أتحدث إليه عن مشاعره نحو ابنتنا هند، أرتدى عباءة قضاة محكمة التفتيش وأستجوبه كما لو كان واحدا من الرهبان الفاحشين الذين يسيئون استخدام منصبهم فى مقاصير الاعتراف.

ربما يتوجب على أيضًا أن أخضعه للتعذيب ليعترف؟ كلا وألف كلا! هذا ليس تصرفًا فاضلاً بالنسبة لى».

عاجلته زبيدة بالرد وعيناها تبرقان بالغضب: «عمر، لن أسمح بزواج ابنتى من رجل لن يسعدها».

«ماذا لو كان أبوك قد طرح على هذا السؤال قبل أن يوافق على زواجنا؟».

«ولكن لم تكن هناك حاجة لذلك؟ أم تراه كان عليه أن يهما زوجى؟ لم تساورنى أية شكوك بشأنك فى هذا المضمار»؟ كانت زبيدة ا/ تلعب دور اللعوب، ولم يكن ذلك مناسبا لها بالمرة فأخذ زوجها يضمها:

«ما دمت مصرة يا امرأة فسوف أجد طريقة لسؤال الشاب دو أن أسىء له».

«لا سبب لديه يجعله يشعر بالإساءة، فالأمر الذى نتحدث بشأ، ليس بالنادر الحدوث».

كان الشاب الذى يدور حوله الحديث بغرفته، يبدل ثيابه من أجل تناول العشاء. كان قد استولى عليه شعور غريب، يصعب التعبير عنه بكلمات، غمره بكساء من الحزن. كان يعرف أنه قد أحب هندًا. كان يستعيد أحداث ذلك الأصيل، وحلت محل الخوف بداخله إثارة جديدة تمامًا عليه.

كان يسائل نفسه وهو يرتدى سترته: «ألا يمكن لأى شىء أن يخرجها من رأسى؟ لا أرغب فى التفكير، ومع ذلك لا يمكننى التفكير فى شىء سواها. كيف يمكن لصورها تلك أن تزحف إلى داخل عقلى رغم إرادتى؟ إننى مغفل! لابد من أن أخبرها بأن الحب الوحيد الذى عشته كان لرجل. لماذا لم أفعل ذلك؟ لأننى أرغبها بشدة. لا أريدها أن تلفظنى. أريدها زوجة لى. إنها أول شخص أحبه منذ وفاة منصور. لقد تقرب إلىَّ رجالٌ آخرون، ولكننى صددت تمهيداتهم. هند هى التى نجحت فى إثارتى من جديد، هند هى التى جعلت جسدى يرتجف، ولكن ترى ما الذى قرأته على صفحة وجهى؟».

فى طريقه لتناول الطعام، التقى ابن داوود ويزيد.

«السلام عليك يا ابن داوود».

«وعليك يا يزيد بن عمر».

«هل أخبرك بما أعده القزم لعشائنا؟».

عندما أومأ ابن داوود له، تلا عليه يزيد قائمة المكونات كلمة

الماء فى نسخة مطابقة لكلام القزم، مما بهر معلمه الجديد بشدة، وكان له لذاته الاستماع إلى الأصل. ذهبا معًا إلى غرفة الطعام.

سُر ابن داوود لاستعادته علاقة الصداقة بتلميذه، وأحس فى ذلك فأل خير. كان الجميع مفرطون فى الاحتفاء به أثناء تناول الطعام. نجحت يخنة الغروب التى أعدها القزم نجاحًا منقطع النظير، وأصرت هند على أن تقدم لابن داوود حصة ثانية منها.

كان ميجيل قد عاد إلى قرطبة، وزهرة ووريت التراب. وزهير فى غرناطة، وكلثوم تزور بنات عمها، وعائلة خطيبها فى إشبيلية. كان عدد أفراد الأسرة الجالسين بغرفة الطعام قليلا على غير العادة، مما جعل الحلقة التى انضم لها ابن داوود أكثر حميمية من المألوف. لاحظته زبيدة وهو يحدق فى عينى هند مبتسمًا، وقد طمأنها هذا. لعل قلقها لا أساس له، ولعل أحاسيس عمر أصدق من أحاسيسها. بدأ يساورها الشعور بالذنب، وأرادت أن تطلب من زوجها ألا يطرح على الفتى أية أسئلة قد تثير الحرج، ولكن أوان ذلك كان قد فات. كان عمر قد بدأ الحديث بالفعل.

قال رب البيت للضيف: «يا ابن داوود، هل يروق لك أن نتمشى قليلا معًا بعد أن تتناول قهوتك؟».

«يشرفنى هذا يا سيدى».

سأل يزيد بنبرة عملية، جاهدًا أن يبدو ناضجًا قدر استطاعته: «أيمكننى الانضمام لكما؟». بما أن زهيرًا لم يكن موجودا، كان يزيد يشعر بأن عليه حضور مناسبة مهمة كهذه.

ابتسمت هند، قائلة: «لا، أريد أن ألعب معك مباراة شطرنج، أعتقد أننى سأستولى على ملكك بأقل من عشر حركات».

احتار يزيد، ولكن أخته كان لها الغلبة.

قال لأبيه: «بعد التفكير بالأمر، أظن أننى سأبقى بالمنزل، وأعتقد أن الجو بالخارج سيكون شديد البرودة».

قال عمر: «عين العقل»! ثم نهض وسار نحو الباب المؤدى للشر».

انحنى ابن داوود لزبيدة، ورنا نحو هند وكأنه يتوسل إليها ألا تقسو فى حكمها عليه، وتبع عمر إلى خارج الغرفة.

أمرت هند أخاها: «اذهب إلى غرفتى، ورتب القطع على الرقعة. وسوف ألحق بك بعد دقيقة».

قالت زبيدة ما أن غادر ابنها الغرفة: «أظن أننا أسأنا الظن بابن داوود، هل لاحظته أثناء العشاء؟ لم يرفع عينيه عنك. قد يكون مرتبكًا، لكنه متعلق بك للغاية».

«قد يكون ما تقولينه صحيحًا، ولكن قد تبخر بداخلى ما كنت أشعر به نحوه من شغف هائل. ما زلت أميل إليه، وربما أحبه مع الوقت، ولكن ليس بالقوة التى أحسستها قبل ذلك.سَبَّبَ لى لقاء الأصيل ذلك صداعًا ثقيلاً».

«حتى أعظم الأطباء ليس بمقدورهم علاج ألغاز القلب يا هند. امنحى نفسك فرصة. أنت ابنة أمك، تشبهيننى كثيرًا، نافدة الصبر على الدوام، تريدين كل شىء فى التو والحال، كنت هكذا مع أبيك، وقد أخطأ والداه الحكم على رغبتى البسيطة واعتبروها جشعًا».

قالت هند بصوت رقيق للغاية: «بالطبع يا أماه، فنحن لا ندرى كم من الوقت قد تَبَقَّى لأى منا. عندما كنتم صغارًا كان السلطان بقصر الحمراء، وكان العالم يبدو آمنًا مطمئنًا. أما اليوم فإن حياتنا أصبحت فى قبضة الشكوك والمخاوف. كل من بالقرية يشعر بالقلق وعدم الأمان، حتى السحر الزائف للأحلام لم يعد يقدم أى سلوى أو عزاء. أتتذكرين كيف كان يزيد يبكى متشبثًا بزهير، متوسلاً إليه ألا يذهب إلى غرناطة؟».

«أيمكن لأى أم أن تنسى ذلك المشهد؟».

«لكم أصابتنى رؤية يزيد عند ذلك بغضب وكرب، فهمست لزهير بكلام وقح فى أذنه، كلام غبى. قلتُ له: إنه أنانى منذ يوم مولده.

هاض لون وجهه، وضع يزيد أرضًا وانتحى بى جانبًا، ثم همس بقسوة فى أذنى قائلاً: «لا خير يرتجى من الانخراط فى الحياة اليومية على وتيرتها المعهودة. لم يتركوا لنا إلا حرية اختيار طريقة موتنا، وأنت تريدين أن تسلبينى حتى هذا الحق».

احتضنت زبيدة هندًا وضمتها إليها بشدة: لم يتحدثا أكثر من ذلك. فى الصمت كانتا تسمعان صوت الريح بالخارج. تبادل جسداهما الإشارات. «هندا هندا» أعادهما صوت يزيد مرة أخرى للعالم الذى تواصلتا العيش فيه. «كنت أنتظرك. هيا، بسرعة! لقد خططت لكل نقلة».

ابتسمت المرأتان. هناك أشياء لن تتغير أبدًا.

بالخارج، فى ظلمة الليل الفاحمة، كان عمر وابن داوود يسيران بمحاذاة أسوار المنزل. هما أيضًا كانا يناقشان حال دنياهما، وإن بعبارات أكثر فلسفة. الآن، وبعد أن ابتعدا عن أسماع الرجال القائمين بالحراسة حول المنزل، رأى عمر أنه ينبغى ألا يهدرا المزيد من الوقت.

«سمعت أنك خرجت للتمشية مع هند بعد الغداء اليوم، إنها كنز لا يقدر بثمن، أنا وأمها أغدقنا عليها من الحب بلا حساب، لا نود أن نراها تتألم أو تتعذب».

«لقد سُررت للغاية عندما طلبت منى أن أخرج للتمشية معك. إننى أحب هند، وأرجو أن تسمح لنا بالزواج».

تحدث عمر بقدر ما فى وسعه بنبرة العم الطيب: «ولكن تذكر شيئًا يا ابن داوود، كما يقولون: الأعمى فقط هو من يتبرز على سطح الدار، وهو يظن أن عينًا لا تقع عليه!».

بدأ ابن داوود يرتجف، لم يكن يدرى مقدار ما يعرفه عمر. ربما أخبر يزيد والده بما رأى، ربما تحدثت الخادمات. ربما...

«ما أعنيه يا صديقى العزيز، هو ألا عذر للمرء حين يقع فى الحفرة نفسها مرتين».

الآن فهم المقصد.

قال ابن داوود ورجفة تخالط صوته: «ليس هناك شىء أحر.. على إخفائه عن هند، أو عنك أو عن السيدة زبيدة. كانت هناك مسا.. جرت قبل بضعة أعوام. إنه طالب علم زميل لى، أحب كلٌّ واحدٍ .. الآخر، وقد مات قبل أكثر من عام. منذ ذلك الحين لم أعاشر شخد.. آخر، لا رجلاً ولا امرأة. حبى لهند أشد مما كان عليه حبى لصاحبى ذاك، وأفضل الموت على أن أسبب لها الأذى على أى نحو. إذا رأيت أنت والسيدة زبيدة، بما لكما من حكمة وتجربة، أننى شخص غيرمناسب لها، فأرجو أن تخبرانى بذلك، وسوف أحزم أمتعتى وأغادر منزلكم الكريم صباح الغد، ولن يراجع أحد قراركما».

هدأت الريح وتركت السماء صافية. بددت نزاهة ابن داوود كآبة الليل، وارتاح قلب عمر. كانت شكوك زبيدة، قد شغلته وإن لم يعترف لها بذلك. كان هناك الكثير والكثير من الحكايات العائلية عن نساء عشن حياة تعسة فى ظل رجال لم يكترثوا إلا لبنى جنسهم من الرجال، وحكايات عن نساء يقتتن على الأحلام الذابلة، يقتصر دورهن الوحيد على الإنجاب، بقدر ما يهتم رجالهن بذلك. كان الشقيق الأصغر لابن فريد، جد عمر، يعرض عشيقه متباهيًا به فى هذا المنزل ذاته، ولكنه على الأقل لم يتجشم عناء الزواج بامرأة.

«إننى معجب للغاية بصراحتك، وما ستخبر به خطيبتك أمر يخصكما وحدكما».

«إذن فقد وافقت» هكذا شرع ابن داوود يتحدث، لكنه سرعان ما قوطع.

«لديكما أكثر من موافقتى، لديكما مباركتى، وسوف يكون لهند منى عطية طيبة».

«أؤكد لك أن المال لا يهمنى بالمرة».

«ألديك ثروة تخصك؟».

«لا شيء بالمرة. لم يكن للمال أي دور مهم في حياتي».

ضحك عمر وهما يسيران عائدين للمنزل. شعر بأن الحسنة الوحيدة التي قد تكون لرقة الحال، هو ما يشرف به بعض الناس من نبل لا تضارعه أي ثروة.

«لا عليك يا ابن داوود، سوف تحصلان على العطية بالرغم من ذلك. سوف يشكرني أحفادي لبعد نظري. قل لي: هل قررتما أين تعيشان؟ هل ستعود إلى القاهرة؟».

«كلا! إنه المكان الوحيد الذي لا أرغب بالعيش فيه. بطبيعة الحال سوف أناقش الأمر مع السيدة هند، ولكن فاس هي المدينة المغربية الوحيدة التي تروق لي أكثر من سواها. إنها لا تختلف عن غرناطة، عدا أنها لا يوجد بها سيسنيروس رئيس الأساقفة. علاوة على أن جدي ابن خلدون، إذا صدقنا جدتي في هذا، قد زكاها كثيرًا وتمنى لو اتخذها مستقرا ومقاما».

في حين كان عمر يتقد بالغيظ قبل أسابيع قليلة حين يرى هندًا تتفرس في هذا القاهري، بدأ الآن يكن شيئًا من الإعجاب نحو هذا الشاب. لم يعد يراه مضجرًا، أو شديد الذكاء فيما يتعلق بمصلحته، بل بدأ يثق في قدرته على النجاح ماديًا اعتمادًا على عقله فقط. حينما بلغا الباحة الداخلية للدار كان عمر يشعر أن الشاب أحد قلائل يمكنهم إسعاد هند، فاحتضن ابن داوود.

«السلام عليك يا ابن داوود، نم هنيئًا».

«وعليك السلام»، رد طالب العلم القاهري تحيته، وقد اختنق صوته بعواطف كان يجاهد لإخفائها.

حين دخل عمر غرفة زوجته وجد عندها هندًا تدلك ساقيها وقدميها. نهضت زبيدة جالسة حين دخل زوجها الغرفة.

«ما لديك؟».

كان جواب عمر هو أن سأل هندًا: «من فاز بمباراة الشطرنج هند؟» متعمدًا استفزاز زوجته.

ألحت زبيدة: «عمر؟ ماذا حدث؟».

بدا عمر مسترخيًا وهادئًا قدر إمكانه، وحدق فيها مبتسمًا. أجاب «كما ظننت، الفتى يحب ابنتنا حبًا صادقًا، وليس لدىَّ أدنى شك فى ذلك لقد أعطيته موافقتى، والأمر الآن يتوقف على هند».

سألت زبيدة فى إصرار: «ومخاوفى؟ أكانت بلا أساس بالمرة؟».

هز عمر منكبيه، وقال: «كانت لا محل لها».

ابتسمت زبيدة فى رضا: «إنه اختيارك يا بنيتى، اختيارك أنت وحدك. إننا سعيدان».

تورد وجه هند وهى تستمع لهذا الحديث، وأخذت خفقات قلبها تتسارع. قالت بنبرة عملية تقريرية تماما: «سوف أتدبر الأمر الليلة بكل حرص، وغدا سيكون عندكما ردى».

قبلت بعد ذلك أبويها تباعًا. وهى ترسم على وجهها أشد التعبيرات جدية ووقارًا، وسارت ببطء خارجة من الغرفة.

ما أن أصبحت بمأمن فى غرفتها حتى أخذت تضحك، فى صمت فى البداية، ثم بصوت مسموع. عكس الضحك فوزها وبهجتها، وكان به أيضًا لمسة هيستريا: «ليتك لم تموتى بعد يا عمتى الكبيرة زهرة»، كانت هند تتطلع فى مرآتها وتتفحص وجهها، وقد حدد نور المصباح ملامحه الناعمة بطبيعتها: «إننى بحاجة للتحدث إليك. أظن أننى سوف أتزوجه، ولكن لابد من أن أقتنع أولاً أنه يحبنى حبًا صادقًا، وليس سوى سبيل وحيد للتأكيد من ذلك. لقد أخبرتنى ذلك بنفسك».

بعد أن اقتنعت بصحة ما تنوى القيام به، أطفأت هند مصباح غرفتها وخرجت للباحة متسللة على أطراف أصابع قدميها. كانت الظلمة

دامسة، كانت السحب قد تجمعت من جديد وأخفت النجوم. انتظرت حتى اعتادت عيناها الظلام، وسارت متوترة نحو غرف الضيوف.

وقفت أمام غرفة ابن داوود قليلاً حتى تتوقف ارتعاشة جسدها. تطلعت حولها بانتباه، كان السكون يغطى كل شىء، وكان ضوء غرفته ما زال مشتعلاً. طرقت برقة على الباب، وبداخل الغرفة ارتبك ابن داوود. لف جسمه بملاءة ونهض من الفراش، وفتح رتاج الباب.

«هند!» كانت دهشة كبيرة بحيث لم يستطع أن يسمع صوته وهو يتحدث: «تفضلى بالدخول».

سارت هند إلى داخل الغرفة، وهى تحاول جاهدة ألا تضحك من منظر هذا الشاب المهذب، وهو يبذل جهده لإبقاء الملاءة ثابتة حول جسمه. جلست على الفراش.

«أخبرنى أبى أنه سمح لك بالزواج منى».

«فقط بعد موافقتك، هل هذا كل ما أخبرك به أبوك؟».

«نعم. ما الذى قلته له غير ذلك؟».

«أمر كان ينبغى أن أخبرك به منذ أيام عديدة، كنت أحمق يا هند، وأظن أننى خشيت أن أفقدك إذا صرحت به».

«عم تتحدث؟».

روى ابن داوود الحكاية بكاملها عن حبه للشاب المتوفى، منصور، بما فى ذلك التفاصيل التى كان من المرجح أن تؤلمها. شرح لها كيف أنهما كانا يسكنان غرفة واحدة مجاورة للأزهر، وكيف كانا يجدان فى رفقة أحدهما الآخر إثارة وحماسة لا يجدانها فى أى شىء آخر، وكيف تحولت صلتهما الفكرية ذات ليلة إلى وصال جسدى. تحدث عن اكتشافهما لبعضهما بعضًا ثم عن موت منصور.

«ولكنك كنت قادرة على إعادتى للحياة من جديد».

«وأنا سعيدة بذلك. إنك أدركت على الأرجح أننى من النوع

الذى يفضل قلبًا مطعونًا بالألم على السعادة المطمئنة، التى غالبًا ما تقوم على خداع النفس والغش. لا يغذى أغلب الزيجات سوى الخواء البارد. كثيرات من بنات أعمامى تزوجن من رجال أجلاف، الزواج لمجرد الزواج أمر لا يمكننى تقبله. أيمكننى أن أسألك عن أمر ما؟».

قال ابن داوود بصوت متلهف استعاد حياته: «كما يحلو لكِ».

«يمكننا أن نصبح صديقين رائعين، نكتب الأشعار، نخرج للصيد، نناقش الفلك، ولكن هل أنت على ثقة من أنك بعد أن تغرب الشمس ستكون راغبا فى جسد امرأة بين ذراعيك؟».

«لقد ظللت فى شوق إليك منذ الأصيل. كنت مرتبكًا وغير متأكد، غير أن مس يديك لجسدى كان تجربة يسرنى أن أكررها بعد طلوع الشمس، وطوال الليل بالتأكيد».

وهو يمس وجهها مسًا رقيقًا شعرت بالإثارة من جديد فعانقته، وأحست بجسده العارى تحت الملاءة القطنية الرقيقة، وحين شعرت بنخلته تنهض نزعت عنه الملاءة وضمته إليها بقوة، ثم تراجعت وخلعت ثوبها.

سألها، غير قادر على ممارسة المزيد من ضبط النفس: «هل أنت واثقة يا هند؟ هل أنت واثقة؟».

أومأت له. فغرس نخلته فى بستانها غرسًا هينًا لطيفًا. تألمت، وما هى إلا ثوانٍ حتى تحول الألم إلى وجع ممتع، وعندئذ استرخت والتحمت به بحيث صار جسداهما كتلة واحدة، وبلغا معًا ذروة واحدة. كل خادماتها وقريباتها كن قد أخبرنها بأن المرة الأولى هى الأقل لذة. استلقت على ظهرها وأخذت تستمتع بالبقايا المترسبة فى نفسها مثل شعاع شمس غاربة.

نهض جالسًا بالفراش وهو يحدجها بنظرة مازحة، وسألها: «والآن هل تأكدت؟».

«نعم تأكدت يا حبيبى، فهل تأكدت أنت؟».

«ماذا تقصدين أيتها الشيطانة؟».

«أقصد أكان الأمر ممتعًا كما كان مع منصور؟».

«كان مختلفًا تمامًا معك يا أميرتى، وسوف يبقى هكذا. يمكن لثمرة الرمان أن تمنح من المتعة قدر ما تمنحه المحارة، ومع ذلك فإن مذاق كليهما يختلف عن مذاق الأخرى كل الاختلاف، والمقارنة بينهما تظلم الاثنين».

«دعنى أحذرك يا ابن داوود، حتى قبل أن نصبح زوجين، إذا ما هجرتنى من أجل غلام مليح يبيع التين، سيكون انتقامى قاسيًا وعلنيًا».

«ماذا ستفعلين؟».

ولتجيبه قبضت على نخلته.

جعلهما ذلك يستغرقان فى الضحك. ارتفع لسان اللهب مرة أخرى. مارسا الحب مرة ومرات تلك الليلة. أخذه النوم قبلها، جلست طويلا تتأمل جسده الغافى، وتستعيد مذاق ما اختبرته للتو. مسدت شعره، آملة أن يوقظه ذلك، ولكنه لم يتحرك. كانت تريد أن تذوق عسيلته مرة أخرى، ولكنها سئمت الانتظار أطول من ذلك. فغلب النوم الرغبة فى نهاية الأمر.

قبيل شروق الشمس، دخلت زبيدة إلى الغرفة وهى تعرف ما كان بانتظارها. وضعت يدها على فم ابنتها لتمنع أية صرخة ذعر قد تصيب عاشقها بالحرج، ثم هزتها بشدة حتى فتحت الصبية عينيها. ما أن رأت زبيدة حتى نهضت منتصبة القامة تمامًا فى الفراش، أشارت لها زبيدة لكى تغادرا الغرفة فى صمت تام.

همست هند وهى ناعسة حين كانتا تعبران الباحة الداخلية: «أحبه، وسوف أتزوجه».

أجابتها الأم: «أخبار يسرنى سماعها، ولكننى أعتقد أنه يجب تزويجك به هذا المساء».

***

الفصل الحادى عشر

خيمنيث جالس إلى مكتبه، مستغرق فى أفكاره.

«لعل لون جلدى أدكن من اللازم، ولون عينى ليس أزرق. بنى غامق. أنفى طويل ومعقوف، ومع ذلك فإننى واثق، نعم واثق تمام الثقة من أن دمائى لاتشوبها أية شائبة. كان أسلافى هنا حين قدم الرومان وعائلتى أكثر عراقة وقدمًا من قبائل القوط الغربيين، أسلاف الكونت النبيل قائدنا المقدام. فلماذا يتهامسون بأن فى دمائى لطخة يهودية؟ أهى مزحة قاسية؟ أم أن بعض الدومينيكان الساخطين يبثون تلك السموم لتشويه سمعتى داخل الكنيسة حتى يكون بوسعهم أن يهيموا من جديد فى أرض الخداع، ويشوشون الفوارق بيننا وبين أتباع موسى ونبى المسلمين الزائف؟ أيًا كانت حجتهم فهى غير صحيحة. أتسمعوننى؟ غير صحيحة. إن دمائى نقية! النقاء نفسه الذى سنجعل عليه هذه المملكة ذات يوم. لابد من أن أمتنع عن البكاء والشكوى بسبب تلك الإهانات التى لا تنتهى، وأن أواصل تنفيذ مشيئة الرب. يدعوننى الذئاب بالوحش، ولكنهم لا يجرؤون على مهاجمتى، ذلك أنهم يعرفون الثمن الذى سيدفعونه مقابل دمى. التعبد للعذراء، والآلام التى انتابت المخلص على صليبه. توقظت بداخلى عواطف غامضة، وكثيرًا ما أرى نفسى فى أحلامى مصلوبًا أسفل أسوار القدس أو ألمح مشهدًا لمدينة القسطنطينية. ذاكرتى مغمورة بالزمن المسيحى، ولكن لماذا أجدنى وحدى على الدوام، حتى فى الأحلام؟ لا أسرة، لا أصدقاء، الشفقة لا تجوز على الأجناس الأدنى. ليس بداخلى دماء يهودية، ولا حتى قطرة

واحدة منها. كلا! ولا يساورنى فى هذا أدنى شك.

قبل ساعات قليلة، كان أحد الجواسيس قد أبلغ خيمنيث أنه في نهاية مأدبة الليلة السابقة، وبعد شرب الكثير من النبيذ، وبعد أن تناول الجمع المحتفل من نبلاء المسلمين والمسيحيين، جنبًا إلى جنب التجار اليهود، وشاهدوا الراقصات، قال أحد رجال الحاشية: من المؤسف للغاية ألا يكون رئيس الأساقفة الطليطلى حاضرًا؛ ليتمتع بهذه الرفقة السعيدة، وعندئذ أشار القائد العام دون إنيجو بأن سبب غياب الأسقف قد يكون لاستحالة التفرقة بينه وبين يهودى آخر فى ضوء الشموع. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل قال وسط نوبة من الضحك الجماعى: إنه ربما لهذا السبب يتجنب نيافته اليهود أكثر من تجنبه الموريسكيين، ففى حين لا يمكن التمييز بين ملامح الموريسكيين وملامح المسيحيين، فإن اليهود كانوا أكثر حرصًا على الحفاظ على سماتهم الخاصة، كما تكشف عن ذلك بوضوح أى نظرة مدققة إلى خيمنيث.

عند هذه النقطة، راح أحد النبلاء الموريسكيين يداعب لحيته الحمراء الكثيفة، ويسأل دون إنيجو بغمزة من عينين زرقاوين براقتين، ما إذا كان إصرار خيمنيث على هلاك كل الموحدين بالله يعود إلى نقاء عرقه، أكثر مما يعود لرغبته فى حماية الثالوث المقدس. رسم دون إنيجو على وجهه قناع جدية زائفة، وصاح وهو يغمز ضيوفه بأن هذا الظن غير معقول.

صرف خيمنيث الجاسوس بتلويحة غاضبة من يده، فى إيحاء بأنه لا يكترث بتلك المزق التافهة من النميمة الخبيثة، غير أنه كان فى حقيقة الأمر يتقد بالسخط والغضب. كان تعرضه للعن والسب على ألسنة الموريسكيين أمرًا لا يخفى على أحد. لا يكاد يمر يوم واحد دون أن تصله تقارير تفصل كيف تمت الإساءة له، وعلى لسان أيهم، وفى أى شارع من شوارع المدينة. القائمة تطول، ولكنه سوف يتعامل مع كل شخص أساء له عندما يحين الوقت المناسب. بتلك الأفكار التى تعتمل داخل رأسه

وتفرز الصفراء فى جسده، لم يكن من المدهش أن مزاج رئيس الأساقفة فى هذا اليوم، على الخصوص،لم يكن سمحًا أو رائقًا.

فى هذه اللحظة نفسها كانت طرقة على الباب.

فقال بصوته الضعيف المضلل: «ادخل!».

دخل باريونيڤو، المُحضر الملكى، إلى الغرفة وقَبَّلَ خاتمه. «بعد إذن نيافتكم، لقد فرّ المرتدان إلى الحى القديم ولاذا بمنزل أمهما».

«لا تبدو لى هذه القضية مألوفة. ذكرنى بها».

تنحنح باريونيڤو. لم يكن معتادًا على إلقاء الخطب وتقديم الشروح، كان يؤمر فيطيع. لم يجد الكلمات المناسبة، ولم يكن يعرف التفاصيل الخاصة بهذين الرجلين. «كل ما أعرفه، جلالتكم، هو اسماهما. ابن جارسيا وابن فرناندو. قيل لى: إنهما كانا قد تحولا إلى ديننا...».

أتاه الرد البارد: «تذكرتهما الآن، لقد تظاهرا بالتحول، ولكنهما بقيا بداخلهما مسلمين. لقد شوهدا يقترفان تدنيس المحرمات بكنيستنا. لقد تبولا على الصليب أيها الرجل! أحضرهما إلىَّ، أريد أن يخضعا للتحقيق اليوم. تستطيع أن تذهب».

«هل أصطحب معى حارسًا، جلالتكم؟ فقد تكون هناك مقاومة بدون ذلك».

«فلتفعل، ولكن احرص على ألا يزيد العدد عن ستة رجال مسلحين بصحبتك وإلا أثرت الاضطراب».

نهض خيمنيث عن مكتبه، وسار نحو النافذة المقوسة المطلة على الشوارع من تحته. ابتسم للمرة الأولى ذلك اليوم، واثقًا من أن مرأى المحضر والحرس سوف يستفز بعض أصحاب الحمية من الموريسكيين، ويدفعهم لإشهار أسلحتهم. ستكون نهايتهم. وبدلاً من أن يقوم كما هو معتاد للإشراف على تشييد الكاتدرائية الجديدة، قرر البقاء فى الحمراء منتظرًا عودة باريونيڤو. هدأ فى داخله الاضطراب الناجم عن التقرير

الذى بلغه حول مأدبة ليلة أمس، وحل محل الانزعاج شعور بالإثارة الملتهبة. خر خيمنيث راكعًا أمام صليب عملاق كان يشوه الزخارف الهندسية المعقدة على الآجر ذى الألوان الثلاثة على الجدران.

«يا مريم المباركة، يا أم الإله، أتضرع ألا يتغلب عليَّ أعداؤنا اليوم».

عندما نهض واقفًا شعر بأن النار المتقدة فى رأسه قد سرت إلى ما تحت خصره مباشرة. كان هذا الجزء من بنيانه الجسدى يعلن العصيان، ذلك الجزء محرم الاستخدام على كل من أخذوا على أنفسهم العهود المقدسة. صب خيمنيث بعض الماء فى قدح وتجرعه دفعة واحدة دون توقف، وهكذا روى عطشه.

من قلب المدينة القديمة، سار زهير ورفاقه نحو موقع بناء الكاتدرائية الجديدة، مبالغين فى سيرهم بطريقة غير ملفتة. كانوا يسيرون متفرقين، اثنين اثنين، فى توتر وقلق، يتصرفون كما لو كانوا لا تربطهم صلة ببعضهم بعضًا، وإنما يوحدهم الاعتقاد بأنهم على وشك تحقيق نصر مزدوج. سرعان ما سوف يُقتل عدوهم البغيض، معذب رفاقهم المؤمنين، وهم قتلته، سوف يكونون بلا شك شهداء وتفتح أمامهم أبواب الجنة.

كانوا قد اجتمعوا على إفطار مبكر ليضعوا اللمسات الأخيرة على خططهم. ثم نهض كل من الشباب الثمانية فى مهابة ووقار، وقَدَّمَ كلٌ منهم على التوالى تحية وداع رسمية، قائلاً للآخرين: «إلى اللقاء مرة أخرى فى الجنة».

فى وقت مبكر من ذلك الصباح، بدأ زهير يكتب رسالة إلى أبيه عمر، راويا له مغامراته فى الطريق إلى غرناطة، واصفًا الورطة المؤلمة التى واجهها وشارحًا قراره النهائى بالمشاركة فيما اتفق عليه كل الآخرين عداه.

سوف ننصب فخًا لسيسنيروس، ولكن حتى ولو أفلحنا فى قتله، أعلم تمام العلم أننا سنكون قد وقعنا نحن أنفسنا فى الفخ نفسه، كلنا بلا استثناء. كل شىء مختلف تماما عما تخيلته. ازدادت أحوال الغرناطيين

، ا على سوء منذ زيارتك الأخيرة لها. فالامتهان انضاف إلى الخذلان ، الانحطاط. إنهم مصممون على دفعنا للتحول، ويلجأ سيسنيروس لأساليب التعذيب لدفع هذا المسعى قدمًا. هناك بالطبع الكثيرون ممن ضعون تحت وطأة الألم، ولكن هذا يقودهم للجنون، فيصابون باليأس .ه. نحوهم، ويدخلون الكنائس، ويتغوطون عند المذبح، ويبولون فى جرن المعمودية، ويلطخون الصلبان بالقاذروات ويندفعون للخارج ، هم يضحكون ضحك من أصابه مسٌّ من الجنون. ويرد سيسنيروس على ذلك بضراوة، وتتكرر الدائرة نفسها من جديد. الشعور السائد هنا هو أنه طالما بقى سيسنيروس حيًا، فلن تتغير الأحوال إلا من سيء إلى أسوأ. لا أعتقد أن موته سوف يصلح الأحوال، ولكنه سوف يخفف، بلا أدنى شك، من الآلام العقلية التى يقاسيها عدد كثير للغاية من الناس.

قد لا أنجو من هذا اليوم، قبلاتى لكم جميعًا واحدًا واحدا، وعلى الخصوص يزيد، الذى يجب ألا يُسمح له بتكرار أخطاء أخيه...

كان زهير وابن بسيط على وشك أن يعبرا الطريق عندما رأيا باريونيڤو المحضر، ومعه ستة جنود متجهين نحوهم. لم يتملك الذعر منهما لحسن الحظ، ولكن باريونيڤو توقف أمام زهير، انحرفت الجماعات الثلاث الأخرى عن مقصدهم واتجهوا يسارًا، وسرعان ما اختفوا فى منطقة مكتظة بالشوارع الضيقة كما اتفقوا سابقًا فيما بينهم.

سأله باريونيڤو: «لماذا تحمل سيفًا؟».

أجاب زهير: «اغفر لى يا سيدى، فلستُ من أهل غرناطة. لقد أتيت من قرية الهذيل؛ لأقيم مع صديق لأيام قليلة، هل حمل السيوف فى الطرقات محظور الآن؟».

أجاب المحضر: «نعم، محظور، وكان على صديقك أن يخبرك. سر فى طريقك، ولكن عد أولاً إلى منزل صديقك وتخلص من السيف».

تنفس زهير وابن بسيط الصعداء. لم يجدا أمامهما بديلا عن

الالتفاف والعودة إلى الفندق. كان الآخرون بانتظارهما، وانبعث صيحات فرح عند رؤية زهير وابن بسيط يدخلان الغرفة.

قال ابن أمين، وهو يعانقهما: «حسبت أننا فقدناكم للأبد».

رأى زهير الارتياح يغمر وجوههم، وأدرك فى الحال أن ما أذهب عنهم التوتر، لم يكن رؤيته هو وابن بسيط يعودان سالمين فحسب. كان هناك شىء آخر أكثر وضوحا فى علامات الرضا على وجه ابن أمين. تطلع زهير نحو صديقه ورفع حاجبيه مرتقبًا. تحدث ابن أمين:

«لابد أن نلغى خطتنا. بعث إلينا صديق من القصر برسالة. لقد قام خيمنيث بمضاعفة عدد حراسته ثلاثة أضعاف، وصرف النظر عن نيته فى زيارة المدينة اليوم. شعرت بأن ثمة أمرًا غريبًا فى الجو. هل لاحظت أن الشوارع خالية من الناس فعليًا؟».

لم يستطع زهير أن يخفى سروره.

صاح: «حمدًا لله! شاء القدر أن يمنع تضحيتنا. ولكنك على حق يا ابن أمين، فالجو متوتر. ولكن ما السبب؟ وهل لذلك صلة بمهمة المحضر الملكىّ؟».

بينما واصلوا تخميناتهم، وبدأوا يتناقشون ما إذا كان عليهم المخاطرة بالعودة إلى الشوارع واستقصاء الأوضاع، دخل عليهم الغرفة خادم مسن من خدم الفندق.

«أرجوكم يا سادة، أرجوكم أن تسرعوا إلى شارع السقائين، وأنصحكم بأن تأخذوا أسلحتكم معكم».

تناول زهير سيفه من جديد، وخبأ الآخرون خناجرهم، وهم مسرعون خارجين من فندق الجديدة. لم يكن عليهم البحث طويلاً للعثور على المكان، ما كان يبدو طنينا منخفضا راح يتعالى كلما اقتربوا منه، وكأن كل أهل الحى قد انصبوا صبًا فى الشوارع.

من المنازل والورش ذات الأبواب المقوسة على شكل حدوة

الحصان، كان الناس يتوافدون بأعداد متزايدة إلى الشوارع. استدعاهم جميعا الطرق على الأوعية النحاسية، الصياح المتعالى وأصوات عدد كبير من الدفوف. اختلط السقاؤون وتجار السجاد بباعة الفاكهة والفقهاء. كان حشدا مختلف الألوان والمشارب، لا يجمعه إلا الغضب. كان ذلك ما لاحظه بوضوح المتآمرون الآتون من الفندق، ولكن ما سبب ذلك كله؟ ماذا حدث ليحرض هذه الجموع التى كانت، حتى أَمس، تبدو مستسلمة تمامًا؟

كان أحد معارف ابن أمين، وهو صديق يهودى، قد جاء هائمًا من مشهد المعركة، وحكى لهم متحمسًا كل ما حدث حتى لحظة اضطراره للذهاب لكى يعتنى بأبيه المريض.

«ذهب المُحضر الملكى وعسكره إلى منزل الأرملة فى شارع السقائين، كان ابناها قد احتميا بالمنزل خلال الليالى الثلاث الماضية. قال المُحضر إن رئيس الأساقفة يريد رؤيتهما اليوم. استشاطت الأرملة غضبًا عند وصول العسكر دارها، ورفضت أن تسمح لهم بالدخول، وعندما هددوها بكسر الباب ألقت عليهم وعاء ممتلئا بالماء المغلى من الشرفة.

«أصيب أحد الجنود بحروق بالغة، فأطلق صرخات رهيبة».

اختنق صوت الراوى لهذه الذكرى، وأخذ يرتجف.

قال زهير وهو يربت على رأسه: «اهدأ يا صديقى، لا داعى للقلق. أخبرنى ما حدث بعد ذلك؟».

عاد صديق ابن أمين يتحدث: «ساءت الأمور، ساءت كثيرًا. كان المحضر، إزاء هذا التحدى موزعا بين الخوف والحنق. أمر رجاله باقتحام المنزل وإلقاء القبض على الولدين. كانت الفوضى قد بدأت تجذب آخرين وسرعان ما تجمع أكثر من مئتى شاب، سدوا الشارع من طرفيه. راحوا يتحركون ببطء نحو المُحضر ورجاله. تملك الذعر أحد العسكر فبلل سرواله وأخذ يتوسل طلبًا للرحمة، فسمحوا له بالذهاب. أشهر العسكر

الآخرون سيوفهم، وهو ما كان إشارة حاسمة. طوقهم الناس وضـ
عليهم الخناق بحيث كان العسكر منسحقين إلى الجدار. عندئذ تقدم ا
وهب، تاجر الزيت، وتناول سيفًا من على الأرض، أحد السيوف ال
أسقطها العسكر. توجه مباشرة نحو المُحضر وجره جرًا نحو منتصـ
الشارع، وصاح مناديًا على الأرملة التى كانت تشاهد كل شىء ،
النافذة: «أماه!» فأجابته وقد كست وجهها البهجة: «نعم يا بُنى». قال
«أخبرينى، كيف تجب معاقبة هذا الحقير؟» وضعت العجوز أصبعًا عا
رقبتها. حلّ الصمت على الجمع. ارتمى المُحضر، واسمه باريونيڤو، أرضـ
يتوسل الرحمة. كان مثل حيوان وقع فى المصيدة. لمست رأسه قدم ابن
وهب. عند تلك اللحظة بالضبط هبط السيف المرفوع، وما هى إلا ضربة
واحدة، حتى كان رأس باريونيڤو المقطوع يتدحرج على أرض الشارع
ما زال يتدفق فى شارع السقائين جدول دماء».

سأل زهير: «والعسكر؟ ماذا فعلوا بالعسكر؟».

«ما زال مصيرهم محل جدال فى الميدان. اقتاد العسكَر مئاتْ الرجال المسلحين إلى باب الرملة».

قال زهير لرفاقه، مستشعرا بداخله نوعًا من الإحساس بالأهمية: «هيا بنا، لابد من أن نشارك فى ذلك الجدال، فقد تتوقف على نتيجته حياة كل مسلم يعيش فى غرناطة».

كان الزحام شديدًا، حتى استحال المرور بأى شارع من شوارع تلك المتاهة من الطرقات، فإما أن يتحرك المرء مع الحشد أو لا يتحرك بالمرة. بالرغم من ذلك كان الناس ما زالوا يتوافدون. أتى العاملون من حى الدباغين، وسيقانهم ما زالت عارية وجلودهم تلطخها الصبغات مختلفة الألوان. وترك صانعو الدفوف ورشهم فى حى الدفوف وانضموا للحشد. كانوا يضيفون للجلبة باستخراج كل صوت ممكن من آلاتهم. وأتى صانعو الخزف من حى الفخارين مسلحين بأجولة من القدور

الفخارية المعيوبة أو المكسورة، وسار إلى جانبهم، صانعو الطوب، وهم مسلحون جيدًا كذلك، وقد أتوا من حيهم.

رأى زهير فجأة مشهدًا هزه وأثاره. رأى عشرات النساء، شابات ومُسنات، محجبات وسافرات، يرفعن عاليا رايات فرسان عرب الأندلس الحريرية ذات اللونين الأخضر والفضى. الرايات نفسها التى عكفن على حياكتها وتطريزها قبل نحو خمسمائة عام، هن وأمهاتهن وجداتهن، فى موقعهن المعروف بحى البنود. كانت النساء توزع على الأطفال من حولهن مئات من الأهلة الصغيرة الفضية، وكان الصغار من الأولاد والبنات يتسابقون فيما بينهم للحصول على أحدها. فكر زهير فى أخيه يزيد، وكم كان سيطيب له ذلك كله وكم سيكون فخورا بالحصول على هلاله. كان زهير يعتقد أنه لن يرى يزيد مرة أخرى، لكن الآن وبعد أن انهارت خطته المقترحة بتحدى الفرسان المسيحيين فى مبارزة شخصية شريفة، وبعد أن تأجلت خطة اغتيال سيسنيروس بحكم الضرورة، بدأ زهير يفكر فى المستقبل من جديد، لم تفارقه صورة أخيه وهو يتفحص كل شىء بعينيه الذكيتين.

كان كل شارع وكل حارة أقرب إلى نهر فى زمن الفيضان، يتدفق باتجاه بحر متلاطم من البشر بالقرب من باب الرملة. كانت الصيحات كالأمواج تعلو وتنحسر، والكل بانتظار هبوب العاصفة.

عزم زهير على أن يؤيد الإبقاء على حياة العسكر. لاحظ فجأة أنهم قد وصلوا حى الكُحل، الشارع الذى يضم صانعى حجر الكحل. هنا حيث تعبأ المكاحل الفضية بسائل أبرز جمال عيون بلا عدد منذ أن شيدت المدينة. كان معنى هذا أنهم غير بعيدين عن قصر عمه ابن هشام، تحت ذلك القصر الصغير كان الممر السرى المؤدى إلى باب الرملة مباشرة. كان الممر قد بُنِىَ عند تشييد المنزل نفسه، بغرض محدد وهو أن يتيح للنبيل أو التاجر الذى يسكنه مهربًا سهلاً إذا ما حاصره خصومٌ كُتبت لهم الغلبة،

وأخذ أنصارهم يحصدون الغنائم، فى واحد من النزاعات التى لا تن
بقصر الخلافة، والتى كانت دائمًا ترخى على المدينة ظلا لا يتزحزح.

أشار زهير إلى رفاقه ليتبعوه فى صمت. طرق الباب الأمامى لـ
هشام باحتشام مخادع. من الطابق الأول أطل خادم كبير السن من نافـ
صغيرة مغطاة بشبك السلك، وتعرف على زهير. نزل الدرج مسر
وفتح الباب وأدخلهم، ولكنه كان يبدو فى غاية الاضطراب.

«لقد جعلنى السيد أقسم ألا أسمح بدخول أى شخص اليوم عا
أفراد الأسرة. الجواسيس فى كل مكان. لقد وقعت جريمة بشعة وراهـ
الشيطان سوف ينتقم بالدم».

قال زهير للخادم، بغمزة طيبة: «يا صاحبى العجوز، لم نأت
لنمكث، بل لنختفى. ليس عليك حتى أن تخبر سيدك بأنك قد أدخلتنا
إننى أعرف الطريق إلى الممر الموجود تحت الأرض. توكل على الله».

فهم العجوز الأمر، وقادهم إلى مدخل مستور فى الباحة ورفع
بلاطة كاشفًا عن خُطاف صغير. ابتسم زهير وهو يتذكر كم من المرات
غادر هو وأبناء عمه المنزل بعد حلول الظلام، من أجل الذهاب إلى
مواعيد سرية مع عشيقاتهم، عبر هذا الممر السرى نفسه. شد الخُطاف
برفق ورفع غطاء مربعًا كان مموها ببراعة كأنه مجموعة من ستة عشر
بلاطة. ساعد أصدقاءه على النزول إلى الفجوة، ثم انضم اليهم بعد ذلك،
ولكن ليس قبل أن يحتضن الرجل المسن الذى كان يعمل بخدمة عمه
منذ أن وعى زهيرعلى الدنيا.

قال الرجل: «ليحمكم الله جميعًا اليوم»، بينما كان يعيد الغطاء،
فتعود الباحة لصورتها الطبيعية.

فى غضون دقائق معدودة كانوا قد بلغوا السوق القديمة. كان زهير
يخشى أن يكون من المستحيل عليهم رفع غطاء مخرج النفق بسبب حشود
الناس، غير أن القدر كان فى جانبهم. رفعوا الغطاء دون صعوبة، وحين

ظهر سبعة رجال من تحت الأرض فى المدخل المسقوف للسوق، كانت تشاهدهم فى دهشة مجموعة من الأهالى المرتبكين. تبع الرجال سلاحًا مشهرًا: ناول زهير سيفه عبر الفتحة لابن بسيط الذى سبقه بالخروج. رفع زهير جسده الآن، وأعاد الحجر إلى موضعه فى الحال. هكذا سوف يُنسى مكانه المحدد فى تلك الفوضى العارمة المحيطة بهم.

كان مشهدا لن ينساه أحدٌ منهم. رأوا ظهور عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال، الذى احتشدوا بالقرب من باب الرملة يهيمن عليهم الرغبة فى الثأر، ففى هذا المكان نفسه كانوا يقفون فى عام ١٤٩٢م يشهدون غير مصدقين إسقاط الهلال عن حصون وأسوار الحمراء، مصحوبًا بضجيج يصم الآذان لأجراس الكنائس تختلط بها ترانيم المسيحيين. هنا أيضًا كانوا قد وقفوا فى صمت قبل عام بينما كان سيسنيروس، المدعو براهب الشيطان يضرم النار فى كتبهم، وفى هذا الميدان نفسه، قبل شهر واحد، تجرأ اثنان من العسكر المسيحيين السكارى، وقاما بإسقاط العمامة من فوق رأس اثنين من الأئمة الموقرين.

لم يكن أهل غرناطة من الموريسكيين قومًا غلاظ القلوب، أو متعنتين معاندين، ولكنهم أخضعوا للمسيحيين دونما أن يُسمح لهم حتى بحق المقاومة، وقد خلف هذا فى نفوسهم مرارة عميقة. انطلق فى الجو غضبهم الذى كبحوه بداخلهم لأكثر من ثمانية أعوام. كانوا فى حالة قد يقدمون فيها على أشد التدابير يأسًا، قد يهبون باتجاه الحمراء، ويمزقون خيمنيث إربًا وأشلاء، ويحرقون الكنائس، ويخصون أى راهب أو قس يمكنهم الإمساك به، مما يجعلهم شديدى الخطورة، ليس على عدوهم، ولكن على أنفسهم، وبعد أن حرمهم آخر حكامهم فرصة مقاومة الجيوش المسيحية، ها هم يشعرون الآن بأن الوقت كان قد حان للإعلان عن وجودهم من جديد.

فى بعض الأحيان يزعم هؤلاء الذين يخشون العامة والجماهير أن

أى تجمع يفوق عدده اثنا عشر شخصا،يصبح فريسة سهلة أمام أى
للشغب قادر على إشعال عواطفهم؛ وعليه فلن يقوموا إلا بما يخرج
حدود العقل السديد. غير أن هذه الرؤية تتجاهل الأسباب الأسا
التى جمعت وحشدت أشخاصًا كثيرين للغاية، باختلاف مشار
واهتماماتهم. نحيت جانبًا كل الخلافات سياسية كانت أو تجارية؛ و
عداوات الدم زالت، وأعلنت الهدنة بين الطوائف الدينية المتحا
داخل ديار الإسلام فى الأندلس؛ توحد الحشد مرة أخرى ضد المحتا
المسيحيين. ما بدأ فى صورة لمحة تضامن مع حق أرملة فى حماية أب
تحول إلى ما يشبه الثورة المسلحة.

كان ابن وهب، منفذ حكم الإعدام فى المحضر الملكى بف
وطيش، يقف فوق منصة خشبية أقيمت على عجل وهامته بين السحب
كان يحلم بقصر الحمراء، وكيف يكون عندما يستقبل سفراء إيزابيلا و
يجنحون للسلم. لسوء الحظ مُنيت محاولته الأولى فى الخطابة بإخفا
بائس، وكان الجمهور يقاطعه باستمرار.

«بماذا تهمهم؟».

«ماذا تقول؟».

«تحدث بصوت أعلى!».

«إلى من تظن أنك تتحدث؟ إلى ذقنك الحليق؟».

غضب ابن وهب لقلة الاحترام هذه، فرفع صوته على طريقة
الواعظين والشيوخ. ظل يتحدث لمدة نصف الساعة تقريبًا، بلغة مزخرفة
بالبلاغة والصور، مزدحمة بالمجازات، والتنويهات بالانتصارات الشهيرة
من دمشق إلى المغرب، حتى أن أكثر المتعاطفين معه بين المستمعين
كانوا يقولون إن حديثه مثل الطبل، عالى الصوت، ولكنه أجوف يخلو
من أى مضمون.

كان التدبير العملى الوحيد الذى اقترحه هو الإعدام الفورى

للجنود، وعرض رؤوسهم على القوائم. لم يكن هناك أثر لكلامه سوى الصمت المطبق، مما حدا بأحد القضاة أن يسأل ما إذا كان هناك أى شخص آخر يود أن يتحدث.

زأر زهير قائلاً: «نعم!». أشهر سيفه فوق رأسه ثم تحرك نحو المنصة، بكتفين مفرودتين ورأس مرفوع. تبعه رفاقه فأفسح لهم الناس المجال وقد أصابهم الارتباك أمام غرابة هذا الموكب الصغير. تعرف عليه الكثيرون كواحد من سلالة بنى هذيل. طلب القاضى من ابن وهب أن ينزل، وصعد زهير إلى المنصة بمساعدة كثير من الأيدى المبادرة. لم يسبق له أن تحدث على الملأ أمام حشد من الناس، ناهيك عن أن يكون حشدًا بهذا الحجم. كان جسده يرتجف مثل ورقة شجر فى الخريف.

«بسم الله الرحمن الرحيم». هكذا بدأ زهير حديثه بأكثر أسلوب تقليدى ممكن. لم يتحدث كثيرًا عن أمجاد دينهم، ولا أتى على ذكر الماضى. تحدث ببساطة عن المأساة التى حلت بهم، وعن المأساة الأضخم والأبشع الوشيكة. وجد نفسه يستخدم عبارات كانت تبدو مألوفة له على نحو غريب. كانت كذلك بالفعل. لقد التقطها من الزنديق ومن أبى زيد، وختم حديثه بمناشدة غير مرغوبة.

«بينما أتحدث إليكم يكون الجندى الذى شهد الإعدام قد بلغ قصر الحمراء؛ ليصف ما حدث بأدق التفاصيل، ولكن ليضع كلٌ منكم نفسه مكانه؛ لكى يظهر شجاعًا مقدامًا، سوف يبالغ فى كل شىء، وسرعان ما سوف ينزل القائد العام بجنده عن التل ليطالب بإطلاق سراح أولئك الرجال الذين أسرناهم. على خلاف أخى ابن وهب، لا أعتقد أنه يتوجب علينا قتلهم، بل إنى أقترح أن نطلق سراحهم. فإن لم نفعل ذلك، فسوف يقتل المسيحيون عشرة منا مقابل كل جندى. إننى أسألكم: هل يستحق موتهم هلاك روح مسلم واحد؟ إننا إذا أطلقنا سراحهم الآن فسيكون ذلك علامة قوة وليس دلالة ضعف، وبمجرد

أن نطلق سراحهم يتوجب علينا أن نختار من بيننا وفدًا للتحدث معه نيابة عنا. لدى أشياء أخرى كثيرة أود قولها، لكننى سأمسك عنها حتى تعلنوا قراركم حول مصير أولئك الجنود، فلا أود التحدث أكثر من ذلك فى حضورهم».

دهش زهير لاستقبال كلامه بالتحية والهتاف والاستحسان وكثير من إيماءات الرؤوس الموافقة. عندما سأل القاضى الحشد ما إذا كان يتوجب إطلاق سراح الجنود أم قتلهم، كان الجواب المهيمن لصالح إطلاق سراحهم. لم ينتظر زهير وأصدقاؤه أية أوامر، بل اندفعوا إلى حيث كان الرجال مقيدين. أشهر زهير سيفه وقطع الحبل الذى يقيدهم، ثم سار بهم حتى نهاية الحشد المتجمع، وأشار بسيفه باتجاه الحمراء، وأرسلهم فى طريقهم. أومأ الجنود برؤوسهم فى امتنان صامت وهم غير مصدقين، وركضوا بأسرع ما أمكن لسيقانهم أن تركض فى القصر، تماما كما قال زهير، كان الجندى الذى أطلق سراحه فى وقت سابق، مفترضًا أن رفاقه كان قد تم ذبحهم، ويدبج ويزخرف دوره فى هذه الحكاية. استمع رئيس الأساقفة إلى كل كلمة صامتًا، ثم نهض دون أن يتفوه بكلمة، وأمر الجندى أن يتبعه وسار نحو الجناح الذى يشغله كونت تنديلا القائد العام، الذى استقبلهما دون إبطاء، ووجد الجندى نفسه يحكى من جديد المصيبة التى وقعت.

بدأ خيمنيث قائلاً: «لا شك أن سموكم سوف يتفق معى على أننا ما لم نرد ردًا صارمًا على هذا العصيان، فإن جميع الانتصارات التى حققها الملك والملكة فى هذه المدينة ستكون مهددة».

أجابه الكونت بنبرة خادعة المودة: «عزيزى رئيس الأساقفة، أتمنى لو أن هناك كثيرين مثلك فى الخدمة المقدسة لكنيستنا، شديدى الإخلاص للعرش، وشديدى التفانى فى زيادة ثروتها ومن ثم زيادة نفوذ الكنيسة».

«وعلى الرغم من ذلك، أود أن أوضح شيئًا. أنا لا أتفق مع تقييمك للموقف. هذا الرجل البائس يكذب لكى يبرر ركوعه على ركبتيه أمام قتلة باريونيڤو، لن أصدق ولو لدقيقة واحدة أن موقفنا العسكرى يقع تحت تهديد هؤلاء الغوغاء، بل أميل للظن، أنه لو كان هناك أى شيء مهدد، فإنه اعتداءات سيادتك باسم الروح القدس».

استفزت هذه الملاحظة خيمنيث، لا سيما وأنها قيلت فى حضور جندى سوف يكررها على مسامع زملائه: وفى غضون ساعات سوف ينتشر النبأ فى أرجاء المدينة كلها. كبح جماح غضبه حتى صرف الجندى من بين أيديهما، بإيماءة متعجرفة من يمينه.

«يبدو أن سموكم لا يقدر أن هؤلاء الناس لن يبدوا أى ولاء للتاج، ما لم يتم إخضاعهم وإرغامهم على احترام الكنيسة!».

«بصفتك أحد الخدم المخلصين للملكة، فإن سيادتك تبدو جاهلا بالمعاهدات التى وقعناها مع السلطان عند استسلامه. إنها ليست المرة الأولى التى أضطر فيها إلى تذكيرك بالعهود الرسمية التى قطعناها للموريسكيين. لقد منحناهم حق عبادة إلههم، والإيمان بنبيهم دون أى عوائق أو مضايقات، وأن بوسعهم التحدث بلغتهم، والتزاوج فيما بينهم، ودفن موتاهم كما اعتادوا أن يفعلوا لمئات السنين. ولكنك أنت، يا عزيزى رئيس الأساقفة، من آثر العصيان. لقد فرضت عليهم ظروفًا بائسة، ثم تتظاهر بالدهشة حين يقاومون. إنهم ليسوا حيوانات أيها الرجل! إنهم من لحم ودم كما أننا من لحم ودم.

«أحيانًا أسأل نفسى كيف يمكن للكنيسة الأم نفسها أن تنجب أبناء مختلفين فيما بينهم، بقدر اختلاف الدومينيكان عن الفرانسيسكان. أهما قابيل وهابيل؟ أخبرنى بأمر ما، أيها الأخ سيسنيروس، عندما كنت تتلقى تدريبك فى ذلك الدير بالقرب من طليطلة، ماذا سقوك هناك؟».

أدرك سيسنيروس أن غضبة القائد العام ترجع لمعرفته بأنه لا

مناص من الرد العسكرى لاستعادة الاستقرار والنظام، لقد انتصر
فقرر أن يساير الكونت.

«إننى مندهش لأن قائدًا عسكريًا عظيمًا مثل سموكم قد يكون
لديه الوقت لدراسة الاختلافات بين الأنظمة الدينية التى خرجت من
كنيستنا الأم. كلا، ليسا قابيل وهابيل يا سمو القائد العام. ليس ذلك بالمرة.
فلتعتبرهما، إن كان يروق لك ذلك، مثل ابنين محبين لأم أرملة. الابن الأول
صارم ومنضبط، يدفع عن أمه الملاطفات غير المقبولة من قبل خاطبى ودها
المكروهين، والآخر، يحب أمه بالقدر نفسه، ولكنه على الرغم من ذلك رخو
وسهل الانقياد، يترك باب منزله مفتوحًا على مصراعيه، ولا يكترث لمن
يدخل منه أو يخرج. تحتاج الأم لكل من ابنيها وتحبهما بالقدر نفسه، ولكن
فلتسأل نفسك يا مولاى، أيهما يوفر لها الحماية الأفضل؟».

اغتاظ دون إنيجو من تلك المودة المفاجئة من رئيس الأساقفة، ومن
نبرته المتغطرسة. شعر بالإساءة إلى كبريائه المرهف. كيف يحاول مدعى
الدين هذا أن يرفع الكلفة بينه وبين واحد من عائلة مندوثا؟ كيف يجرؤ
خيمنيث على التصرف بهذه الطريقة؟ رمى رئيس الأساقفة بنظرة ازدراء.

«لديكم بالطبع خبرة واسعة بمسائل الأمهات الأرامل ذوات
الابنين. ألم تكن ملاحقة واحدة منهن وابنيها التعسين، هو ما قاد المحضر
الملكى إلى حتفه اليوم؟».

أدرك رئيس الأساقفة أن أى شىء قد يقوله اليوم لن يجلب إلا
الزجر والتوبيخ، فنهض وانصرف. فتح الكونت قبضتيه المضمومتين
وصفق بشدة. عندما ظهر أمامه اثنان من الخدم ألقى عليهما سلسلة
من الأوامر.

«أعدا لى حصانى ودرعى وعدة القتال، أخبرا دون ألونسو أننى
سأكون بحاجة إلى ثلاثمائة جندى لمرافقتى إلى باب الرملة. أرغب فى
التحرك قبل أقل من ساعة.

تغير المزاج فى المدينة تغيرًا هائلاً. أعطى إطلاق سراح الجنود الناس إحساسًا غامرًا بالثقة فى النفس. كانوا يشعرون بأنهم متفوقون أخلاقيًا على أعدائهم. لم يعد هناك ما يخيف بعد ذلك. انتشر باعة الطعام والشراب. أغلق الخبازون أفرانهم ونصبت على عجل فى باب الرملة منصات لبيع المخبوزات والفطائر. تم توزيع الطعام والحلويات مجانًا. راح الأطفال يرتجلون أغنيات بسيطة ويرقصون. زال التوتر كأن شيئا لم يكن. كان زهير يعرف أنها مهلة مؤقتة، غاص الخوف لبعض الوقت تحت السطح، وحل محله جوٌ أقرب إلى جو المهرجانات، قبل ساعة واحدة فقط كان ما يسمع هو صوت خفقان القلوب.

كان زهير هو بطل ذلك اليوم، شنف كبار السن من الناس سمعه بحكايات عن مآثر وغزوات جده الكبير، كان قد سمع أغلبها من قبل، وأخرى لا يمكن أن تكون صحيحة. كان يومئ بظرف ومودة نحو أصحاب اللحى البيضاء ويبتسم، دون أن يكون منصتًا لما يقولونه. أفكاره هناك فى الحمراء، وكانت ستظل تحوم هناك لو لم ينبعث من ورائه صوت أليف ليقطع تأملاته.

«إنك تفكر، ولابد، فى أن كارثة عظيمة توشك أن تحل بنا، أليس كذلك؟».

صاح زهير وهو يعانق صديقه الشيخ: «الزنديق!».

«تبدو مختلفًا تمامًا. كيف أمكن أن تتغير إلى هذه الدرجة خلال أسبوعين اثنين؟ أهو موت زهرة؟».

«يأكل الدهر ويشرب على رجل مُسن مثلى يا زهير الفحل، ذات يوم عندما تتجاوز السبعين، ستدرك أنت أيضًا هذه الحقيقة».

تمتم زهير كأنه فى حالة مناجاة للذات: «إذا ما عشت كل ذلك العمر!». كان مسرورا لرؤية الزنديق، ليس فقط لأنه قد يستطيع اختلاس بضع أفكار أخرى منه، بل كان مسرورًا لأن الزنديق قد رآه فى

أوج بأسه، وهو يتلقى أوسمة الفخار والإطراءات من الغرناطيين. لكن تركيبة المتشكك الداخلية كانت كما هى دون تغيير.

خاطب زهيرًا بصوت مفعم بالعاطفة: «صديقى الشاب، إننا نعيش حياتنا تحت قوس يمتد من المهد إلى اللحد. الشيخوخة والموت هما ما يفسر فتنة الشباب وغوايته، وازدراءه المستقبل».

قال زهير، وقد بدأ يفطن إلى أين يؤدى ذلك كله: «نعم! ولكن الهوة ما بين الشباب والشيخوخة ليست نهائية كما توحى أنت».

«كيف ذلك؟».

«تذكر رجلا يكاد يبلغ عامه الستين، وهى سن من النادر بلوغها حتى فى شبه الجزيرة. كان يسير فى ضواحى الهذيل ورأى ثلاثة صبيان، كلهم يصغرونه بخمسين عامًا أو أكثر، رآهم جاثمين على فرع، قريبًا من قمة شجرة. صاح أحد الصبية بقول مسىء، وشبَّه آخرٌ رأسه الحليق بمؤخرة حيوان ما. تقول التجربة: إن الشيخ سوف يتجاهل الإشارة ويسير مبتعدًا، ولكنه بدلاً من ذلك، فعل ما أثار فى الصبيان دهشة بالغة، حين تسلق الشجرة بمشقة وصعد مفاجئًا إياهم. الولد الذى أساء إليه أصبح فيما بعد صديقه الصدوق».

ضحك الزنديق.

«لقد تسلقت تلك الشجرة تحديدا لأعلمكم أنه لا شىء يجب أن يؤخذ مأخذ البديهيات المسلم بها».

«هكذا تمامًا. لقد تعلمت هذا الدرس أيضًا».

«فى مثل تلك الحالة يا صديقى، كن حريصًا على ألا تقود الناس إلى فخ. هناك فتاة نجت من مذبحة «الهامة»، ما زالت حتى الآن لا تتحمل رؤية المطر. تتخيله أحمر اللون».

«زهير بن عمر، ابن بسيط، ابن وهب. هناك الآن اجتماع الأربعين فى سوق الحرير!».

شكر زهير الزنديق على نصيحته، وأسرع بالانصراف. سار إلى غرفة واسعة كان أحد تجار الحرير قد وضعها تحت تصرفهم. لم يغفل العجوز عن التحول الذى طرأ على طريقة سير صديقه الشاب. فى أحواله المعتادة كان يمكن أن يركض نحو مكان الاجتماع، لكنه الآن كان يسير مبتعدا بخطوات منتظمة حريصة، بينما يعكس مسلكه درجة من الشعور بالأهمية. ابتسم الزنديق وهز رأسه، كان كأنه يرى شبح الجد ابن فريد.

اختار المواطنون المجتمعون لجنة من أربعين رجلاً، وخولوهم سلطة التفاوض نيابة عن المدينة بكاملها. تم اختيار زهير وأصحابه السبعة كلهم، ابن وهب أيضًا. كان أغلب أعضاء اللجنة الآخرين فرسانًا موريسكيين تم تسريحهم من الخدمة. ما أن دخل زهير مكان الاجتماع حتى جاء رسول من مطابخ قصر الحمراء، يتحدث بنبرة مستثارة عن الاستعدادات التى يتم اتخاذها الآن فى القصر من أجل رد الإساءة.

«تم تجهيز عدة وسلاح القائد العام نفسه، وسوف يصحبه ثلاثمائة من الجند، كانت سيوفهم قد تم شحذها قبل أن أغادر».

اقترح ابن وهب: «لابد من أن نكمن لهم، ونصب عليهم الزيت، ثم نشعل فيهم النار».

غمغم القاضى قائلا: «عدو عاقل خير من صديق أحمق» ورفض الاقتراح عابسا.

قال زهير: «قبل أن ينفض الاجتماع ويرجع الأربعون إلى الميدان، فلنستعد كما خططنا».

اعتلى القاضى المنصة وأعلن أن الجنود كانوا فى الطريق. تلاشت الابتسامات، وبدأ الباعة يجمعون بضاعتهم ويتأهبون للانصراف. سرى التوتر فى الحشد وانطلقت فى كل ركن أحاديث قلقة. طلب القاضى من الناس الاحتفاظ بهدوئهم. أرسلوا النساء والأطفال وكبار السن إلى البيوت. وأُمر كل من تبقى باتخاذ موقع محدد فى حال إذا ما حاول

المسيحيون الزحف إلى قلب المدينة لدكها. انتقل الرجال إلى مواقعهم المتفق عليها مسبقًا. تم اتخاذ الاحتياطات بالفعل ووضعت خطة الدفاع موضع التنفيذ. فى غضون ثلاثين دقيقة ارتفع متراس شديد. قام نساجو الحرير ونحاتو حجارة البناء، وصانعو السجاد بتنظيم هذا الحشد فى احتفال من العمل الجماعى الشاق. وُضعت الحواجز بمهارة كبيرة، وأغلقت المنافذ إلى الحى القديم - ذلك الذى دائمًا ما كان يشير إليه القاضى باسم «مدينة المسلمين».

فكر زهير محدثا نفسه، كم هو مدهش أنهم صنعوا ذلك كله بأنفسهم. لم يكن على القاضى أن يستحضر ماضينا، أو أن يدعو العزيز القدير لهم لكى يحققوا ما حققوه. نظر حوله باحثًا عن الزنديق، ولكن الشيخ كان قد ذهب إلى حيث يبيت ليلته. تساءل زهير تُرى أين الآن أبو زيد وعائلته المجنونة الذين يتجسد فيهم المعرى من جديد؟ لماذا ليسوا هنا؟ لابد من أن يروا قوة بأس قومنا. إن كان لابد من تكوين جيش جديد للدفاع عن أسلوبنا فى الحياة، فسوف يكون هؤلاء الناس الصالحون هم جنده وعماده. بدونهم سوف تذهب ريحنا.

صاح أحدهم: «الجنود! حل الصمت على باب الرملة، ومن بعيد كان صوت أقدام الجنود وهى تدق بقوة على الشوارع المعبدة، وكلما اقترب أصبح أعلى وأعلى».

صاح واحد آخر من المراقبين: «على رأسهم القائد العام، فى كامل أناقته!».

أعطى زهير إشارة، كررها خمسة متطوعين كانوا يقفون فى أماكن مختلفة من الميدان. وهنا تصلب فريق من ثلاثمائة شاب، مع كل منهم جراب ممتلئ بكسر الحجارة والقرميد، ومد كل منهم ذراعه متأهبًا. اتخذ الصف الأول من رماة الحجارة موقعه. أصبحت ضجة الأقدام الزاحفة الآن عالية للغاية.

جذب الكونت تنديلا، القائد العام للجيوش المسيحية فى غرناطة، زمام حصانه الذى وقف ساكنا تماما، ما أن وجد نفسه يواجه عقبة لا يمكن تجاوزها. تم نزع الأبواب الخشبية من مفصلاتها، وكذلك أكوام من قطع القرميد، والقضبان الحديدية وحطام وبقايا من كل صنف، ارتفعت لتكون حصنًا منيعًا من النوع الذى لم يسبق للكونت أن واجهه فى معارك عديدة. أدرك الحاجة إلى عدة مئات أخرى من الجنود لتجاوز الصرح، وأدرك كذلك أن الموريسكيين لن يقفوا مكتوفى الأيدى وهم يتابعون هدم هذا البناء. بالطبع سوف ينتصر فى النهاية، لا يمكن أن يكون هناك شك فى ذلك، ولكن ذلك سيخلف الدمار وسفك الدماء.

رفع صوته وصاح من فوق ذلك المتراس: «باسم ملكتنا وملكنا آمركم بإزالة هذا الحاجز، والسماح للحرس المصاحب لى بدخول المدينة».

بدأ رماة الحجارة عملهم. انبعثت موسيقى غريبة ومخيفة عندما انهمر سيل من الحجارة على الدروع المرفوعة للجنود المسيحيين. فهم الكونت الرسالة، لقد قرر كبار السن منهم التحلل من كل صلة بالقصر.

صاح القائد العام: «إننى لا أقبل القطيعة بيننا، سوف أعود بالتعزيزات إن لم تستقبلونى خلال ساعة من الزمن».

ابتعد بجواده فى غضب دون أن ينتظر رجاله. أحدث منظر الجنود وهم يجرون فى أعقاب قائدهم حالة من المرح والسرور بين صفوف الغرناطيين.

غير أن لجنة الأربعين كانت أقل سرورا، كانوا يعرفون أنهم عاجلاً أو آجلاً سيضطرون للتفاوض مع مندوثا. كان ابن وهب يريد أن يقاتلوا مهما كان الثمن، وكسب بعض الأنصار، ولكن الأغلبية قررت إيفاد رسول إلى الحمراء، علامة على استعدادهم للتفاوض.

كان الظلام قد حل عندما عاد الكونت، قام المدافعون بإزالة المتراس. قاد رجال يحملون المشاعل القائد العام إلى سوق الحرير، حيث

استقبله الأربعون فى الغرفة نفسها التى شهدت اجتماعاتهم. أنعم النظر
فى وجوههم، محاولاً تذكر ملامحهم. أثناء تقديمهم له تباعا، كان أحد
حراسه يدون اسم كل منهم فى سجل.

«هل أنت ابن عمر بن عبد الله؟».

أومأ زهير بالإيجاب.

«إننى أعرف والدك جيدًا، أيعرف بوجودك هنا؟».

أجاب زهير كاذبًا: «لا!». لم يكن يريد أن يتسبب فى أى أذى لأسرته.

وراح دون إنيجو يتقدم حتى وقع بصره على ابن أمين.

ارتفع صوته: «أنت؟ يهودى! وابن طبيبى الخاص! تتورط فى هذه الحماقة؟ مالك وهذا كله؟».

«إننى أعيش فى المدينة يا مولاى. ورئيس الأساقفة يعاملنا كلنا المعاملة نفسها، سواء كنا يهودا أو مسلمين أو مسيحيين مهرطقين. لا فرق بيننا عنده».

«لم أكن أعلم بوجود أى مهرطقين فى غرناطة».

«كان هناك بعضهم، ولكنهم رحلوا بعد وصول رئيس الأساقفة، يبدو أنهم كانوا معروفين بالسُمعة».

بعد أن تأكد القائد العام من تدوين كل اسم من أسماء الأربعين، بدأ حديثه قائلا: «لم أحضر إلى هنا لكى أتفاوض معكم. تعلمون كلكم أنه بوسعى أن أسحق هذه المدينة فى راحة يدى. لقد قتلتم محضرا ملكيا. الشخص الذى قتل خادما للملك ينبغى ألا يمضى دون عقاب. لا شىء غير معتاد فى إجراء كهذا، إنه القانون. كان سلاطينكم وأمراؤكم يحفظون العدل كما نفعل نحن. أريد تسليم هذا الرجل إلى جنودى قبل حلول صباح الغد، ومن الآن فصاعدا يجب عليكم أن تتقبلوا القوانين التى سنها الملك والملكة. كلكم، ومن سيعتنق ديننا منكم سوف يتمكن

من الاحتفاظ بمنزله وأراضيه، وبارتداء ثيابكم والتحدث بلغتكم، أما من سيرتدون إلى الديانة المحمدية فسوف يُعاقبون.

«كما يمكننى أن أعدكم أيضًا بأننا لن نسمح لمحكمة التفتيش بالاقتراب من هذه المدينة لخمسة أعوام أخرى، ولكن فى المقابل ستضاعف الضرائب التى تدفعونها للعرش اعتبارا من الغد، بالإضافة إلى دفع أجور جنودى الذين سيبقون هنا؛ وهناك أمر آخر، لقد أعددت قائمة بمئتى عائلة من العائلات المتنفذة فى مدينتكم، وعليهم أن يقدموا لى ابنًا من كل عائلة منهم رهينة. تبدون مصدومين لهذا، رغم أن هذا أمر تعلمناه من أساليب حكامكم. أنتظر أن أراكم كلكم فى القصر غدًا برد منكم على مقترحاتى».

بعد أن نطق بتلك الكلمات الفتاكة أكثر من سيوف الجند استدار نحو إنيجو كونت تندللا وغادر المكان. لم يتحدث أحد لبضع دقائق، بدأ الطغيان المنتظر يثقل عليهم من الآن.

قال ابن وهب بصوت واهن من الرثاء للذات والخوف: «لعله لابد لى من أن أسلم نفسى. سوف يستعيد أهلنا السلام».

قال زهير: «ليس هناك ما هو أكثر وضوحا مما قال، إذا بقينا على ديننا فإن السلام الوحيد الذى سيسمحون لنا به هو سلام القبور. لقد فات أوان المبادرات العظمى والتضحيات التى لا داعى لها».

تدخل ابن بسيط قائلاً: «الخيار المقدم لنا بسيط إما التحول أو الموت».

عندئذ بدأ القاضى، وقد كان أكثر الحاضرين استشعارًا لعمق الكارثة، باستثناء ابن وهب، بدأ يتحدث بصوت يخلو من أى عاطفة.

«لقد تأكدوا أولاً أننا فوق السرج ثم أخذوا يجلدون الحصان. لقد أنزل الله بنا أشد العقاب. ظل يراقب بدعنا على شبه الجزيرة هذه لمُدَّة طويلة للغاية، ويعرف ما اقترفناه باسمه، وكيف قتل المسلم أخاه المسلم، وكيف دمروا ممالك بعضهم بعضًا. وكيف عاش حكامنا حياتهم

بعيدًا تمامًا عن رعيتهم، بحيث لم يعد بالإمكان حشد قومهم للد
عنهم، وكيف اضطروا إلى التماس العون من جند إفريقيا، بما نجم
ذلك من عواقب وخيمة. أرأيتم كيف استجاب الناس هنا لطلبنا ال
منهم؟ ألم يشعروا بالفخر إزاء انضباطهم وولائهم؟ كان من الممكن
يكون الحال هو نفسه فى قرطبة وإشبيلية وألمرية وبالنسيه، وفى سرقسطة
والغارب، ولكنه لم يكن كذلك. كلكم شباب، ما زالت حياتكم أمامكم
عليكم أن تفعلوا ما ترونه ضروريًا. أما بالنسبة لى، فإننى أشعر فى صميم
نفسى بأن رحيلى لن يتأخر أكثر من ذلك.

سوف أحرر نفسى من هذا العالم، وسوف أموت كما ولدتُ، مسلمًا
صباح الغد سأذهب وأبلغ مندوثا بقرارى. سوف أخبره أيضًا بأننى لن
أقوم بعد ذلك بدور الوسيط بين قومنا وقصر الحمراء. عليهم أن ينفذوا
أعمالهم القذرة بأنفسهم، كما يجب أن تقرروا بأنفسكم. سأغادركم الآن،
فما لا تسمعه الأذن لا يستطيع اللسان أن يردده. السلام عليكم يا أبنائى».

كانت رأس زهير محنية فى كرب وغمٍ. لمَ لا تنشق الأرض وتبتلعه
دون ألم؟ والأفضل من ذلك أن يعتلى صهوة جواده ويقوده عائدًا إلى
الهذيل. ولكنه إذ رأى الوجوه القانطة المحيطة به أدرك أن المستقبل معلق
الآن بأعناقهم، سواء أحب ذلك أو كرهه. لقد أصبحوا كلهم ضحايا
لمصير الجماعة، لا يمكنه تركهم الآن. لقد قيدت قلوبهم بعضها إلى بعض
بالسلسلة نفسها. وكان ضروريًا عدم إضاعة المزيد من الوقت.

كان ابن بسيط يفكر فى الخطة نفسها، وكان هو من تحدث أخيرًا
ليصل بالاجتماع إلى خاتمته. «أصدقائى، لقد حان الوقت للذهاب
وتوديع أحبابنا وأهلنا وداعًا أخيرًا. ومن لديهم صلة قرابة بتلك
العائلات القيادية للمدينة، فليذهبوا ويحذرونهم من أن القائد العام
يطالبهم برهائن، وإذا رغب أكبر أبنائهم فى الذهاب معنا فسوف نعمل
على حمايتهم قدر استطاعتنا. متى ينبغى أن نلتقى؟»

تحدث زهير بصوت صاحب السطوة: غدًا عند الفجر. سوف نقود خيولنا من هنا وننضم إلى أصدقائنا فى البوجارا. لقد كونوا جيشًا بالفعل هناك لينضم إلى المعركة ضد المسيحيين. سوف ألتقى بكم فى باحة الفندق عند التكبيرة الأولى لأذان الفجر. السلام عليكم».

ابتعد زهير بخطى واثقة، لكنه لم يسبق له خلال حياته كلها أن شعر بالوحدة إلى هذه الدرجة. «أى مصير حزين ومؤسف سعيتُ إليه؟» هكذا غمغم مخاطبًا نفسه وهو يقترب من مدخل الفندق. كان يمكنه أن يقدم أى شىء مقابل العثور على الزنديق الآن، وأن يحتسى معه قارورة نبيذ، ويفضى له بمخاوفه وشكوكه حول المستقبل. ولكن الشيخ كان قد غادر المدينة. كان الزنديق فى طريقه إلى الهذيل، حيث سيقدم فى الصباح التالى تقريرا مفصلا عما جرى فى غرناطة أمام أسرة زهير التى كان يغشاها القلق.

«يا زهير ابن عمر، حماك الله».

جفل زهير، فلم يستطع أن يرى أى شخص، ثم خرج من الظلام شبح رجل، وتوجه نحوه مباشرة. كان الخادم المسن من منزل عمه.

«السلام عليك يا صديقى. ما الذى أتى بك إلى هنا؟».

«يود السيد أن تشاركه العشاء الليلة، وأمرنى أن أصحبك معى».

أجابه زهير: «يسرنى أن آتى معك، فمن الجميل أن أرى عمى مرة أخرى».

كان ابن هشام يسير فى الباحة الخارجية جيئة وذهابًا، ينتظر بنفاد صبر وصول ابن أخيه. جعلته أحداث اليوم فى حالة من الحزن وتوتر الأعصاب، ولكنه فى أعماق نفسه كان فخورًا بالدور الذى لعبه ابنُ عمر.

حين دخل زهير ضمه عمه إليه وقبل وجنتيه.

«أنا غاضب منك يا زهير. لقد مررت بهذا المنزل فى طريقك إلى مقصد آخر. منذ متى يكون ابن أخى فى هذه المدينة وينزل فى فندق الغرباء والعابرين؟ أليست هذه دارك؟ أجب يا فتى قبل أن أجلدك»؟

تأثر زهير على الرغم منه، وابتسم. طاف به شعور غريب . .
بالذنب، كما لو أنه عاد ابن عشر سنوات من جديد، وأمسك به ا
الكبار وهو يرتكب عملاً طائشًا.

«لم أرغب فى أن أسبب لك حرجًا يا عماه. لماذا يتوجب عليك
تعانى من جراء أفعالى؟ كان من الأفضل الإقامة بالفندق».

«ما هذا الهراء الذى تقوله؟ هل يعنى تحولى أننى فقدت ا
صلات الرحم والدم؟ إنك بحاجة للاستحمام، سوف آمر لك ببعض
الثياب النظيفة».

تساءل زهير وهما يسيران نحو الحمام: «كيف حال زوجة عم
وأبناء عمى؟».

«إنهم فى إشبيلية يقيمون بالدار نفسها التى تقيم فيها كلثوم،
وسوف يعودون بعد أسابيع قليلة. لقد كبرت زوجة عمك، وتسببُ لها
الرياح الجبلية التهاب المفاصل. الجو أكثر دفئًا فى إشبيلية».

قام خادمان صغيرا السن بفرك جسم زهير بالصابون، ثم
استرخى وحده فى مغطس الماء الدافئ، كان يمكنه أن يكون الآن فى
بيته. على الرغم مما قاله عمه هشام، فلا شك أنه يعرض مستقبل عمه
للخطر. من الصحيح أن أحدًا لم يرهما يدخلان إلى المنزل، ولكن الخدم
قد يتحدثون. سوف يتباهون أمام أصدقائهم بأنَّ زهيرًا تناول عشاءه
مع عمه المتحول. وبحلول الغد سوف يصل النبأ إلى السوق فى هيئة
نميمة بولغ فى زخرفتها وتنميقها. وسوف يسرع بعض جواسيس رئيس
الأساقفة بالتقاطها والإبلاغ عنها.

بعد تناول العشاء الذى كان بسيطًا ومتقشفًا كالمعتاد، انتقل
الحديث بالضرورة إلى مناقشة المصيبة التى حلت بدينهم.

«الخطأ خطأنا يا بُنى. الخطأ خطأنا نحن»، هكذا أعلن ابن هشام
دون ظل من الشك. «دائمًا ما كنا نبحث عن الإجابات فى أفعال أعدائنا

رهم أن الخطأ بداخلنا نحن. لقد أصبنا النجاح أسرع من اللازم. توفى الله رسولنا بسرعة شديدة، قبل أن يتسنى له ترسيخ دعائم النظام الجديد، ومن خلفوه بعد ذلك تقاتلوا فيما بينهم كما كانوا يتقاتلون وهم قبائل متناحرة. وبدلاً من أن نستوعب الخصائص المستقرة والراسخة للحضارات التى غزوناها، اخترنا أن ننقل لهم أسلوبنا المتقلب المتحول، وهكذا كان الأمر فى الأندلس. مبادرات رائعة ولكن طائشة، تضحيات غير معقولة بأرواح المسلمين، وفروسية فارغة...».

«سامحنى يا عمى على مقاطعتك، ولكن كل كلمة قلتها تَصْدُقُ بالقدر نفسه على المسيحيين، تفسيرك منقوص».

هكذا تواصل الحديث تلك الليلة. لم يستطع هشام أن يُرضِى ابن أخيه، كما لم يتمكن زهير من إقناع عمه بأن الوقت كان قد حان لحشد الجيوش من جديد. كان من الواضح لزهير أن تحول عمه ليس سوى غطاء ظاهرىٌّ، فقد كان يتحدث ويتصرف مثل أى سيد كريم من المسلمين. لحم الخنزير لم يلوث مائدته. المطبخ والمنزل يملأهما المسلمون، ولو نطق الخادم المسن بالصدق لقال: إن هشام نفسه كان يتجه كل يوم نحو المشرق ليقيم صلواته سرًا.

«لا تهدر شبابك فى مغامرات طائشة يا زهير، لقد تجاوزنا التاريخ، لماذا لا يمكنك تقبل هذه الحقيقة؟».

«لن أضطجع مستريحًا فى تخاذل، وأتقبل الفظائع التى يفرضونها علينا. إنهم متوحشون ويجب مقاومة المتوحشين. الموت خير لى من أن أكون عبدًا للكنيسة».

أفضى له ابن هشام قائلا: «لقد تعلمت شيئًا جديدًا فى تلك الأشهر القليلة الأخيرة، فى هذا العالم الجديد الذى نسكنه توجد كذلك طريقة جديدة للموت. فى الأيام الخوالى كنا إما أن نقتل بعضنا بعضًا، أو أن يقتلنا الأعداء وينتهى أمرنا، ولكننى اكتشفت أن اللامبالاة التامة هى

طريقة للموت لا تقل قسوة عن الاستسلام أمام فارس مدرع».

«ولكنك دائمًا ما احتفظت بأصدقاء كثيرين من...».

«لقد تفرقت بهم السبل. إذا ما اكتفينا بالظاهر وحده لبدا لنا أن الأفراد يمكنهم النجاة دون أى مشقة من جائحة من النوع الذى نعيشه. كل شىء يتبدل بداخلنا، لقد تحولت؛ لأسباب أنانية، غير أن ذلك لم يزدنى إلا اغترابًا. أنا أعمل بينهم، ولكن مهما حاولت واجتهدت لا يمكننى أبدًا أن أكون واحدًا منهم».

«كنت أظننى الشخص الوحيد فى عائلتنا كلها الذى أدرك حقًا معنى الوحدة».

«يجب أن نتجنب الشكوى لدى أكثر الأصدقاء صبرًا فى العالم كله، وكثيرًا ما أتحدث إليهم هذه الأيام، إنها حجارة الباحة».

نهض الرجلان وعانق زهير عمه مودعًا.

«أنا مسرور لأننى أتيت ورأيتك يا عماه، لن أنس هذا اللقاء ما حييت».

«أخشى أن يكون هذا هو العشاء الأخير لنا معًا».

رقد زهير فى فراشه وراح يستعيد أحداث اليوم وكيف حطم الكونت آمالهم بوحشية. انتصر رئيس الأساقفة، سيسنيروس العنيد الماكر. المدينة الآن بين يديه وسوف يدمرها من داخلها، سيقضى على روح الغرناطيين، ويجعلهم يشعرون بالقبح والدونية. ستكون هى نهاية غرناطة، وسيكون من الأفضل لو سويت بالأرض، فلا يعود فيها إلا ما كان موجودًا عند المبتدأ: سهلٌ جميل، تغضنه الجداول وتكسوه الأشجار. كان هذا الجمال هو ما اجتذب أسلافه، وهنا كان الموضع الذى شيدوا فيه هذه المدينة.

شردت أفكاره نحو المساء الذى أمضاه مع عمه. فوجئ زهير بحجم ما كان يشعر به عمه من مرارة ومهانة، ولكن هذا حمل له راحة كبيرة، إذا كان عمه هشام، الرجل صاحب الثروة والذكاء، لا يمكنه أن

يجد راحة أو رضا بعد تحوله للمسيحية، فإذن، زهير، يشعر بالرضا عن المسار الذى اختاره لنفسه. ما جدوى رخاء العيش وأبهته إذا كانت نفس المرء مبتلاة بفقر دائم وبؤس مقيم؟

قطع نوم زهير فى تلك الليلة حلم، فاستيقظ مغسولاً بالعرق وهو يرتجف. رأى منزلهم فى الهذيل تحيط به خيمة من قماش قطنى أبيض خفيف. الشخص الوحيد الذى ميزه كان يزيد، رآه يضحك، ولكن ليس كما يمكن لزهير أن يتذكره. كانت ضحكة كهل. كان محاطًا بقطع الشطرنج وقد أصبحت عملاقة وحية، وتتحدث بلغة غريبة، وببطء راحت القطع تتحرك نحو يزيد تضيق عليه الخناق وتعتصره، وتحولت الضحكة غريبة الصوت إلى حشرجة.

رقد زهير هناك يرتعد، ولم يعاوده النوم مرة أخرى. بقى فى فراشه، متيقظًا تمام اليقظة، ملفوفًا فى لحافه ينتظر، فى يأس، الأصوات الأولى التى تنبعث مع الشروق.

«أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله!».

الكلمات نفسها، الإيقاع نفسه، وثمانية أصوات مختلفة، وثمانية أصداء تتنافس فيما بينها ثمانية مساجد للمسلمين اليوم. وماذا عن الغد؟ ارتدى زهير ثيابه الآن، وأصبح بوسعه أن يسمع صوت حوافر الخيل. قام صبى الإسطبل، وكان يكبر يزيدًا بقليل، بإسراج جواده، وأطعمه قطعة كبيرة من السكر البنى الخام. توافد إلى الباحة المزيد من حوافر الخيل، سمع صوتى ابن بسيط وابن أمين.

قادوا خيولهم خارج الفندق، عبر الشوارع الصغيرة، فى زرقة الفجر الشاحبة الضوء، بينما كانت غرناطة تستعيد حياتها. انفتحت الأبواب عن جماعات من الرجال تهرع إلى المساجد. ويمرون ببعض الأبواب المفتوحة، رأى زهير الناس منشغلين بالوضوء، فى محاولة لغسل آثار النعاس المتراكمة.

لم تعد المدينة موحشة، كما شاهدها وهو عائد سائرًا إلى الفندق من دار عمه فى وقت متأخر من الليلة السابقة، كانت غارقة فى اليأس لم يستطع ابن بسيط أن يتذكر أى وقت آخر كان فيه كل هذا العدد من الناس يسرع إلى أداء صلاة الفجر.

قبل حرب الاستعادة كانت صلاة الجمعة هى الأقدر على جذب حشدٍ أضخم عددًا من المصلين، ما كانت مناسبة اجتماعية وسياسية بقدر ما هى دينية. وكثيرًا ما كان الإمام يناقش الشئون السياسية والعسكرية حيث يأتى كل يوم بجديد فيهما، مهملا أمور الدين تمامًا، وعادة ما كان المزاج العام للناس يبدو هادئا مطمئنًا، فى تناقض حاد مع الصمت المقهور الذى حط على رؤوسهم اليوم.

قال ابن أمين بصوت منفعل: «يا زهير الفحل، معى أنا وابن بسيط هديتان علينا تسليمها فى قصر الحمراء. هل تريد الانضمام إلينا إلى هناك؟ ينتظرنا الآخرون خارج المدينة، وقد صار الأربعون ثلاثمائة!».

تساءل زهير ملاحظًا الصندوقين الخشبيين الفاخرين الملفوفين بأشرطة حريرية: «أية هدايا؟ إن زخم العطر قوى للغاية».

أجابه ابن بسيط جاهدا للحفاظ على وجه جاد: «صندوق من أجل خيمنيث والآخر من أجل الكونت. إنها هدية وداع لن ينساها أبدًا هذان السيدان».

رأى زهير أن المبادرة غير ضرورية، كانت تمضى بالفروسية إلى حد المبالغة العبثية، ولكنه وافق على أن يصحبهما، وما هى إلا دقائق معدودة حتى كانوا على أبواب القصر.

استل جنديان شابان سيفيهما واندفعا نحوهم: «قفوا حيث أنتم! ما شأنكم؟».

«اسمى ابن أمين، وقد زارنا بالأمس القائد العام فى المدينة ودعانا لتناول الإفطار معه هذا الصباح، أمر ببعض المطالب، ورغب فى أن

نقدم له ردنا عليها مع حلول الصباح، وقد أحضرنا هدية له وهدية أخرى لسمو رئيس الأساقفة الطليطلى، وللأسف لا يمكننا البقاء. هلا أبلغتما اعتذاراتنا، وحرصتما على تسليم تلك الهدايا إلى السيدين بمجرد استيقاظهما، برهانا ضئيلا على تقديرنا».

اطمأن الجنديان وقبلا الهديتين فى مزاج طيب. أدار الشباب أعنة خيولهم وانطلقوا بعيدًا للانضمام إلى رفاقهم المحاربين، حيث كانوا قد تجمعوا خارج المدينة مباشرة، كان حراس البوابة يراقبونهم بوجوه باسمة وهم مارون بهم.

كان لا يمكن أن يتوقع أحد أن يبقى ثلاثمائة رجل مسلح على متون جيادهم ساكنين، وأغلبهم تحت سن العشرين، وهم على شفا تغيير هائل. تناثرت الصيحات، والهمسات، والضحكات العصبية. كان هواء الجبل قارص البرودة، وكان كلٌّ من الرجال والخيول يلفهم الضباب. تحت الأسوار كانت تقف أمهات خائفات، مدثرات بالشيلان، يلقين تحيات الوداع. قطب زهير جبينه إزاء هذه الجلبة، غير أن مزاجه تبدل حين اقترب من مجموعة من الفرسان. كان منظرهم مهيبًا جليلاً، فى دلالة على أن موريسكيى غرناطة لم يفقدوا الأمل بعد، وإذ قاد الأصدقاء الثلاثة جيادهم نحو الرفقة المجتمعة هناك، استقبلتهم التحيات بصيحات متحمسة وترحاب دافئ. كانوا كلهم واعين بالمخاطر التى تنتظرهم، وعلى الرغم من إدراكهم ذلك فقد شملتهم حالة معنوية عالية.

سألهم ابن وهب، وقد تركوا المدينة الآن وراءهم: «هل قمتم بتوصيل الهدايا؟».

أومأ ابن أمين وضحك.

تساءل زهير: «بحق الله، ما تلك المزحة؟».

أغاظه ابن بسيط قائلاً: «ألابد من أن تعرف؟ أخبره أنت يا ابن أمين».

ضحك ابن الطبيب الشخصى للكونت، وأغرق فى الضحك عند

هذا الاقتراح، حتى أن زهيرًا ظن أنه سوف يختنق ضحكًا.

بعد أن هدأ، شرع ابن أمين يقول: «زخم العطر! أنفك كشف جريمتنا، فهى مخفية وسط عطر الورد، وهى صنف لذيذ ونادر يتناوله رئيس الأساقفة والكونت. فى داخل ورق فضى صالح للأكل مقلوب على السطح، تركنا لهم يا زهير الفحل، قطعتين من برازنا. قطعة وصلت طازجة هذا الصباح نفسه من أمعاء هذا اليهودى الذى تراه أمامك، والأخرى من جوف موريسكى ورع يدعى ابن بسيط. هذه الحقيقة موضحة تمامًا، دون ذكر اسمينا بطبيعة الحال، فى ملاحظة موجهة لكليهما منهما، أعربنا كذلك عن أمنياتنا لهما بإفطار شهى ممتع».

كانت كلمات طفولية لأقصى حد. حاول زهير جاهدًا الا يضحك، ولكنه وجد صعوبة متزايدة فى السيطرة على نفسه، وانطلق يقهقه دون أى كابح. لم يمض وقت طويل حتى انتشرت المزحة بين أفراد الجماعة. وفى دقائق معدودة غمرت الفرسان المغاوير الثلاثمائة موجة عالية من الضحك.

قال زهير محاولاً أن يهدئ نفسه: «وأنا الذى فكرت أنكم تبالغون فى إظهار العاطفة والفروسية».

فجعل قوله هذا رفاقه يعاودون الضحك.

ظلوا يسيرون بالخيول لبضع ساعات. أشرقت الشمس، ولم تكن هناك أى ريح بالمرة. نُزعت المحارم وأغطية الرأس، وتناولها نحو مئة خادم اصطحبوا أسيادهم. وبعد أن استمرت مسيرتهم أكثر من ساعتين، رأوا مجموعة صغيرة من الخيل متجهة نحوهم بسرعة.

صاح زهير: «الله أكبر! الله أكبر!» وعلى الفور ردد شباب غرناطة الصيحة وراءه.

لم يأت جواب من جهة الراكبين القادمين، فأمر زهير الجنود بالتوقف، خشية أن يكون ذلك كمينا قد نصب لهم. لم يتعرف زهير

هل الفرسان حتى اقتربوا منه بما يكفى، وعندئذ انفرجت أساريره لأقصى حد.

صاح وكله غبطة: «أبو زيد المعرى! السلام عليك! ها أنت ترى أننى اتبعت نصحك فى نهاية الأمر، وأحضرت معى بعض الأصدقاء».

«سعيد لرؤيتك يا زهير بن عمر. كنت أعرف أنك سوف تتجه نحو هذا الطريق. سيكون من الأفضل لو انضممتم إلينا وابتعدتم عن هذا المسار، فهو معروف جِدًّا، ولابد من أن يكون هناك الآن جنود فى إثركم، محاولين أن يحددوا الموضع الذى سوف تخيمون فيه لتبيتوا ليلتكم».

أخبره زهير بشأن الهدايا التى تركوها وراءهم لكل من رئيس الأساقفة والكونت، ولدهشته فإن أبا زيد لم يضحك.

«لقد فعلتم شيئًا فى غاية الحماقة يا أصدقائى. لعل العاملين بالمطابخ فى قصر الحمراء قد استمتعوا كثيرا بمزحتكم هذه، غير أنهم الأقل شأنا فى القصر. لقد دفعتم الكونت وكاهن الاعتراف لأن يتوحدا معًا. هدية واحدة إلى القس كانت ستكفى للغاية. بل ربما كانت تروق للكونت وتؤجل اعتداءه. هل ظننتم حقًا أنكم أول من تخطر له إهانة كهذه؟ لقد قام آخرون غيركم، فى أنحاء الأندلس كلها، بحماقات شبيهة. تأخر الوقت، فلنخرج من هذه المنطقة بأسرع ما نستطيع».

ابتسم زهير لنفسه. كان شابًا جسورًا، إن لم يكن فائق الذكاء. كان يدرك أن قدراته لا تمتد إلى قيادة جيش غير نظامى فى الجبال، وقد أزاح حضور أبى زيد هذا العبء عن كاهله تمامًا.

اكتمل النهار وهم يتقدمون بخيولهم. لم تحجب الشمس سحابة واحدة، فكانت تغمر الأرض بدفئها، الأرض التى كانوا يستنشقون عبقها وهم يصعدون الجبل، وأمامهم أفق مفتوح لا حدود لبهائه.

فى وقت تال من أصيل اليوم نفسه، سلم الزنديق رسالة زهير إلى عمر ووصف له أحداث اليومين السابقين، حيث كانوا يستمعون

إليه صامتين، حتى يزيدًا لم يطرح عليه أسئلة، وعندما أتم الشيخ حديثه كانت "آمه" تنشج بصوت عالٍ.

ناحت قائلة: «إنها الخاتمة، لقد ضاع كل شىء».

أجابها يزيد: «ولكن يا "آمه"، زهير حى يرزق وما زال بخير، وقد بدأوا الجهاد. ولابد أن هذا يسرك، لا أن يحزنك. لماذا تبكين هكذا؟».

«أرجوك... لا تسألنى يا ابن عمر، لا تعذب امرأة مُسنة».

أشارت زبيدة نحو يزيد لكى يتبعها هى وعمر إلى خارج الغرفة. عندما وجدت "آمه" أنها قد أصبحت وحدها مع الزنديق، مسحت دموعها وراحت تسأله بالتفصيل عن مظهر زهير ذلك الصباح.

«هل كان يضع على رأسه عمامة زرقاء أنيقة يزينها هلال ذهبى؟».

أومأ الزنديق برأسه.

«هكذا رأيته فى المنام ليلة أمس».

تحدث الزنديق بنبرة هادئة للغاية: «تبوح لنا الأحلام بالكثير عن أنفسنا يا أميرة».

ردت عليه "آمه" سريعًا فى غضب: «إنك لا تفهمنى أيها الشيخ الأحمق، فى منامى كانت تلك العمامة على رأس زهير، غير أن الرأس نفسها كانت مطروحة على الأرض، مغطاة بالدم، وبدون جسده».

ظن الزنديق أنها سوف تعاود البكاء، ولكن بدلاً من ذلك تلون وجهها بلون رمادى، وعلا صوت أنفاسها واضطربت. ناولها بعض الماء وعاونها لتعود إلى غرفتها. غرفة صغيرة للغاية قضت بها أغلب لياليها على مدى أكثر من نصف القرن. رقدت وغطاها الزنديق ببطانية. فكر فى ماضيها، وفى كلمات يقولها، وفى خداع النفس للنفس، وفى الألم الذى سببه لها بحبه لزهرة. كان يشعر بأنه أفسد حياة "آمه".

قرأت العجوز أفكاره بغريزتها.

«لم أندم ولو دقيقة واحدة على الحياة التى عشتها هنا».

ابتسم ابتسامة حزينة: «ربما فى مكان آخر كان يمكنك أن تكونى سيدة حياتك، لا تدينى بالفضل لأحد إلا لنفسك».

حدقت فيه وفى عينيها تساؤل ورجاء.

قال: «لقد ضيعت حياتى يا أميرة، لقد أنزلت بى هذه الدار لعنة أبدية. ليتنى لم أضع قدمًا فى باحتها. تلك هى الحقيقة».

فجأة رأته فى الثامنة عشرة من عمره، بشعر أسود كثيف، وعينين مفعمتين بالضحك، كانت الذكرى وحدها تكفيها.

قالت: «اذهب الآن، ودعنى أموت فى سلام».

كان الموت فى هدوء وسكينة، والرحيل دون صرخة غضب أخيرة بالنسبة للزنديق فكرة غير قابلة للتصور، هكذا أخبرها.

أجابته وهى تقبض على حبات مسبحتها: «إنها الطريقة الوحيدة التى أعرفها، من يتوكل على الله فهو حسبه».

لم تمت "آمه" فى ذلك اليوم ولا فى اليوم التالى. تباطأت لأسبوع، مودعة الحياة بإيقاعها الخاص. قبلت يد عمر ومسحت دموع يزيد، وأفضت لزبيدة بمخاوفها حول مستقبل الأسرة، وتوسلت إليها أن تأخذ الأطفال بعيدًا عن هنا. كانت هادئة رابطة الجأش، إلا حين طلبت من عمر أن يذكرها لزهير.

كانت تبكى وهى تقول: «من الذى سيعد له مزيجه السماوى عندما أرحل؟».

توفيت "آمه" أثناء نومها بعد ثلاثة أيام من رحلة فرار زهير من غرناطة. دُفنت على مقربة من زهرة فى مقابر العائلة. حزن عليها يزيد سرًا. كان يشعر بأن عليه أن يكون شجاعًا بعد أن أصبح رجلا، وألا يعلن عواطفه على الملأ.

***

الفصل الثانى عشر

كل صباح، بعد أن يتناول يزيد الإفطار يأخذ كتبه ويعتزل فى البرج.

كانت زبيدة ترجوه قائلة: «ابق هنا واقرأ معى»، ولكنه كان ينظر إليها وابتسامة صغيرة حزينة على وجهه قائلا:

«أحب أن أقرأ بمفردى، الجو هادئ تمامًا فى البرج».

لم تكن تلح عليه أبدًا، وهكذا فإن ما بدأه كان تأكيدًا للاستقلال، مرتبطا باقترابه من بلوغ مبلغ الرجال، أصبح عادة ثابتة. بدأ الأمر قبل شهرين، حينما سمع أول مرة أنباء ما جرى فى غرناطة، وهروب ثلاثمائة شاب على رأسهم زهير.

شعر يزيد بفخر شديد بأخيه، وامتلأ أصدقاؤه فى القرية بالحسد، ولم يستطع أن يفهم تماما لماذا كان يخيم كل ذلك الحزن على المنزل. حتى "آمه"، التى ماتت فى سلام أثناء نومها، كانت قد أعربت عن هواجسها هى الأخرى.

«لا خير سينجم عن هذه المغامرة يا ابن عمر»، هكذا قالت ليزيد، الذى لم يكن يعرف آنذاك أنها ستكون آخر كلمات العجوز بالفعل. كان تحذيرها ذلك هو ما دفع يزيد لأن يعيد التفكير فى الأمر كله. كانت "آمه" نفسها فيما مضى، تدافع عن أى عمل جسور، مهما بلغ من التهور والطيش، ما دام من قام به أحد ذكور العائلة. كانت قد ملأت رأسه بقصص متناثرة عن الفروسية والشجاعة اللتين ميزتا بالفطرة جده ابن فريد، مما منحه شهرته. وإذا كانت "آمه" يساورها القلق على زهير، فلا شك أن الغد كان مخيفا حقًا.

من برجه، رأى يزيد فارسًا يقود جواده باتجاه المنزل. فى كل يوم يصعد إلى هناك كان يتمنى ويتمنى، ويدعو أن يرى ذلك المشهد نفسه، وأن يكون الفارس شقيقه. بلغ الراكب أبواب المنزل، غاض قلب يزيد لم يكن زهير، أبدًا، لم يكن زهير.

لم يسبق ليزيد أن شعر بمنزلهم خاويًا إلى هذه الدرجة. لم يكن الأمر يقتصر على غياب زهير أو موت "آمه" وحسب. خسارتان فادحتان، غير أن زهيرًا سوف يعود ذات يوم، أما بالنسبة لـ "آمه" فلسوف يراها، كما وعدته كثيرًا، فى جنة النعيم. سوف يلتقيان فى السماء السابعة، على ضفاف نهر من حليب متدفق لا يمكن لعقل بشر أن يتخيل لذة مذاقه. كان يفتقد "آمه" أكثر مما يمكنه الاعتراف بذلك، ولكن على الأقل شغل مكانها الزنديق، الذى يعرف الكثير عن حركة القمر والنجوم. ذات مرة أخبر الزنديق بلقائه المنتظر بـ: "آمه" من جديد، فضحك الشيخ وقال شيئًا فى غاية الغرابة.

«إذن، فإن أميرة كانت تظن أنها سوف تذهب إلى السماء السابعة مباشرة، أليس كذلك؟ لست واثقًا من هذا يا يزيد بن عمر. فهى لم تكن منزهة عن الخطأ. أعتقد أنها قد تواجه مشكلات فى تجاوز السماء الأولى، ومن يدرى؟ لعلهم يقررون إرسالها فى الاتجاه الآخر».

كلا، بل كان زواج هند ورحيلها؛ ومع أنه لم يكن أمرًا مفاجئًا له، قد وقع عليه مثل عاصفة مدمرة. كان قريبًا من هند أكثر من أى شخص آخر فى الأسرة كلها، ولكنها رحلت. صحيح أنها توسلت إلى والديها ليسمحا ليزيد بعبور البحر معها، والبقاء بصحبتها لأجل قصير، مقسمة أن تعيده بنفسها بعد أشهر قليلة، ولكن زبيدة لم ترض بالافتراق عن ابنها.

«إنه كل من تبقى لنا فى هذا المنزل. لن أدع أحدا يسرق منى جوهرتى الأغلى، ولا حتى أنت يا هند!».

هكذا ذهبت هند بدون أخيها، وكان ذلك بالتحديد ما جعلها

تبكى مثل طفلة يوم السفر، أكثر منها لمفارقتها منزل أجدادها؛ وهو ما جعلها أيضا تعاود البكاء بعدها بيوم حين صعدت مع ابن داوود على متن سفينة فى «مالقه» متجهة إلى ميناء طنجة.

كان أحدهم يصعد الدرج راكضًا. طرح يزيد عنه أفكاره، وأخذ يسرع بالنزول إلى المنزل، وفى منتصف طريق نزوله التقى بأميمة خادمة "آمه"، وكان وجهها متوردا من الإثارة.

«يا يزيد بن عمر! لقد جاء رسول من عند أخيك، هو الآن مع السيدة زبيدة وأبيك، ولكنه لن يتحدث حتى تكون حاضرًا».

تجاوزها يزيد وطار طيرانًا نازلاً الدرج، وما أن بلغ الأرض حتى انطلق يجرى عبر الباحة الخارجية مثل زوبعة، وقد اكتشفت أميمة، وهى تدمدم باللعنات هامسة، أنها غير قادرة على مسايرته. لم تعد ذلك الغزال النحيل القادر على أن يسبق حتى زهيرًا الفحل، فقد تكور بطنها خلال الأشهر القليلة الأخيرة.

ظهر يزيد مقطوع النفس فى غرفة الاستقبال.

قال عمر، وقد تغضن وجهه بالابتسام: «ها هو يزيد».

قال ابن بسيط: «يرسل إليك أخوك مئات القبلات».

«أين هو؟ أهو بخير؟ متى سأراه؟».

«عن قريب. سيأتى إليكم ذات مساء، عندما يحل الظلام، وسوف ينصرف فى اليوم التالى قبل طلوع النهار، إذ أن هناك مكافأة لمن يأتى برأسه».

اكفهر وجه عمر من الغضب، وقال متساءلا:

«ماذا؟ لأى سبب؟».

«ألم تسمعوا بما حدث؟».

«نسمع ماذا أيها الفتى؟».

«أحداث الأسبوع الماضى. لابد من أن تكونوا قد علمتم بها، فهى حديث غرناطة كلها. لقد ظن زهير أن عمه هشام قد أرسل إليكم رسولاً».

كان ضيق صدر عمر يتزايد وصبره ينفد، وأخذ يبرم طرف لحيته، أما زبيدة فكانت تعرف أن ذلك علامة على قرب انفجار غضبه، فحاولت امتصاص سخطه، قائلة:

«لا نعرف شيئا من ذلك يا ابن بسيط؛ لذا أرجو أن تحيطنا علمًا ل‍ الحال. فكما ترى، نحن متعطشون شوقًا لأى خبر عن زهير».

«حدث كل شىء قبل نحو تسعة أيام. كان أبو زيد المعرى يقودنا نحو مخبأ فى الجبال حين رأينا الجنود المسيحيين، وقد رأونا هم كذلك، ولم يكن بالإمكان تجنب الاشتباك. كنا نزيد قليلا عن الثلاثمائة، ولكن من مجرد رؤية الغبار الذى تثيره خيولهم عرفنا أن عددهم ضعف عددنا، إن لم يكن أكثر.

«توجه نحونا رسول أعزل منهم، وشرع يقول: «إن قائدنا، النبيل دون ألونزو من أجيولار، يقرئكم تحياته، إذا استسلمتم فسوف تلقون معاملة طيبة، ولكن إذا قاومتم فسوف يعود إلى غرناطة بخيولكم وحدها». وقعنا فى فخ هذه المرة، حتى أبا زيد لم يكن لديه خطة تدبير ماكر لنتجاوز الموقف. عندئذ تقدمنا زهير بن عمر على جواده، وتحدث بصوت كان يمكن سماعه من على بعد أميال قائلاً: «أخبر سيدك بأننا لسنا قومًا بلا تاريخ. إننا فرسان موريسكيون يدافعون عما كان لهم ذات يوم، أخبره بأننى أنا، زهير بن عمر، وجدى الفارس المحارب ابن فريد، سوف أنازله، هو دون ألونزو، فى مبارزة حتى الموت. الغالب منا سوف يحدد مصير الآخرين».

قاطعه يزيد متساءلا، بوجهٍ يكسوه القلق: «ومن هو دون ألونزو؟».

أجابه ابن بسيط: «إنه الفارس الأكثر خبرةً وبراعة من بين فرسان دون إنيجو، يخشاه أعداؤه وأصدقاؤه. رجل قاسى الطباع، ذو ندبة على جبهته، تركها عليه أحد الموريسكيين المدافعين عن مدينة «الهامة». يقال: إنه وحده، عليه لعنة الله، قتل مئة رجل فى تلك المدينة المنكوبة».

توسلت زبيدة قائلة، وهى تحاول جاهدة أن تحافظ على هدوء صوتها: «أرجوك أكمل».

«ما أثار دهشتنا العظيمة، أن دون ألونزو قَبِلَ التحدى. بدأ الجنود المسيحيون يتجمعون فى جانب من المرج، وذهب مئتان منا واحتلوا الجانب الآخر».

تساءل يزيد، وهو غير قادر على إخفاء انفعاله: «وأين ذهب الآخرون؟».

«انظر، وجد أبو زيد أنه سواء فزنا فى هذه المبارزة أو خسرنا، فلا غنى عن عنصر المفاجأة. أخذ مئة رجل ووزعهم على نقاط مختلفة من الجبل، تشرف على المرج. كانت الخطة أن نهجم على المسيحيين بمجرد انتهاء المبارزة، وقبل أن يتاح لهم الوقت للاستعداد للمعركة».

احتج عمر قائلاً: «ولكن هذا مخالف للقواعد والأعراف».

«صحيح، ولكننا لم نكن نلعب مباراة شطرنج، والآن، إذا سمحتم لى أن أكمل. كان زهير يحمل راية قديمة، مزخرفة على أجمل ما يكون، أعطته إياها عجوز فى غرناطة، أقسمت على أن جده ابن فريد سبق أن حملها فى معارك عديدة. كان على عمامته الخضراء يلتمع هلال فضى. غرس زهير الراية قبالة صفوف رجاله، ومن بعيد كنا نرى دون ألونزو يُثبت صليبًا ذهبيًا فى الأرض. عند الإشارة المتفق عليها، هجم دون ألونزو، ورمحه يلتمع بضوء الشمس، يوجهه نحو قلب زهير، وقد تَرفَّعَا كلاهما عن الاستعانة بالدرع.

«استل زهير سيفه وركض بجواده مثل مجنون، كان وجهه محتقنا بالغضب كما لم أره من قبل، وعندما اقترب من دون ألونزو سمع الجميع صوته يهدر: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

أصبحا الآن قريبين من بعضهما. تفادى زهير الرمح بانزلاقة صغيرة للغاية بجواده، أى عرض من عروض الفروسية كان ذلك! ثم رأينا سيف ابن فريد يومض مثل سنا البرق. للحظات بدا كأنهما قد كتبت لهما النجاة،

ولكن حين أصبح حصان دون ألونزو أقرب إلينا رأينا أن راكبه كان قد فقد رأسه. لم تعد هناك فى طليطلة الآن صناعة سيوف مثل تلك!

«تعالت التكبيرات من جانبنا كالعاصفة، ارتبكت صفوف المسيحيين وأحبطت همتهم، وكانوا يستعدون للتقهقر عندما هجم أبو زيد عليهم. أنزلنا بهم خسائر فادحة قبل أن يتمكنوا من الفرار. أسرنا منهم خمسين رجلاً، ولكن تحت إصرار زهير، سمحنا لهم بأخذ جسد دون ألونزو ورأسه ليعيدوهما إلى غرناطة. قال لهم زهير: «أخبروا الكونت بأننا لم نبدأ هذه الحرب، ولقد خسر فارسًا شجاعًا؛ لأن القائد العام ليس أكثر من مرتزق يخدم قسًا متوحشًا جبانًا».

انتشى يزيد بالحكاية، وامتلأ فخرًا بأخيه، فلم يلحظ الهم والقلق على وجهى والديه. كان قلق الزنديق إزاء عواقب انتصار زهير مساويًا لقلق الوالدين، وكان هو أول من واصل استجواب ابن بسيط.

«ألم يقل أبو زيد شيئًا حول رد فعل الحمراء؟».

قال ابن بسيط، ناظرًا نحو الشيخ فى اندهاش: «بل فعل، قال الكثير بعدها بيومين».

سألت زبيدة: «حول ماذا؟».

«بلغ الغضب من الكونت كل مبلغ، حتى أنه عرض مكافأة، ألف قطعة ذهبية مقابل زهير بن عمر. كما أنه يعد قوة لسحقنا إلى الأبد، ولكن أبا زيد لا يساوره أى قلق، فلديه خطة. يقول: إن المكان الذى سيأخذنا إليه لن يكون حتى بمقدور الشياطين أن تصل فيه إلى زهير».

قال عمر: «هذا حديث شيطان من الشياطين».

قالت زبيدة، وهى تنظر إلى الغبار على وجه الشاب وإلى ثيابه: «اذهب واستحم، أظن أن ثياب زهير سوف تكون مناسبة لك، ثم تناول الغداء معنا، سوف تُعد لك غرفة ويمكنك أن تقيم بيننا قدر ما تشاء».

«أشكرك يا سيدتى، سوف أستحم وأتناول معكم الغداء بكل

سرور. ولكن للأسف، لا يمكننى السماح لنفسى بترف الاستراحة. معى رسائل لابد من أن أوصلها إلى جيوچار، وعند الغروب لابد من أن أكون فى لانجارون، حيث ينتظرنى أبى. لماذا يبدو عليكم القلق؟ زهير حى، وهو بخير. أنا نفسى مقتنع بأننا سوف نسترد غرناطة منهم خلال ستة شهور».

لم يسمح الزنديق لهذه المحادثة أن تستمر أكثر من ذلك. غمغم قائلاً: «يا عزيزى ابن بسيط، لسان الحكيم فى قلبه، ولسان الأحمق فى فمه، الخدم بانتظارك لخدمتك فى الحمام أيها الشاب».

اصطحب يزيد ضيفهم إلى الحمام، قال وهو يشير لصديق زهير نحو الحمام: «استمتع بحمامك يا ابن بسيط»، ثم أسرع إلى المطبخ حيث كان القزم وأميمة وكل خدم المنزل الآخرين مجتمعين، وأخذ يكرر عليهم، وهم منتبهون، حكاية مبارزة زهير، كلمة كلمة، ومقتل دون الونزو.

قالت أميمة: «حمدًا لله على أن سيدنا الصغير بخير».

تبادل الخدم النظرات فيما بينهم، لكنهم لم يقولوا شيئًا فى حضور يزيد. استولت الحماسة التى علت وجه يزيد على العاملين بالمطبخ، حتى أكثرهم تهكمًا وتشككًا، وعندما غادر يزيد المطبخ فقط، أعلن الطباخ مشاعره:

«بنو هذيل يسعون إلى موتهم والنهاية لن تتأخر أكثر من ذلك، لن يدعهم خيمنيث يعيشون فى سلام».

تدخلت أميمة قائلة: «ولكن لا شك فى أن قريتنا ستبقى آمنة؟ فنحن لم نؤذ أحدًا».

هز القزم منكبيه، قائلاً:

«ذلك ما لا أعلمه، ولكننى لو كنت مكانك يا أميمة لذهبت لأخدم السيدة كلثوم فى إشبيلية. من الأفضل ألا يولد طفلك فى الهذيل».

تبدل لون وجه المرأة الشابة.

«القرية كلها تعرف أنك تحملين مُهرًا من زهير».

استقبلت ملاحظته بنشاز فج من الضحكات، وكان ذلك كله أكثر من أن تحتمله أميمة التى انطلقت خارجة من المطبخ باكية. مع ذلك لم تستطع إلا أن تفكر فى أن القزم قد يكون محقًا فى نهاية الأمر. سوف تطلب من السيدة زبيدة الليلة أن تأذن لها بخدمة كلثوم فى إشبيلية.

كان يزيد ضائعًا فى عالمه الخاص.. كان فى أجمة الرمان، يتظاهر بأنه فارس موريسكى. لم يكن سيفه إلا عصا، شحذ طرفها بسكينه، السكين الذى أعطاه له زهير فى عيد ميلاده العاشر، ويضعه فى حزامه بتباهٍ كلما جاء زائرون إلى المنزل. كان يجرى هنا وهناك بسرعة جنونية، ملوحًا بسيفه الزائف قاتلاً كل رمانة فى متناول يده. سرعان ما سأم خيالاته وجلس على العشب، فتح ثمرة من ثمار الرمان المهزومة وأخذ يشرب عصارتها، ويتفل بذورها الممضوغة بعد كل قضمة.

«أتدرين ما الأمر يا هند؟ أظن أن زهيرًا سوف يموت. أبى وأمى يظنان الشىء نفسه. أستطيع أن أعرف من نظراتهما حين كان ابن بسيط يحكى لهما عن المبارزة. أتمنى لو أن أمى سمحت لى بالذهاب معك. لم أركب قاربا من قبل، ولا عبرت البحر، ولا رأيت مدينة فاس. يقولون: إنها تشبه غرناطة تمامًا».

توقف يزيد فجأة، بدا له أنه سمع وقع أقدام، وحفيف نبات الوزال المحيط بالأجمة. منذ أن فاجأته أميمة والجاريتان الأخريان فى ذلك اليوم أصبح أكثر حرصا وحذرا من المتطفلين. تمنى لو أنه لم ير أبدًا ابن داوود وهند يتبادلان القبلات. لو أنه لم يخبر أمه لما تحدثت إلى هند فى الأمر، ومن يدرى، ربما كان الزواج قد تأجل. وربما كانت هند ما زالت هنا. كان زفافهما على درجة كبيرة من الغرابة. تم دون ولائم أو احتفالات أو عروض ألعاب نارية. لم يحضره إلا القاضى القادم من القرية، وأفراد

الأسرة. ضحك عندما تذكر أنه كاد يوقع المصحف الشريف على رأس ابن داوود، مما جعل، حتى القاضى يبتسم. تفوق القزم على نفسه فى ذلك اليوم. كان مذاق الحلوى على نحو خاص، وكأنها طهيت فى الفردوس.

رحلت هند بعد ثلاثة أيام. كان وقتًا للحزن، غير أن هندًا أمضت معه وقتًا أكثر مما أمضته مع ابن داوود. خرجا فى نزهات سير طويلة. أرته المخابئ المفضلة لديها فى الجبل، وبجوار النهر، وتحدثت إليه بجدية كعهدها دائمًا.

قالت له فى اليوم السابق على رحيلها: «كنت أتمنى لو أنك أتيت معى لمدة، تمنيت ذلك حقًا. إننى لا أتركك أنت، ولكنى أترك هذا المنزل. لا أحتمل فكرة العيش هنا مع ابن داوود. يجب أن نعيش حيث يشعر هو بالارتياح وبالسيطرة على المحيط الخاص به. هذا منزل أبى، ومن بعده سوف يكون منزل زهير ومنزلك ومنزل أبنائكما. إنك تفهمنى، أليس كذلك يا يزيد؟ إننى أحبك أكثر من ذى قبل، وسوف أفكر فيك دائمًا. وربما نستطيع فى العام القادم أن نأتى للزيارة، وعندئذ يمكننا أن نأخذك معنا لشهر أو اثنين».

لم يكن لدى يزيد الكثير ليقوله ردا عليها. اكتفى بأن شدد قبضته على يدها وهما يسيران عائدين إلى المنزل. لم يرغب يزيد فى التفكير بهذا أكثر من ذلك، فكان مرتاحًا تمامًا للمقاطعة.

«آه! إنه السيد الصغير نفسه. ماذا بحق الله تفعل هنا بمفردك؟».

كان الصوت الكريه المألوف هو صوت الوكيل الأساسى لأعمال أبيه عبيد الله. وهو تمامًا، كما كان أبوه من قبله، يحتفظ بسجل لكل صفقة ومعاملة تجارية تحدث فى الضيعة. يعرف مساحة الأرض التى يملكها عمر بالضبط، ومقدار الإيجارات المستحقة له وفى أى قرية، والقيمة المحددة من المال العائد من بيع الفاكهة المجففة العام الماضى، وكم يبلغ القمح والأرز المخزونين فى صوامع تحت الأرض، ومواقعها على وجه التحديد.

لم يكن يزيد يحب عبيد الله. لم ينخدع الصبى بالمرة بما كان يبديه الرجل من نفاق فج، أو إظهار عاطفة غير حقيقية.

أجابه يزيد ببرود، وهو ينهض ليقف بأقرب طريقة لسلوك الكبار يمكنه إتقانها: «كنت أتنزه قليلاً، والآن سأعود للمنزل لتناول الغداء. وأنت يا عبيد الله؟ ما الذى أتى بك إلى المنزل فى هذا الوقت؟».

«أعتقد أنه من الأفضل تقديم إجابة هذا السؤال للسيد مباشرة. أيمكننى أن أسير معك إلى المنزل؟».

«تفضل»، أجابه يزيد وهو يعقد يديه خلف ظهره ويخطو عائدا نحو المنزل. لقد سمع "آمه" آلاف المرات تقول: إن عبيد الله محتال ولص، وأنه ظل يسرق الأرض والطعام والمال من الضيعة لعشرات السنين، حتى فتح لابنه ثلاثة متاجر من تلك السرقات؛ اثنان فى قرطبة وآخر فى غرناطة. فكر ألا يتحدث للرجل لبقية الطريق، ولكنه غير رأيه.

تحدث يزيد بتلك النبرة الفريدة المتعالية لأقصى حد لملاك الأرض: «قل لى يا عبيد الله، كيف حال متاجر ابنك؟ قيل لى: إن المرء يمكنه أن يبتاع كل وسائل الترف منها».

فوجئ الوكيل المسن بالسؤال، وفكر فى نفسه قائلًا: ذلك الجرو الصغير الوقح. لابد أنه التقط شيئًا من تلك النميمة الهائلة التى يجرى تداولها فى المطبخ، فعمر بن عبد الله لن يتدنى إلى مناقشة مثل هذه الشئون على مائدته، أما صوت عبيد الله فقد أبدى تملقًا ومداهنة بلغت حد العبث.

«كم هو لطيف منك أن تفكر بابنى، يا سيدى الصغير. إنه على ما يرام، بحمد الله، ثم بفضل أسرتكم بالطبع، فقد كان أبوك هو الذى أنفق على تعليمه، وأصر على أن يجد له عملاً بالمدينة. إنه دين لا يمكن الوفاء به أبدًا. قيل لى: إنك قارئ نهم للكتب يا سيدى الصغير. كل أهل القرية يتحدثون فى ذلك، فأقول لهم: «انتظروا قليلاً، وقريبًا سوف يبدأ بن عمر فى تأليف كتب العلم».

ودون أن ينظر نحو الرجل، ابتسم يزيد فى امتنان للملاحظة، وإن لم يؤثر هذا الإطراء فيه بالمرة.

لم يكن ذلك لأن يزيد لا يثق فى عبيد الله فحسب، ففى هذه الناحية كان الصبى يشبه كثيرًا أباه وأمه. تتدفق كلمات المديح من فمه كأنها الماء من النبع. كان حسًا وراثيًا بالفخر والاعتداد بالنفس، أو شعورًا بأن بنى هذيل متميزون بحكم الطبيعة، بحيث يكونون فى غنى عن أى استحسان أو محاباة من أحد. وبالنسبة ليزيد، مثل أبيه وجده من قبله، فإن كعكة قمح محلاة بشراب التمر يقدمها له فلاحٌ فقير، تعنى له أكثر بكثير من أوشحة الحرير التى يغدق بها عبيد الله وابنه على سيدات الدار. كان معنى الهدية بالنسبة لمقدمها هو ما يحدد موقفهم منها.

كان عبيد الله ما زال يدمدم ويغمغم، غير أن الصبى توقف عن الإنصات. لم يكن يصدق أى شىء من هذا الهراء، ولكن كونه أرغم عبيد الله على التحدث إليه كما كان يخاطب زهيرًا، جعله يشعر بشىء من النصر. عندما اجتازا البوابة الكبرى، المعروفة فى القرية باسم مشيدها «باب الفريد». أحنى عبيد الله رأسه نصف انحناءة. أبدى يزيد امتنانه لهذه اللفتة بإيماءة ضئيلة، لا تكاد تُلحظ، بينما اتجه كلاهما فى طريقه، مفترقين.

هرع الرجل المسن نحو المطبخ. حافظ الصبى على وضعيته الجسدية ولم يسترخ حتى دخل المنزل.

همست أميمة فى أذنه أمام غرفة الطعام: «أين كنت؟ لقد تناول الآخرون كلهم طعامهم».

تجاهلها يزيد واندفع داخل الغرفة. كان أول ما لاحظ هو غياب ابن بسيط، مما أحبطه. تهدلت ملامح وجهه. ظهرت على سيماه نظرة شاردة، وهو يلعب بأصابعه فى ميدالية تركتها له هند تذكارا لحبها. بداخل الميدالية، خصلة من شعرها لها سواد الليل.

«هل ذهب يا أبى؟».

أومأ أبوه بالإيجاب وهو يتناول حبة عنب داكنة الحمرة من صينية فضية متخمة بالفاكهة. قدمت له زبيدة بعضًا من الخيار المطبوخ فى مائه، مع صحن من الزبدة المصفاة، والفلفل الأسود، وبذور الشطه الحمراء. أكل بسرعة ثم تناول سلطة الفجل والبصل والطماطم المنقوعه فى الزبادى، وعصير الليمون الطازج.

«ألم يقل ابن بسيط شيئًا آخر؟ هل ألمح لكم متى سيزورنا زهير؟».

هزت زبيدة رأسها نافية.

«لا يعرف اليوم بالتحديد، ولكنه يظن أن ذلك سيكون فى القريب العاجل. والآن، هلا تناولت بعض الفاكهة يا يزيد؟ سوف تعيد اللون لوجنتيك».

حين دخل الغرفة أربعة من الخدم لرفع المائدة، انحنى أكبرهم سنا وهمهم ببضع كلمات بالقرب من أذن سيده. ظهرت نظرة ازدراء على وجه عمر. «ماذا يريد فى هذه الساعة؟ خذه إلى غرفة مكتبى وابق هناك معه حتى أحضر».

سألت زبيدة: «عبيد الله».

أومأ عمر بوجه مغتم، ابتسم يزيد وحكى عن لقائه بالوكيل.

«هل صحيح يا أبى أنه يملك من الأرض بقدر ما تملك أنت؟».

جعل هذا السؤال عمر يضحك.

«لا أظن، ولكننى لست الشخص المناسب لسؤاله عن ذلك. من الأفضل أن أذهب وأرى ماذا يريد هذا المحتال، فليس من عادته أن يتطفل على فى الوقت الذى أتهيأ فيه لبعض الراحة».

بعد أن غادرهما عمر، سارت زبيدة ويزيد إلى الباحة الداخلية يدًا بيد مستمتعين بشمس الشتاء. لاحظت نظرة عينى يزيد نحو شجرة الرمان، الشجرة نفسها التى قضت "آمه" تحتها كثيرًا من أيام الشتاء.

«هل تفتقدها كثيرا يا صغيرى؟».

لم يزد جوابه عن الضغط بقبضته على يدها. انحنت وقبلت وجنتيه ثم عينيه.

«كلنا سنموت ذات يوم يا يزيد، وذات يوم سوف تراها مرة أخرى».

«أرجوك يا أماه! أرجوك لا تبدئى ذلك، إن هندًا لم تؤمن أبدًا بكل تلك الأمور الخاصة بالحياة فى السماء، ولا الزنديق، ولا أنا».

كبحت زبيدة ابتسامتها. هى أيضًا غير مؤمنة بذلك، ولكن عمر كان قد حظر عليها حق نقل أى من تلك الأفكار المارقة إلى الأطفال. فكرت فى نفسها قائلة: حسن! عمر لديه زهير وكلثوم ليؤمنا بما يؤمن به، وأنا لدى هند وصغيرى يزيد.

سألها مناشدًا: «أمى، لمَ لا نذهب جميعًا ونعيش فى فاس؟ لا أقصد أن نعيش فى المنزل نفسه مع هند وابن داوود، ولكن فى منزل خاص بنا».

«لن أستبدل هذا المنزل ولا الجداول والأنهار التى تروى الأرض، ولا القرية ولا من يعيشون بها، أى مدينة أخرى فى العالم كله، لا قرطبة ولا غرناطة ولا حتى فاس، وإن كنت أفتقد هندًا قدر افتقادك لها تماما. كانت صديقة لى أنا أيضًا يا يزيد، ولكن، كلا! لا شىء يعوضنى عن كل هذا»... «السلام عليك أيها الزنديق!».

«وعليك يا سيدتى، وعليك يا يزيد بن عمر».

سار يزيد مبتعدا!

شرعت زبيدة تقول: «إلى أين...؟».

«إلى البرج، سأستريح هناك وأطالع كتبى».

رنا الزنديق فى محبة نحو ظهر الصبى الذى سرعان ما اختفى.

«لهذا الصبى نصيبٌ من الذكاء يُخجل كثيرين من كبار السن، ولكن شيئا فيه قد تغير يا سيدتى، أليس كذلك؟ ما السر؟ يبدو يزيد بن عمر وكأنه فى حالة حداد دائم. أهى أميرة؟».

وافقته زبيدة، «يساورنى شعورٌ بأن هذا الصبى يعرف كل شىء. كما

قلت تماما، إنه يعرف أكثر مما يعرف كثيرون يفوقونه سنًا وحكمة. أما عن اعتلاله هذا، فأعتقد أننى أعرف السبب. كلا، لم يكن موت أميرة، رغم أن ذلك قد أزعجه أكثر مما كان يود أن يعترف. بل هى هند. فمنذ رحيلها، غاب البريق عن عينيه. ينفطر قلبى حين أرى عينيه حزينتين ذابلتين هكذا».

«الأطفال يفوقوننا قدرة على التكيف يا سيدتى».

واصلت زبيدة: «ليس هذا الطفل، فهو يجد صعوبة كبيرة فى تجاوز ألمه. يعتقد أن إظهار عواطفه ليس من علامات الرجولة. كانت هند محل ثقته الوحيدة، يفضى إليها بمخاوفه ومباهجه وأسراره. كان يخبرها بكل شىء».

أوشك العجوز أن يقدم لها نصيحة حين ظهر عمر فقطع ذلك.

«السلام عليك أيها الزنديق» ابتسم العجوز، بينما كان عمر يقول لزوجته فى مزاج مرح: «لن تستطيعى أبدا أن تخمنى ما الذى دفع عبيد الله لطلب رؤيتى».

«ألم يكن بشأن المال؟».

قال الزنديق: «هل يكون ظنى صحيحا إن قلت: إن وكيلنا الموقر يعانى أزمة ضمير فى شئون روحية ودينية؟».

«لا فض فوك أيها العجوز. لا فُض فوك! نعم، تلك هى مشكلته تمامًا. لقد قرر أن يتحول، وأتى يطلب إذنى ومباركتى. قلت له محذرا: «يا عبيد الله، أتدرك أنك سوف تضطر للاعتراف بكل آثامك لأحد الرهبان قبل أن تقبل الكنيسة ضمك؟ كل آثامك يا عبيد الله! وإذا ما اكتشفوا أنك تكذب، سوف يحرقونك فوق الخازوق لأنك مسيحى زائف». ورأيت كم أخافه هذا؟ واحتسب فى عقله عدد جرائمه التافهة التى يمكن للكنيسة أن تكتشفها، ثم قرر أنه فى مأمن. سوف يذهب إلى غرناطة الأسبوع القادم وسوف يجتاز هو وابنه المأفون الطقوس الوثنية ويصبحا مسيحيين، دما من دمائهم ولحما من لحمهم، ينشدون الخلاص بالتعبد لصور رجل ينزف على قطعتى خشب. أخبرنى بأمر أيها الزنديق،

لماذا دينهم موسوم إلى هذه الدرجة بالأضحيات البشرية؟».

أوشكت أن تبدأ مناقشة شاملة حول فلسفة المعتقد المسيحى، ولكن قبل أن يتمكن العجوز من الجواب مزقت صرخة الهواء. نزل يزيد ركضًا إلى الباحة متقطع الأنفاس وقد تضرج وجهه بالحمرة من فرط الجهد.

«جنود! مئات الجنود، يحيطون مثل حلقة بالقرية وبالمنزل، تعالوا وانظروا».

تبع كلٌ من عمر وزبيدة الصبى عائدين نحو البرج. أما الزنديق، وقد بلغ من الكبر ما يمنعه من تسلق الدرج، فقد جلس على مقعد طويل تحت شجرة الرمان وهو يتنهد حسرة.

غمغم لنفسه قائلاً: «كان مستقبلنا هو ماضينا».

لم يخطئ يزيد، فقد كانوا محاصرين، مأسورين فى شرك مثل ظبى تم صيده. حين أجهد عمر عينيه أمكنه أن يتبين الرايات المسيحية، وكذلك الجنود الذين يحملونها. كان هناك رجل على صهوة جواده يتحرك هنا وهناك من كتيبة جنود إلى أخرى، من الواضح أنه كان يلقى إليهم بالأوامر. كان يبدو شابًا للغاية، لا ريب أنه القائد.

قال عمر: «لابد من أن أذهب إلى القرية فى الحال، سوف نركب خيولنا لنلاقى هؤلاء الرجال ونسألهم ماذا يريدون منا».

قال يزيد: «سآتى معك».

«لابد أن تبقى بالمنزل يا بُنى. فلا أحد هنا غيرك يحرس أمك».

عندما نزل عمر من البرج وجد كل خدم الدار من الذكور متجمعين بالباحة الخارجية، مسلحين بالسيوف والرماح. كانوا ستين رجلا فقط، تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والخامسة والستين، ولكن حين رآهم واقفين هناك بانتظاره سرت فى بدنه موجة من الحماسة. كان هؤلاء خدمه وهو سيدهم، ولكن فى وقت الشدائد فإن ولاءهم له يتجاوز كل شىء آخر.

كان بوسعهم أن يسمعوا من بعيد جوقة الكلاب النابحة، وقد أحست الكلاب أيضًا أن أمرًا سيئًا يحدث. فى البداية لم يكن أحد مشغولا بعمله. الرجال والنساء الذين يكدحون فى الحقل كل يوم من شروق الشمس حتى مغيبها ركضوا هاربين لدى رؤية الجنود. امتلأت شوارع القرية الصغيرة بالناس ولكن الحوانيت أغلقت. المرة الأخيرة التى شهد فيها عمر مشهدًا كهذا كان يوم وفاة أبيه حين ألقى به حصان من فوق متنه. فى ذلك اليوم أيضًا توقف كل عمل ونشاط. تبع الناس الجثمان فى صمت حين حُمل إلى المنزل.

تم تبادل بعض التحيات، غير أن الوجوه فضحت الخوف والتوتر. كان ذلك الخوف الذى تولده الحيرة وانعدام اليقين. كان خوان النجار يجرى صوبهم.

قال بصوت ساخط: « يوم ملعون يا سيدى، يوم ملعون. لقد أرسل أمير الظلام شياطينه لملاحقتنا والقضاء علينا».

وثب عمر عن جواده واحتضن خوان.

«لماذا تتحدث على هذا النحو يا صديقى؟».

«لقد عدتُ للتو من معسكرهم. عرفوا أننى مسيحى فأرسلوا فى طلبى. طرحوا على كل أنواع الأسئلة: هل أعرف زهير الفحل؟ هل أعرف عدد رجال القرية الذين يحاربون إلى جانبه فى البوچارا؟ هل كنت أعرف أنهم قتلوا دون ألونزو غيلة عندما أدار لهم ظهره؟ رددتُ على ذلك السؤال الأخير بأن الرواية التى سمعتها مختلفة عن ذلك. عندئذ اقترب منى قائدهم، وعيناه تقدحان شررًا وصفعنى على وجهى، قائلا: «أنت مسيحى؟» أجبته بأن عائلتى لم ترتد عن المسيحية أبدًا، وأننا كنا نقيم فى قرية الهذيل منذ تأسيسها، ولكن أحدا لم يوح بأن علينا أن نتحول إلى دين النبى محمد، ولطالما عشنا فى أمان. ثم قال لى: «هل تفضل البقاء معهم أم أن تأتى وتعيش بيننا؟ لقد أعددنا كنيسة صغيرة هناك فى

الملك الخيمة، وهناك قس يمكنه تلقى اعترافاتك». قلت: إننى يسعدنى الاعتراف للقس، ولكننى أرجو أن أبقى فى المنزل الذى ولدت فيه وولد فيه أبى وجدى من قبلى، فضحك من قولى. كانت ضحكته غريبة، وعلى الفور تبعه فى ذلك الشابان اللذان كانا على جانبيه. قال: «لا تتجشم عناء الاعتراف، عد إلى كفارك».

قال عمر: «إذا أرادوا استجواب أى شخص عن زهير فيتوجب عليهم أن يتعاملوا معى، سأذهب وأقابلهم».

صاح صوت آخر متوسلا: «كلا! هذا ما يجب ألا تفعله تحت أية ظروف، لقد كنتُ فى طريقى إلى المنزل لأتحدث إليك».

كان ذلك هو ابن حصد الإسكافى، الذى يعتبر بحكم الدم شقيق ميجيل وعم عمر، ولكنها كانت المرة الأولى التى يتحدث فيها بصفته عضوا فى العائلة. رفع عمر حاجبيه كأنما ليسأل عن السبب وراء توجيه مثل هذا الأمر القاطع.

«السلام عليك يا عمر بن عبد الله. ولكن ابن حارثة الحداد عاد لتوه. لقد جروه جرًا هذا الصباح ليعتنى بحدوات خيولهم التى تحتاج إلى إصلاح. لم يسمع شيئًا محددًا، ولكن عينى القائد الشاب أثارتا ذعره. يقول: إنه حتى الجنود المسيحيين يخشونه وكأنه الشيطان ذاته».

واصل خوان قائلاً: «كما أن الملعون عبيد الله اصطحب خمسة عشر قرويًا معه إلى معسكرهم، ويمكن للمرء أن يتخيل الأكاذيب التى قد يلفقها لينجو بجلده. لابد من أن تعود للمنزل يا سيدى، وأن تحكم إغلاق البوابة حتى ينقضى هذا البلاء».

أجاب عمر بنبرة لا تحتمل معارضة: «سأبقى فى القرية، وسوف ننتظر عودة عبيد الله ليخبرنا بمطالبهم. عندئذ، إذا استدعى الأمر، سوف أذهب إليهم وأتحدث إلى ذلك القائد بنفسى».

الفصل الثالث عشر

لم يترجل القائد أحمر الرأس حليق الذقن. لماذا لا يزال على صهوة جواده؟ كان السؤال يلح على عبيد الله. لقد زوده عمله خلال الخمسين سنة الأخيرة، متصرفًا فى الأملاك والبشر، بخبرة يندر وجودها، ومعرفة لا يمكن للكتب فقط أن تقدمها. أصبح مراقبًا ثاقب النظرة للطبيعة البشرية. لقد لاحظ أن القائد مغضوب عليه من خالقه بعاهة. كان طول قامته -وهو أمر غير ذى شأن بالنسبة لجندى- لا يتوافق بالمرة مع ميوله العنيفة. كان قصيرًا وممتلئا، ولم يتجاوز السادسة عشر عامًا على الأكثر، وكلها حقائق وجد عبيد الله أنه لا يمكن تعويضها إلا بما يساويها من مهارات الضابط العسكرية.

وما أن اطمأن إلى تكهناته، خر عبيد الله جاثيًا على ركبتيه أمام قائد المسيحيين. أثار فعل امتهان النفس هذا اشمئزاز القرويين الذين كانوا قد اصطحبوه. وتمتم واحد منهم من بين أسنانه: «يا ذنب الخنزير!» غير أن عبيد الله لم ينشغل برد فعل هؤلاء. لقد جعل القائد القصير يشعر بأنه أطول قامة، ولا شىء عدا ذلك كان مهما فى ذلك اليوم. كانت سنوات الخدمة لدى أسياد بنى هذيل قد أعدت هذا الوكيل إعدادًا طيبًا للمهمة التى يسعى لإنجازها الآن.

تساءل القائد بصوت حاد: «ماذا تريدون؟».

«سيدى، لقد أتينا لنبلغك بأن القرية كلها مستعدة للتحول هذا اليوم نفسه، كل ما نطلبه من سيادتك هو أن ترسل لنا قسًا وأن تشرف القرية بحضورك».

فى البداية لم يكن هناك جواب إلا الصمت. لم يحرك القائد ساكنا، لم نظر للأسفل بعينين لهما لون داكن الزرقة وجفنان ثقيلان إلى الكائن الجالى أمامه. كان القائد قد بلغ السادسة عشرة لتوه، غير أنه كان محنَّكًا فى حروب الإخضاع والاسترداد، تلقى المديح والاستحسان على شجاعته خلال ثلاث معارك فى البوجارا، كما لفتت جسارته الوحشية إليه أنظار رؤسائه.

رد بسرعة على عبيد الله: «لماذا؟».

«لا أفهم يا سيدى!».

«لماذا قررتم الانضمام إلى الكنيسة الرومانية المقدسة؟».

أجاب عبيد الله، الذى لم يُعرف عنه أبدًا القدرة على التمييز بين الحقيقة والزيف: «لأنه السبيل الوحيد للخلاص».

«تقصد أنه السبيل الوحيد للنجاة بحياتكم».

بدأ الوكيل المسن قائلاً: «كلا، كلا يا مولاى، نحن الأندلسيين نحتاج وقتًا طويلاً لكى نقرر أى شىء، وتلك ثمرة مئات السنين تحت سلطة حكامنا الذين يقررون لنا كل شىء. كانوا يتخذون القرارات لنا فى كل الشئون ذات الأهمية، والآن بدأنا ببطء شديد نتدبر أحوالنا، ونتوصل إلى آرائنا، ولكن ليس من السهل على المرء أن يتخلى عن عاداته القديمة. إننا نقرر بأنفسنا، ولكننا نأخذ وقتًا طويلاً حتى نتبين...».

«كم عددكم هناك فى القرية؟».

«عند التعداد الأخير كنا أكثر قليلا من ألفين».

«حسن جدا! سوف أفكر فى الجواب الأنسب على عرضكم، تستطيعون العودة إلى قريتكم، وأن تنتظروا قرارنا».

وبينما كان عبيد الله على وشك النهوض، رشقه القائد بسؤال آخر، فعاد الوكيل على ركبتيه من جديد.

«هل صحيح أن هناك راية قديمة مرسوم عليها مفتاح أزرق على خلفية فضية، وعليها لغو بلسانكم، ما زالت معلقة فى قصر ابن فريد؟».

«صحيح يا مولاى. لقد كانت هدية من ملك إشبيلية لواحد من الأسلاف البعيدين لابن فريد. الكتابة العربية عليها تقول: «لا غالب إلا الله».

«المفتاح يرمز إلى فتح الغرب، أليس كذلك؟».

«لست متأكدًا من هذا يا مولاى».

قال القائد بنبرة بلغت الحد الأقصى من اللامبالاة والعجرفة، موحيًا بأنه لا يرجو أن تطول هذه المحادثة لأكثر من ذلك: «لست متأكدا؟ ولكننى متأكد. يرغب سيادة رئيس الأساقفة فى الاطلاع عليها بعينيه. قم بإبلاغ عائلة ابن فريد بأننى سوف آمر بهم لأتسلم الراية. يمكنكم الذهاب الآن».

بعد أن انصرف عبيد الله والآخرون، اتجه القائد وهو ما زال على متن حصانه نحو ضابطين كانا يستمعان من مسافة، وأمرهما بجمع كل الجنود. كان يريد أن يخاطبهم قبل أن يقتحموا القرية.

بعد أن تجمع الرجال راح القائد يتحدث إليهم بنبرة ودودة ولكنها رسمية وآمرة.

«هدفنا بسيط. ستقومون بمحو هذه القرية من الوجود بكل ما فيها. تلك هى أوامرى. لا يوجد فى القرية أكثر من ستمائة أو سبعمائة من الرجال الأشداء، وليس من المحتمل أن يظهروا ولو مقاومة رمزية. إنها مهمة غير سارة، ولكن الجنود لا يتم تدريبهم ليكونوا طيبين وودعاء. كانت أوامر رئيس الأساقفة واضحة كل الوضوح. غدًا صباحًا ينتظر نيافته أن يأمر راسمى الخرائط أن يزيلوا الهذيل من الخرائط الجديدة التى يعدونها. أهذا واضح؟». انبعثت صيحة من قلب الحشد: «كلا!».

«تقدم يا رجل».

ظهر جندى طويل رمادى اللحية فى أوائل الخمسينات من عمره، قاتل أبوه تحت راية ابن فريد، تقدم إلى الصدارة ثم وقف فى مواجهة القائد.

«ماذا تريد؟».

«أنا حفيد راهب وابن محارب، منذ متى صار من التقاليد المسيحية فى هذه البلاد أن نقتل الأطفال وأمهاتهم؟ إننى أخبرك هنا والآن بأن هذه الذراع وهذا السيف لن يمتدا لقتل طفل أو امرأة. ولتفعل بى ما شئت».

«من الواضح أيها الجندى، أنك لم تكن معنا فى البوچارا».

«بل كنت فى «الهامة» يا سيادة القائد، ورأيت هناك ما يفوق الوصف، ولن أخوض غمار ذلك من جديد».

«إذن فلقد رأيت نساءهم تصب قدور الزيت المقدوح على رؤوس رجالنا؛ سوف تنفذ ما يصدر إليك من أوامر، وإلا ستتحمل عواقب هذا».

ازداد الجندى عنادا وتصلبًا.

«لقد قلتها بنفسك أيها القائد، إنك لا تتوقع أى مقاومة، فلماذا تأمرنا بقتل الأبرياء؟ لماذا؟».

أجاب القائد، وعيناه تقدحان بالغضب: «أيها الكهل الأحمق! أتريدنا أن نخاطر بأرواحنا؟».

«لا أفهم سيادتك أيها القائد».

«إذا قتلت رجالهم، فسوف يمتلىء النساء والأطفال كراهية عمياء لكل ما هو مسيحى. وإذا أبقيت عليهم سوف يتحولون، ولكن سيكون ذلك سمًا. أتسمعنى؟ سم، يسرى على الدوام تحت جلودنا. سُم يصبح التخلص منه أصعب وأصعب مع الوقت. هل فهمت الآن؟».

هز الجندى العجوز رأسه غير مصدق، ولكن كان من الواضح أنه لن يخضع. كبح القائد ميوله الطبيعية، فلم يشأ أن يحطم معنويات جنوده قبيل خوض المعركة. قرر عدم معاقبة المتمرد.

«أنت معفى من واجباتك. سوف تعود إلى غرناطة وتنتظر عودتنا».

لم يستطع الجندى الكهل تصديق سعد طالعه، وسار إلى حيث

كانت الخيول ترعى، وفك قيد ركوبته.

«سوف أعود»، هكذا كان يحدث نفسه وهو يبتعد عن المعسكر، «ولكن ليس إلى غرناطة، سوف أذهب إلى حيث لا يمكن لك أنت أو رهبانك الملاعين العثور على أبدًا».

كانت البوابات التى تقطع السور المحيط بالمنزل هى النقطة الوحيدة التى يمكن الدخول منها إلى منزل أجداد بنى هذيل، وكان قد تم إغلاقها بكل إحكام. كانت مصنوعة من أخشاب قوية، سمكها أربع بوصات ومدعمة بأشرطة من الحديد، لم يكن لها إلا وظيفة احتفالية إلى حد كبير. لم تكن مشيدة للصمود فى مواجهة حصار، ولم يسبق أن أغلقت من قبل، بما أنه لم تكن للقرية ولا للمنزل أية أهمية عسكرية. كان ابن فريد وأجداده يجمعون الفرسان والجنود تحت إمرتهم من هذه القرية والقرى المجاورة لها، ثم يتجمعون أمام البوابات ويزحفون إلى الحروب فى مناطق أخرى من المملكة.

عندما نقل عبيد الله رسالة القائد حديث السن، ابتسم عُمر ابتسامة متجهمة وقد فهم الأمر. لم يكن ذلك وقت الحركات الاستعراضية التى كانت وراء موت كثيرين من أفراد عائلته من قبل. أمر بأن تنزع الراية ذات المفتاح الفضى على خلفية بحر أزرق عن جدار مستودع السلاح، وأن تعلق على الأبواب.

قال لوكيله: «أهذا هو كل ما يريدونه؟ فلنسهل الأمر عليهم إذن».

التجأ عدة مئات من القرويين إلى ما وراء أسوار المنزل، وقدم لهم الطعام فى الحدائق، وقد ازدحمت الباحة الخارجية بأطفال يلعبون، هانئين بعدم إدراكهم الشر المتربص بهم. لم يسبق ليزيد أن رأى منزلهم على هذا القدر من الازدحام والضجيج. كان منجذبًا للانضمام إلى اللهو، ولكنه قرر أن يعود إلى البرج بدلاً من ذلك.

عرضوا على عبيد الله أن يحتمى بالمنزل مثل الآخرين، غير أنه فضل الرجوع إلى القرية، فقد حدثه شىء بداخله أنه سيكون أكثر أمنًا فى منزله، مستقلاً عن العائلة التى ظل فى خدمتها زمنا طويلاً. غير أن ذلك كان خطأ مأساويًا؛ فبينما كان يسير عائدًا إلى القرية، اعترض طريقه أحد الخيالة. مدفوعًا بتشجيع أصحابه، أشهر هذا الأخير سلاحه واستل سيفه، ووجهه نحو عبيد الله غير المستريب فى شىء. لم يكن لدى الوكيل وقت لأى رد فعل، فما هى إلا ثوان حتى وكانت رأسه، قد فصلت عن جسده تماما، ملقاة تتدحرج على التراب.

كان يزيد يتبع أباه أينما ذهب. أمر عمر للتو بفتح مستودع السلاح وتوزيعه على كل شخص صحيح البدن من الرجال والنساء. أصرت زبيدة أنه كان عليهن أيضًا أن يقاتلن إذ كانت ذكريات مأساة «الهامة» ما زالت مشتعلة فى وعيها.

«لماذا نقعد بلا حيلة ننتظرهم؟ لكى يلوثوا أجسادنا أولًا، ثم يغرسوا سيوفهم فى قلوبنا؟».

ألح صوت يزيد: «أبى! أبى!».

رفعه عمر وقبله، أسعد هذا الإعراب العفوى عن الحنان قلب الصبى، ولكنه ضايقه كذلك، بما أنه كان يجاهد بشدة لأن يكون رجلاً.

«ماذا هناك يا صغيرى؟».

«تعال إلى البرج. الآن».

استشعرت زبيدة اقتراب الكارثة، ورفضت أن تسمح ليزيد بالعودة إلى البرج مع أبيه.

«أحتاج مساعدتك يا يزيد، كيف أستخدم هذا السيف؟».

أفلحت طريقتها فى إلهائه. صعد عمر الدرج وحده. كلما ارتقى كان الهدوء يزداد والصمت يتأكد. ثم رأى المذبحة. البيوت تحترق، كان بوسعه أن يرى الجثث المتناثرة بالقرب من مكان المسجد. لم يكن الجنود

قد أتموا مهمتهم بعد، كانوا متجهين بخيولهم نحو التلال القريبة لملاحقة من حاولوا الفرار. وإذا أرهف عمر السمع خيل إليه أنه يسمع امرأة تنتحب، يقطع صوت عويلها بين لحظة وأخرى عواء الكلاب، ولكن سرعان ما ساد صمتٌ تام. كانت النيران متوهجة، والموت يسرى فى كل موضع. نظر نحو خريطة للقرية كانت على المنضدة مستخدمًا عدسة مكبرة. لم يحتمل، فأسقط العدسة على الأرض وتحطمت، والآن راح عمر بن عبد الله يجفف عينيه.

قال للخادمين اللذين كانا يقومان بالمراقبة: «لا يمكن إصلاح الزجاج إذا انكسر». وقفا فى موضعيهما جامدين مثل تمثالين، يرمقان سيدهما وقد أطبقت عليه الكارثة وتملكه الحزن. تجمعت كلمات المواساة على لسانيهما، غير أنها ظلت حبيسة.

هبط عمر الدرج ببطء. لقد استطلع كل شىء من البرج. لم يعد هناك أى مجال للشك. لعن نفسه لأنه لم يسمح ليزيد بالذهاب مع أخته. حين بلغ الفناء الأمامى لم يكن فى انتظاره إلا صمت رهيب. الأطفال توقفوا عن اللعب، لا مزيد من تناول الطعام. جمد كل شىء فى موضعه، إلا من الضجيج المتقطع للحداد يشحذ السيوف. لقد رأوا كلهم القرية وهى تحترق، وجلسوا الآن على الأرض، يراقبون ألسنة اللهب وهى تمتزج بأشعة الشمس الغاربة فى الأفق البعيد. لقد ضاع كل شىء، منازلهم وماضيهم وأصدقاؤهم ومستقبلهم. انطلقت صيحة من البرج فقطعت المراقبة الصامتة.

«المسيحيون على الأبواب!».

هب الجميع يتحركون، تم إرسال النساء المُسنات والأطفال إلى الحمامات الخارجية، وانتحى عمر بالقزم جانبًا.

«أريدك أن تأخذ يزيد وتخفيه فى صوامع الغلال، وأيًا كان ما يحدث، لا تدعه يخرج إلا بعد أن تتأكد من أنهم ذهبوا. اذهبا فى رعاية الله».

رفض يزيد أن يفترق عن والديه، وأخذ يتجادل مع أبيه، ويتوسل إلى أمه. قال وهو يلوح بالنصل الذى أعده له الحداد: «انظر! أستطيع استخدام هذا السيف مثلك تمامًا».

كانت تضرعات زبيدة هى ما أفلح أخيرًا فى تحريكه لمرافقة القزم. كان مصرا على أن يأخذ معه مجموعة قطع الشطرنج الخاصة به، وعندما حصل عليها، أخذ القزم يده واقتاده نحو الحديقة المنسقة. وراءها، أسفل السور تمامًا، كانت هناك مجموعة من الأشجار والنباتات من كل نوع ولون، وبالقرب كان مقعد خشبى صغير، مموه بعناية وراء دائرة من شجيرات الياسمين. عندما رفع القزم المقعد ارتفع معه الحجر الذى يستقر عليه.

«انزل يا سيدى الصغير».

تردد يزيد لثانية والتفت نحو المنزل، ولكن القزم لكزه بمرفقه فشرع يهبط الدرج الصغير. تبعه القزم، وأعاد الغطاء لموضعه من الأسفل. فى تلك الأقبية المظلمة كان هناك من الطحين والأرز ما يكفى لإطعام القرية بكاملها لمدة عام. كان ذلك هو احتياطى الطوارئ الخاص بقرية الهذيل، ليتم استخدامه إذا ما جاء المحصول ضئيلاً فى حالة الكوارث المفاجئة. أشعل القزم شمعة، كانت الدموع تنهمر على وجه يزيد.

فوق الأرض، كان كل شىء معدًا لاستقبال الجنود المسيحيين الذين راحوا يستعينون الآن بالقضبان المعدنية المسماة بالكباش لدك الأبواب. وعندما انهارت الأبواب أخيرًا عبر أول الجنود إلى الفناء الأمامى، لكن تلك لم تكن إلا مجموعة استطلاع، ولم يكن قائدهم على رأسهم إن التدمير السريع للقرية، والجثث الساخنة التى داستها خيولهم فى طريقها للمنزل، أعطاهم إحساسًا زائفا بالأمان.

رأوا فجأة فرسانًا موريسكيين، على صهوات الجياد كذلك، يتأهبون للانطلاق عن يمينهم ويسارهم. حاول المقتحمون أن ينطلقوا

عبر الفناء الأمامى إلى الباحة الخارجية، ولكنهم لم يكونوا بالسرعة الكافية، فقد تقدم عمر وفرسانه المترجلون فى وحدة واحدة وهم يصيحون صيحات تُجمد الدماء فى العروق. أبدى المسيحيون، غير المستعدين لأى مقاومة، بُطأً فى الاستجابة، فسقط كل واحد منهم عن جواده مقتولا. ارتفعت صيحات التهليل والتكبير احتفاء بهذا النصر غير المتوقع.

حُملت جثث الجنود الموتى على ظهور خيولهم، وضربت الدواب بالسياط لتخرج من الفناء الأمامى. طال الانتظار قبل المواجهة التالية، وسرعان ما ظهر السبب وراء ذلك. كان الجيش الآتى من غرناطة يوسع الشق فى السور بحيث يمكنهم المرور بثلاثة فرسان جنبًا إلى جنب عبر البوابة.

كان عمر يعرف أن الأمر لن يكون سهلاً فى المرة التالية. حدث نفسه قائلاً: «إنه سقوطنا، ولا أرى الآن غير وجه الموت».

ما أن طافت بعقله هذه الفكرة حتى سمع صوتًا لم ينكسر تمامًا بعد: «لا رحمة للكفار». كان ذلك هو القائد نفسه، على رأس جنوده. لم ينتظروا هذه المرة هجوم الموريسكيين، بل توجهوا مباشرة نحو المدافعين، ونجم عن ذلك مبارزات ثنائية ضارية، جعلت الفناء يدوى بصليل السيوف المتصادمة، والأصوات المكتومة للضربات والسقطات، ممتزجة بالصيحات المتناوبة ما بين: «الله أكبر»، «بحق العذراء المقدسة، بحق العذراء المقدسة!» لم يتمكن رماة السهام، المتمركزون على السطح، من استخدام القوس والنشاب خشية أن يصيبوا قومهم. كان الموريسكيون أكثر عددًا وسرعان ما تحولت مقاومتهم إلى حمام من الدم. مزقت عراقيب حصان عمر وسقط بارتجاج هائل. أخذه الجنود إلى القائد، وحين تفرس كل رجل فى الآخر، برقت عينا القائد بالبغض، أما عمر فكان يتفرس فى الشاب الظافر بفتور.

قال القائد: «ما تراه أمامك هو عقاب الرب».

أجابه عمر: «نعم، أفرغت قريتنا من أهلها، وقتلت النساء والأطفال. أحرقت مساجدنا وخربت حقولنا. يذكرنى أمثالك من الرجال بأسماك البحر التى تلتهم بعضها بعضًا. لن تسترد هذه البلاد رخاءها مرة أخرى. الدم الذى أراه فى عينيك سوف يدمر جانبكم ذات يوم. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

لم يحر القائد جوابًا، بل نظر إلى الجنديين المحيطين بأسيره من الجانبين وأومأ لهما. لم يكونا بحاجة إلى مزيد من الحث. أرغم عمر بن عبد الله على الركوع. عندئذ أطلق رماة السهام، ووجد سهمان هدفيهما فسقط الجنديان اللذان كان من المفترض أن يقتلا عمر. صاح القائد: «أحرقوا هذا المنزل حتى يصبح رمادًا». ثم أمر الجنديين بالتقدم، ولكن عمر كان قد التقط سيفًا من أحد الرجلين الساقطين وعاد يقاتل من جديد.

احتاج الأمر ستة رجال لإعادة السيطرة على سيد بنى هذيل، وهذه المرة تم ذبحه على الفور، وعلقت رأسه على طرف رُمح، وبعد أن تم عرضها فى أنحاء الفناء الأمامى، أُخذت إلى الباحة الخارجية. تصاعد الصراخ والنواح هنا وهناك، تتبعه صيحات الغضب من تصادم السيوف.

ركض أحد الرماة الذين شهدوا موت عمر لإبلاغ زبيدة. طفرت الدموع من عينيها، تناولت سيفًا وانضمت إلى المدافعين فى الباحة بالخارج.

صاحت بالنساء الأخريات: «هيا، لن نسمح لهم بأن يأخذوننا أحياءً!».

كانت دهشة المسيحيين عظيمة عند رؤيتهم النساء يبدين شجاعة كبيرة. ليست هذه كائنات الحريم الهشة المدللة، اللاتى سمعوا عنها الكثير من الحكايات الخرافية. من جديد أصبح عنصر المفاجأة فى جانب نساء الهذيل، فأفلحن فى تقليل عدد جيش القائد بمئة رجل على الأقل.

استسلمن فى نهاية الأمر، ولكنهن قتلن وبين أيديهن السيوف والخناجر. بعد ساعتين من القتال الضارى، انتهى كل شىء، سقط كل المدافعين موتى، النساجون والخطباء، والمؤمنون الصادقون والمنافقون، والنساء والرجال؛ كلهم قاتلوا وقتلوا على مرأى من بعضهم بعضًا. خوان النجار وابن حصد، والمارق الزنديق الذى رفض عرض عمر بالاختباء فى صوامع الغلال، هم أيضًا، استخدموا السيوف لأول مرة فى حياتهم وهلكوا فى المذبحة.

كان القائد ناقمًا لفقده عددا كبير من الرجال. أمر بنهب المنزل ثم إحراقه؛ ولساعة أخرى احتفل الرجال بنصرهم، مخمورين بالدماء، بحفلة جماعية للسلب والنهب. الأطفال الذين كانوا مختبئين فى الحمامات، إما أنهم ذُبحوا أو أُغرقوا، وفقا لأمزجة الجنود المحتفلين، الذين أشعلوا النار فى المنزل القديم وعادوا إلى معسكرهم.

تخلف القائد عنهم مصحوبًا بمساعديه، نزل الآن عن جواده وجلس فى الحديقة، يراقب المنزل المحترق. خلع نعليه ودلى قدميه فى الجدول الذى كان يشطر الحديقة.

«كانوا يعشقون الماء!».

تحت الأرض، لم يطق يزيد الصبر أكثر من ذلك. لقد ساد الصمت منذ مدة طويلة، صمم القزم أن يبقى الصبى، غير أنه أبدى عنادًا وتصلبًا.

همس للعجوز: «ابق أنت هنا أيها القزم، سأذهب لأرى ما حدث ثم أعود.

أرجوك لا تأت معى، أحدنا فقط عليه الذهاب، وإن لم تطعنى فسوف أصرخ».

بالرغم من ذلك لم يتزحزح القزم عن رأيه، فتظاهر يزيد بالإرهاق وعاد للجلوس والهدوء من جديد. وما أن تراخت قبضة القزم عن ذراعه قليلاً حتى فر من بين يديه. قبل أن يتمكن القزم من منعه كان قد

تسلق السلم ودفع الغطاء بما يكفى لينسل من خلاله، وعندما وقف لم ير إلا جثثًا متناثرة والمنزل يحترق. شوش المشهد عقله تمامًا. فقد كل شعور بالخوف وأخذ يجرى نحو الباحة، صارخًا ينادى أمه وأبيه.

جفل القائد من هذه الضجة، وحين ركض الصبى فى الحديقة قبض عليه المساعدان. راح يزيد يرفس وينطح.

«اتركانى! لابد من أن أرى أمى وأبى».

قال القائد لرجليه: «اذهبا معه، ليرى بعينيه قوة كنيستنا».

حين رأى رأس أبيه معلقًا على طرف الرمح، خر الصبى أرضًا وهو يبكى. لم يستطيعوا التقدم أكثر من ذلك لأن الحرائق كانت هائلة، كما كانت الرائحة الخبيثة للجثث المحترقة. لو لم يمسكا بيزيد لاندفع خلال النيران ليعثر على أمه ولالتهمته النيران، وبدلا من ذلك جراه جرًا عائدين إلى القائد، الذى كان يتأهب الآن لامتطاء جواده.

سأله بنبرة مرح: «حسنًا أيها الصبى! هل رأيت الآن ماذا نفعل بالكفار؟».

حدق يزيد فيه وقد شله كمدٌ يعز على الوصف.

«هل أصبت بالخرس أيها الولد؟».

قال يزيد بصوت بعيد وناء إلى حد بعيد: «أتمنى لو أن معى خنجرا، كنت غرسته فى قلبك مباشرة. كم أتمنى لو أننا قبل قرون كثيرة تعاملنا معكم كما تعاملوننا».

تأثر القائد رغمًا عنه، ابتسم متطلعًا نحو يزيد ونظر متدبرًا نحو مرافقيه. استراحا لرد فعله، فلم تعد بهما رغبة فى قتل الصبى.

قال لهما: «أترياني؟ ألم أقل فى وقت سابق اليوم أن الكراهية التى ستبقى فى نفوس الناجين سم يمكنه أن يقضى علينا؟».

لم يكن يزيد ينصت إليه، كانت رأس أبيه تتحدث إليه.

«تذكر يا بنى، لقد افتخرنا دائمًا بمعاملتنا الحسنة للمهزومين.

كان جدك الكبير يدعو الفرسان الذين هزمهم للإقامة فى منزلنا، وتناول الطعام معه، لا تنس أبدًا أننا لو أصبحنا مثلهم فلن ينقذنا شيء».

قال يزيد: «لن أنسى يا أبى».

سأل القائد: «ماذا قلت يا ولد؟».

«هل تود أن تنزل بمنزلنا وتحل ضيفا علىَّ الليلة؟».

أعطى القائد لمساعديه الإشارة التى يعرفانها تمام المعرفة.

فى الأحوال العادية ينصاعان لأوامره فورًا. ولكن كان من الواضح أن الصبى قد فقد عقله. كانت أقرب إلى جريمة وحشية ترتكب بدم بارد، ولذا ترددا. فى نوبة غضب استل القائد سيفه وأقحمه فى قلب الصبى. سقط يزيد أرضًا بذراعين مقعودتين، وأسلم الروح فى الحال. من فمه، كانت تتدفق دماء متقطعة ذات فقاقيع، بينما على وجهه نصف ابتسامة.

اعتلى القائد جواده، ودون أن ينظر نحو ملازميه ركض خارج البوابة.

حل الليل، والسماء التى كانت قبل ساعات قليلة مثل هاوية الجحيم تكتسى الآن زرقة حالكة. ظهر نجمان، وسرعان ما بدأت تملأ صفحة السماء عناقيد كاملة من النجوم. خبت النيران وعمت الظلمة، على النحو نفسه الذى كانت عليه بلا شك قبل ألف سنة، حين كانت الأرض ما تزال برية قفراء دون ديار أو بشر يسكنونها.

جلس القزم على الأرض، بعينين متجمدتين رعبًا، ويزيد بين ذراعيه، متمايلاً برقة للأمام والوراء. كانت دموعه تتساقط على الصبى الميت فتمتزج بدمائه.

كيف حدث أننى بقيت على قيد الحياة وحدى من بينهم جميعًا؟».

راح يكرر عبارته مرات ومرات، لم يدر متى أو كيف غلبه النوم أو متى أعلن فجرٌ ملعون قدوم يوم جديد.

من اللحظة التى أخبر فيها ابن بسيط زهيرًا عن رؤية مئات عديدة من الجنود المسيحيين خارج الهذيل، كاد زهير أن يقتل فرسه عدوًا دون

توقف حتى اقترب من القرية. وسمت وجهه أخاديد عميقة، منحدرة من جانب عينيه حتى حافة شفتيه، وبدت عيناه، التى كانت لامعة السواد، منطفئة جامدة فى فجوتين غائرتين. شهران من القتال أضافا إلى سنوات عمره الكثير والكثير. كانت ليلة صافية وزهير بفرسه يطوى نبات الوزال من تحته، أفكاره بعيدة عن رجاله المقاتلين، تركيزها كله على أسرته وبيته.

هتف: «السلام عليك يا زهير بن عمر!».

ألجم زهير فرسه، رأى واحدا من رسل أبى زيد الجواسيس.

«أنا فى عجلة من أمرى يا أخى».

«أريد أن أحذرك قبل أن تبلغ الهذيل، لم يبق منها شىء يا زهير بن عمر. الجنود المسيحيون يشربون خمر النصر ويحكون لأى شخص يبدى استعدادا للسماع. لقد فقدوا وعيهم الليلة».

قال زهير وهو ينظر نحو البعيد بوجه يخلو من كل تعبير: «السلام عليك يا صديقى. سوف أذهب لأرى بنفسى».

فى غضون خمس عشرة دقيقة كان قد بلغ كهف الزنديق، وهو يتمنى ويبتهل أن يجد الشيخ هناك ليطمئن مخاوفه. وجد الكهف خاويًا، وأوراق الزنديق ومخطوطاته متروكة هناك، مرتبة فى حزم وكأنما صاحبها كان يتهيأ للمغادرة إلى الأبد. استراح زهير لبضع دقائق وسقى الفرس بعض الماء، ثم انطلق من جديد. شد لجام الفرس وهو يلتف حول نتوء على جانب التل متطلعا أمامه فى الاتجاه المألوف. كان نور الفجر الشاحب يضىء الأطلال المتفحمة. راح يعدو بالفرس تجاه المنزل، تحققت أسوأ الاحتمالات. حين رأى من على البعد ما تبقى من خراب وبقايا، كانت الفكرة الأولى هى الانتقام». سوف أطاردهم وأقتلهم واحدا بعد الآخر.

«أقسم أمام الله بحق رأس أخى لأثأرن لهذه الجريمة».

عندما دخل الباحة رأى رأس أبيه مرفوعا فوق رمح غرس فى الأرض. تطلع برقة نحو وجه أبيه. أخذ الرأس إلى جدول الماء وغسل

الوجه والشعر من الدماء، ثم حملها إلى المقبرة وأخذ يحفر الأرض بيديه المجردتين. لم يلحظ فى نوبة اهتياجه رفشًا ملقى على بعد خطوات منه. بعد أن دفن أباه، عاد للباحة فرأى للمرة الأولى القزم يتمايل للخلف، والأمام، ويزيد بين ذراعيه. للحظة، وثب قلب زهير حتى كاد يندفع خارجًا. هل ما زال حيًا فى نهاية الأمر؟ ثم رأى وجه أخيه الساكن، المدمى عند الحواف.

«أيها القزم! أيها القزم! هل أنت حى؟ استيقظ يا رجل!».

فتح القزم عينيه جافلاً. كانت ذراعاه متجمدتين تمامًا مثل جسد يزيد الذى يهدهده بينهما. ما أن رأى القزم زهيرًا حتى أخذ ينوح. ضم زهير القزم إليه وتناول جسد يزيد منه فى رقة. قبل وجنتى أخيه الميت.

«لقد دفنت رأس أبى. فلنُغسل يزيدًا ونرقده ليستريح».

نزعا عن الجسد ثيابه فى رفق وغسلاه فى ماء الجدول، ثم رفعا يزيدًا وأخذاه إلى مقبرة العائلة. عندما أصبح تحت الأرض فقط، وبعد أن أهالا عليه تراب الأرض الطرى انهار زهير وأخذ يصرخ، بعد أن كان قد أبدى رباطة جأش تفوق قدرة البشر. أطلق العنان لآلامه فانهمرت الدموع حارة. بدت السماء وكأنها تمطر فوق قبر يزيد.

تعانق الرجلان ثم جلسا على تلة يغطيها العشب، بالقرب من القبر الجديد.

«أريد أن أعرف كل شىء أيها القزم. كل جزئية صغيرة. لابد من أن أطلع على كل شىء يمكنك تذكره».

«ليتنى مت وبقى يزيد حيًا. لماذا أبقى أنا حيًا؟».

«تسرنى نجاة أى شخص، فلتخبرنى بما حدث».

بدأ القزم يحكى ما لديه دون توقف حتى بلغ الموقف الذى أفلت فيه يزيد، ثم شرع ينوح من جديد ويشد شعره بقوة. مس زهير رأسه.

«أعرف! أعرف! ولكن قضى الأمر».

«لم يكن ذلك أسوأ ما فى الأمر. لقد ترك الغطاء مواربًا وسمعتهم يلتقطونه ويطرحون عليه الأسئلة. كم كنت ستفخر به لو أنك سمعته يرد على قائدهم، أمير الشر هذا الذى عقد العزم على قتلنا جميعا من بداية الأمر».

بعد أن أتم القزم قصته. جلس زهير واضعًا رأسه بين يديه لمدة طويلة.

«لقد انتهى كل شىء هنا. حكموا على قمرنا بالمحاق للأبد. لنرحل من هنا، لم يعد المكان آمنًا».

هز القزم رأسه رافضًا.

«لقد وُلدت فى هذه القرية، وابنى سقط صريعًا هنا وهو يدافع عن قصركم، وأنا أيضًا أريد أن أموت هنا، وأشعر أن موتى لن يتأخر طويلاً. أنت ما زلت شابًا، أما أنا فلم تعد بى رغبة فى الحياة، اتركنى وحدى، دعنى أموت فى سلام».

«أيها القزم، أنا أيضًا ولدت هنا، وقد مات الكثيرون هنا بالفعل. ما الحاجة لأن تزيد عددهم؟ كما أننى سأكلفك بمهمة لا يمكن أن ينفذها سواك. أنا بحاجة إليك».

«أنا فى خدمتك وأنا هنا».

«سأصحبك إلى الساحل لتركب سفينة متجهة إلى طنجة. من هناك ستقصد مدينة فاس وتسأل عن ابن داوود وأختى. سأكتب لها رسالة ويمكنك أن تخبرها بكل ما ترغب فى معرفته منك».

عندئذ بدأ القزم يبكى من جديد.

«ترفق بى يا زهير بن عمر، كيف يمكننى مواجهة السيدة هند؟ بأى لسان ينبغى على أن أقول لها: إننى تركت يزيد يُقتل؟ من القسوة أن ترسلنى إليها. دعنى أذهب إل السيدة كلثوم فى إشبيلية. أما أنت فلابد من أن تسافر إلى فاس وأن تعيش هناك، لن يسمحوا لك بالعيش فى شبه الجزيرة هذه».

«أنا أعرف أختى هندًا جيدًا، أعرفها أفضل مما تدرك هى نفسها. لن تستمع لأحد سواك أيها القزم. ستشعر بالحاجة لشخص من المنزل ليبقى إلى جانبها، وإلا فسوف تصاب بالجنون. ألا تقدم هذا المعروف الأخير لبنى هذيل؟».

علم القزم أنه قد غلب على أمره.

«قال أبى إن هناك بضعة أكياس من الذهب محفوظة دائمًا فى الأقبية تحت الأرض. من الأفضل أن نأخذها معنا، أنتفع بها فى خوض حروبنا، وسوف تأخذ واحدًا منها من أجل الرحلة؛ ولكى تدبر أمورك فى فاس».

ما أن وجدوا الأكياس الجلدية الخمسة التى تحوى العملات الذهبية حتى أسرج زهيرٌ فرسه، وأعد أخرى من أجل القزم. عدل ركابها ليناسب ساقى الرجل القصيرتين. وبينما كانا منطلقين مبتعدين عن المنزل تاركين القرية وراءهما كسر زهير الصمت:

«دعنا لا نتوقف ولا ننظر هناك من جديد، فلنتذكرها كما كانت دائمًا، هل تذكر؟».

لم ينبس الطاهى بجواب، ولم يتحدث بشىء حتى بلغا الجزيرة، المدينة الساحلية. وجدا سفينة مغادرة فى صباح اليوم التالى مباشرة فحجزا، مكانًا عليها من أجل القزم، وبعد بحث قصير عثرا على فندق مريح، قدم لهما غرفة بفراشين. حين خلدا إلى الفراش، تكلم القزم للمرة الأولى منذ مغادرتهما الفناء الأمامى للمنزل فى الهذيل.

«لن أنسى أبدًا النار أو الأنين والصرخات، لا أستطيع أن أنسى تعبير وجه يزيد بعد أن قتله المتوحشون، لذا لا يمكننى أن أتذكر الماضى الأبعد من ذلك».

«أعرف، ولكنه الماضى الوحيد الذى أرغب فى تذكره».

راح زهير يكتب الرسالة إلى هند، حكى لها عن مبارزته مع دون ألونزو، والعواقب المأساوية التى نجمت عنها، وصف لها الدمار الذى

حاق بالقرية والمنزل، وتوسل إليها ألا ترجع أبدًا.
كم كنت سعيدة الحظ لأنك عثرت على رجل جدير بك، بعيد النظر مثل ابَن داوود. أظن أنه كان يعرف منذ مدة طويلة أن معركتنا ضد الزمن خاسرة لا محالة. الشيخ الذى يحمل لك رسالتى هذه يأكله الندم وتأنيب الضمير بلا جرم، سوى أنه ما زال حيًا. اعتنى به جيدًا.
لقد فكرتُ فيك كثيرًا خلال الأيام القليلة الماضية، وتمنيت لو أننا كنا نتحدث أكثر إلى بعضنا بعضًا عندما كنا نعيش فى البيت نفسه. سأعترف لك بأن قطعة منى تريد المجىء إلى فاس مع الشيخ؛ لكى أراك أنت وابن داوود، ولأراك تحملين أطفالاً، وأكون خالاً لهم، وأن أبدأ حياة جديدة بعيدًا عن كابوس التعذيب والقتل الذى يقبض على شبه الجزيرة كلها. ومع ذلك فقطعة أخرى منى تقول: إننى لا يمكنننى أن أهجر رفاقى وسط كل هذه الأهوال. إنهم يعتمدون علىَّ. لطالما رأيتنى أنت وأمنا شخصًا مترددًا حائرًا، سهل الاقتناع بأى شىء ويفتقد الحزم والصرامة. لعلكما كنتما على حق، ولكننى أظن أننى تغيرت كثيرًا. ولأن الآخرين يعتمدون على فلابد من أن أضع على وجهى قناعًا، هذا القناع أصبح كأنه جزء منى إلى الحد الذى يصعب معه أن أتبين وجهى الحقيقى.
سوف أعود إلى البوچارا، حيث نسيطر على عشرات القرى، وحيث نعيش كما عهدنا قبل حرب الاسترداد. يظن أبو زيد المعرى، وهو شيخ لو رأيته لأعجبت به كثيرًا، بأنهم لن يسمحوا لنا بالعيش هنا لمدة أطول من تلك. يقول: إن ما يرمون إليه ليس خلاص أرواحنا وتحولنا، بل ثرواتنا، والسبيل الوحيد الذى يمكنهم به الاستيلاء على أراضينا هو محونا من الوجود إلى الأبد. إن كانوا على حق فقد كتب علينا الاندثار مهما فعلنا، وحتى يحدث ذلك فسوف نواصل القتال. أرسل إليك كل أوراق زنديقنا العجوز، احرصى عليها وأبلغينى برأى ابن داوود عن محتواها.
إذا أردت التوصل إلىَّ، وأنا مصر على أن أعرف عندما ترزقين

بأول مولود لك، فإن أفضل وسيلة لذلك هى أن ترسلى رسالة إلى عمنا فى غرناطة، وهناك أمر آخر يا هند، إننى أعرف أننى منذ الآن وحتى آخر يوم فى حياتى سوف أبكى أخى المقتول، وأبوينا كل يوم، فليس هناك قناع يمكنه أن يغير ذلك بداخلى.

أخوك، زهير.

لم يستطع القزم النوم لأكثر من ساعة أو ساعتين. عندما طلع الفجر أخيرًا، نهض وغادر الغرفة ليتوضأ، وحين عاد كان زهير جالسًا فى الفراش، متطلعا نحو نور النهار المتسلل من النافذة.

«السلام عليك يا صديقى الشيخ».

نظر القزم نحوه فى هلع. خلال الليل، ابيضّ شعر زهير كله. لم يقل أحدهما شيئًا. رأى زهير الصندوق الذى يحتوى على قطع الشطرنج الخاصة بيزيد بين أشياء القزم.

قال القزم وقد عاوده البكاء: «لقد تركها معى عندما صعد ليرى إن كان بوسعه العثور على السيدة زبيدة، فكرت أن السيدة هند سوف يسرها أن تعطيها لأطفالها».

ابتسم زهير مغالبًا دموعه.

بعد ساعة كان القزم على متن سفينة تجارية، وزهير على الشاطئ يلوح له مودعًا.

رد القزم بصوت شائخ: «فى حماية الله يا زهير الفحل!».

همس زهير لنفسه: «أية حماية؟».



خاتمة

بعد عشرين عامًا، أصبح القائد المنتصر فى معركة المذيل فى أوج سلطانه وعظمته، معروفًا فى العالم كله باعتباره القائد العسكرى الأكثر خبرة فى جيوش مملكة إسبانيا الكاثوليكية. نزل عن متن سفينته الحربية على ساحل يبتعد عن بلاده آلاف الأميال. خلع خوذته القديمة التى لم يبدلها أبدًا، رغم أنه أهديت إليه خوذتان من الفضة الخالصة. كما أنه أطلق الآن لحية، كان لونها الأحمر سببًا فى الكثير من المزح البذيئة. صحبه مساعداه فى هذه المهمة، أصبح كلاهما الآن قائدًا بجهده وأعماله.

ظلت الحملة مسافرة لأسابيع عديدة عبر مستنقعات وأدغال كثيفة، وعندما بلغ مقصده، قدم سفراء الحاكم المحلى التحية له، وهم يرتدون أثوابًا ذات ألوان غاية فى الغرابة. تم تبادل الهدايا، ثم اصطحبوه إلى قصر ملك البلاد.

كانت المدينة مبنية فوق الماء. ولا حتى فى أحلامه، كان يمكن للقائد أن يتخيل وجود شىء مثل ذلك. تبحر القوارب بالناس من جانب فى المدينة إلى آخر.

سأل مختبرًا مساعده والقارب يمضى نحو القصر: «أتعرف ماذا يسمون هذا المكان الرائع؟».

«المدينة اسمها تينوشتيتلان(*) واسم الملك موكتيزوما(**)».

قال القائد: «تكلف بناؤها ثروات كبيرة».

أتى الجواب: «إنهم قوم فاحشوا الثراء أيها القائد كورتيز».

ابتسم القائد.

(*) العاصمة القديمة لإمبراطورية الأزتيك، كانت تقع فى الموقع الراهن لمكسيكو سيتى.
(**) موكتيزوما الثانى، هو آخر ملوك إمبراطورية الأزتيك.

الكتب خان للنشر والتوزيع©

١/ ٣ شارع اللاسلكى - المعادى الجديدة - ١١٧٤٢ - القاهرة.

تليفون : ٢٥١٩٤٨٠٧ ٢٠٢ +

البريد الإلكترونى : info@kotobkhan.com

الموقع الإلكترونى : www.kotobkhan.com



"طارق على يروى لنا قصة عواقب سقوط غرناطة، من خلال سردية طويلة، لعائلة من أولئك الذين كانوا يحاولون البقاء على قيد الحياة بعد انهيار عالمهم. الرواية بارعة فى استدعاء شكل الحياة بالنسبة لأولئك من ذوى القدر المشئوم المحاصرين من كل جانب فى عالم مسيحى لا يعرف التسامح. رواية لديها ما تقوله.. وتقوله جيدا"

(الجارديان)

طارق على يضع يده على إنسانية وروعة إسبانيا الإسلامية.. قصة فاتنة .. منقطعة النظير بحيويتها واقتصاد لغتها. "ظلال شجرة الرمان"رواية ساخرة وأمينة، مثقفة وماتعة، تاريخ حقيقى بقدر ما هى خيال روائى... كتاب تتذوقه وتلتهمه.

(الإندبندنت)

طارق على كاتب ومخرج سينمائى، له أكثر من عشرين عملا فى التاريخ والسياسة العالمية، بالإضافة إلى سيناريوهات للمسرح والسينما. "ظلال شجرة الرمان" هى العمل الأول من خماسية روائية تتبع تاريخ الإسلام، ترجمت إلى عدة لغات ومنحت جائزة: "**Archbishop San Clemente del Instituto Rosalia de Castro Prize**" لأفضل عمل روائى منشور بلغة أجنبية فى إسبانيا فى ١٩٩٤.كما حصلت خماسية الأسلام علي جائزة **Granadillo** في مهرجان **VII Fiesta de las Culturas de Granada** في أسبانيا سنة ٢٠١٠.



ISBN 978913630-6-42
9 789789 116300